رواية

اهوال الاستبداد

تأليف العلامة الروسي الشهير

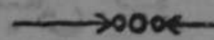
الكونت الكسي تولستوي



عرّبها عن اللغة الروسية بتصرف

خليل بيدس

صاحب مجلة النفائس



طبعت في المطبعة الوطنية . حيفا (سوريه) سنة ١٩٠٩

المقدمة

وضع هذه الرواية المؤلف الشهير والكاتب البليغ والشاعر الذائع الصيت الكونت الكسي تولستوي الروسي وهي من خيرة الروايات الادبية لما تتضمنه من العِبر والحكم في تثقيف الاخلاق وتنوير الاذهان وحث النفوس على الكمالات الانسانية فضلاً عما تنطوي عليه من الحقائق التاريخية والوقائع المؤثرة والحوادث المشوّقة الى غير ذلك مما يتفكه به المطالع ويستفيد منه المتأمل بصيرةً وعلماً . ومما يدلّ على شهرتها في عالم الروايات انها تُرجمت الى اكثر اللغات الافرنجية كالفرنساوية والنمساوية والانكليزية والبولونية والايطالية وغيرها وحازت بين سائر الروايات مقاماً رفيعاً ومنزلة سامية . ولقد تصرفت في تعريبها بزيادة واسقاط وتغيير وابدال وتبويب لتكون موافقة لذوق قرآء العربية وسميتها « اهوال الاستبداد » لما يراه المطالع فيها من الاستبداد والجور والعسف والظلم وغير ذلك من الفظائع والكبائر التي تعافها الانسانية . اما اسمها الحقيقي فهو « كنياز سيريبرياني » اي الامير سيريبرياني وهو احد ابطالها . فحسبي ان تقع عند جمهور القرآء الكرام موقع القبول والاستحسان والله سبحانه وليّ التوفيق بمنه وكرمه

خليل بيدس

الفصل الاول

﴿ الامير نيكيتا ﴾

على بُعد ثلاثين كيلومتراً ونيّف من مدينة موسكو عاصمة الروس القديمة قرية يقال لها ميدفيدفكا وهي قائمة في بقعة جميلة تكتنفها السهول والغياض الزاهرة والمناظر الطبيعية الانيقة

ففي سنة خمس وستين وخمسمئة والف في الثالث والعشرين من شهر حزيران — يوم بدء روايتنا — كان احد امرآء الروس المدعو نيكيتا سيريبرياني قاصداً القرية المنوه بها تتبعه كوكبة من خدمه وفرسانه وهو يتقدمهم راكباً جواداً كريماً عليه سرج من الديباج الاحمر الثمين . وكان هذا الامير قد قضى متغيباً الى ذلك العهد عن بلاده خمس سنوات منفذاً من قبل الملك يوحنا الرابع الروسي الى جيغيموند ملك ليتفا ليعقد معه معاهدة تكفل السلم العامة بين المملكتين المتجاورتين الى امد بعيد وذلك عَلَى اثر حرب كانت قد شبت نارها بينهما فيما سبق . بيدَ ان الامير نيكيتا لم يفلح في ما انتدب اليه . فانه بينا كان على وشك الفراغ من تقرير المعاهدة المشار اليها مع مندوبي مملكة ليتفا اذ عرض حادث صغير يتعلق بامر تسوية بعض الشوءون حال دون المرام وجاء مدعاة لامتشاق الحسام واستئناف الحرب بين المملكتين . وقد خشي نيكيتا ان يغيظ بذلك وليّ نعمته غير ان الامر كان بالعكس فانه

صادف استحساناً عظيماً قوّى عزمه وضاعف همته فرافق النصر اعلامه واحاط الفوز بركابه وتقهقرت امامه عساكر الملك جيغيموند ولم تقم لهم قائمة . وبذلك اكتسب الامير صيتاً حسناً ترامى ذكره في الارجاء الروسية وانتهى الى الملك يوحنا فسرّ سروراً عظيماً واثنى اطيب الثناء عَلَى شجاعة قائده وبسالته .
اما الامير فبعد ان عقد شروط الصلح حسب هواه عاد الى بلاده جذلان يمني نفسه بادراك الرغائب التي كانت تنزع اليها وتحقيق الآمال التي كانت تشغل فوءاده

وكان هذا الامير طويل القامة حسن المنظر شائق الطلعة له من العمر خمس وعشرون سنة تلوح عَلَى محياه ملامح كرم العنصر وشرف النفس مع رقة في الابهة وتواضع في الجلال ومجمل القول ان جميع ما كان يبدو عليه من السمات والامارات كان ينبيء باجلى بيان انه سليل كرام وانه اهلٌ لكل رفعة واجلال وانه انما لمثله يُفوّض جليل الاعمال وبه يناط تدبير الشوءون والاحوال . وكان ايضاً ذا اخلاق راضية وعواطف لينة موصوفاً بالاباءة والعزةً يميل اليه المرء لاول وهلة ويرتبط معه بصداقة متينة لا يحلّ عراها شيء من امور الدنيا وتراه حريصاً على ذلك متفانياً في تتميم مقتضياته اللهمّ اذا لم يرَ من قرينه مايجوز ان يسمى خيانة

وكان الامير نيكيتا كلفاً بالاسفار الاَّ ان عودته الى وطنه

هذه المرة كانت اوقع في قلبه وأدعى لسروره لما كان يتوقع من المكافأة على ما ابدى من كبير الاعمال وقام به من الشوءون الخطيرة تتميماً لرغائب ولي نعمته. بيدَ ان تيارات اخرى كانت تتلاعب بافكاره فتجول بها في فلوات الهواجس ويمّ الاوهام فيقطب وجهه تارةً ويبسم ثغره اخرى كانه كان ينظر الى ما خبأه له المقدور في مطاوي الايام

اما المناظر الطبيعية التي كانت تبدو امامه فكانت بهجة تروق البصر وتأخذ بمجامع القلب وتدفع النفس الى الهذيذ والتأمل بما ابدعه الحكيم المنان . اما هو فلم تكُ تلك المشاهد الفتانة تشغل عقلهُ عما استحوذ عليه من الافكار المختلفة التي لم يكن يدري الى اي طيةٍ يوجهها ليستقرّ بها قراره آمناً مطمئناً

وكان من وقت الى آخر يردّد في خلده قوله : لم يبقَ بيني وبين العاصمة الاَّ مسافة قصيرة سأطويها بالعجل واطير بكلي الى من وقفتُ عليها جميع عواطفي واحللتها من قلبي في شغافه لكن تُرى هل افوز بتلك المنى واحظى بالسعادة بعد العنا ؟ . . اولم يجرِ في غيبتي ما قطع تلك العرى وحلّ تلك المواثيق التي ارتبطتُ بها مع مليكة فؤادي ؟ . . أهيلانة يا فاتنتي . لو علمتِ ما يخامر قلبي من الجوى وما اعانيه من الاسى وفرط الشجن لكنتِ ترين قلباً يتلظى على نار الغضا وصباً ضاق به

الفضا وهو لا يدري اين المصير... على اني لي الثقة التامة بان اراكِ عن كثب ٍحريصة عَلَى العهود تتوقعين قدومي...

وما زال نيكيتا خائضاً في بحر هذه الافكار حتى بلغ مع اتباعه قرية ميدفيدفكا السابقة الذكر

الفصل الثاني

﴿ في القرية ﴾

ما بلغ الامير نيكيتا قرية ميدفيدفكا حتى علم الاهلون بقدومه فهرعوا لاستقباله وتحفوا به وبالغوا في اكرامه وكان ذلك النهار عندهم عيداً حافلاً فتألبوا جميعاً الى الساحة العمومية وطفقوا يطربون و يترنمون بالاناشيد الشجية والاهازيج الوطنية التي ازاحت عن صدر الامير عبئاً ثقيلاً

ولما استقرّ بالامير المقام صرف فرسانه وخدمه ليأخذوا نصيباً من الراحة و يعدّوا الطعام اما هو فآثر التلذذ بسماع الاغاني الوطنية التي كان ينشدها فريق من فتيان القرية وفتياتها وقد افترّت منهم الثغوو وثلجت الصدور . وفي اثناء ذلك كان المتقدمون في القرية وشيوخها قد وفدوا عَلَى الامير لتأدية التجلة والسلام فتلقاهم هو بوجهٍ باش وانسٍ زائد واشار اليهم بالجلوس فجلسوا محيطين به احاطة الهالة بالقمر وطفقوا يحادثونه بما دلّ عَلَى ارتياحهم اليه واعتبارهم له

قالوا : ان فتياننا ايها الامير لما عاينوك مقبلاً الى القرية يتبعك فرسانك وحاشيتك ظنوا انكم من رجال الحرس فكفوا عن الغناء وتحفزوا للفرار لو لم نطمئنهم ونشدّد عزائمهم ونؤيد لهم شطط زعمهم بعدم وجود العلامة المختصة باولئك القوم معكم

فذهل الامير عند سماعه هذا الكلام وقال لهم : ثقوا باني لم اسمع قط بهذا الاسم ومن هم هؤلاء الحرس الذين ذكرتموهم؟

اجابوا : انهم ايها الامير قوم اجلاف غلاظ الرقاب يطوفون بين ظهرانينا في اكثر الاوقات عاملين على نهب راحة العباد واسترقاقهم بقولهم : انما نحن رجال الملك وقد أمرنا ان نكتسحكم وننهب اموالكم ونسبي نساءكم وننكل بكم تنكيلاً امـا انتم فما عليكم الا الصبر والتسليم لان هذا ما سنته الشريعة

فازداد الامير انذهالاً وقال : ما هذا الزيغ الذي يذيعونه والطغيان الذي يرتكبونه وكيف تصدقونهم انتم وتستسلمون لارادتهم صاغرين ولمَ لم تطردوهم وتقودوهم الى محل القضاء ؟

اجابوا وقد استغربوا كلامه: حيّاك الله ايها الامير وقد يلوح لنا انك آتٍ من بلاد نائية واصقاع سحيقة والا لما كان يخفى عليك امر هؤلاء الحرس الذي شاع وذاع وملأ الاسماع حتى ان صغار الاحداث يعرفون ذلك ويتناقلونه برهبة وخوف . فمن يقدر ان يقوم بوجه هؤلاء العتاة ولا يؤدي لهم الطاعة والانقياد بيننا

نراهم قد خوّلوا تدمير البلاد واجتياح العباد ونهب البيوت واستباحة ما حرّمه الله والطبيعة . وها نحن نحيط لك اللثام عن بعض ما أجروه في قريتنا من الفظائع المنكرة من عهد قريب فان شرذمة منهم قد هجموا في الاسبوع المنصرم علينا فهمّ بعض رجالنا ان يعترضوهم . فاسكتوهم بالسباب وسفيه الكلام والضرب العنيف وهرعوا الى منزل اسطفان ميخايلوف احد وجهاء قريتنا ولم يكن في المنزل اذ ذاك الاّ زوجته المسكينة . فلما انتهى الحرس اليها طفقوا يطلبون منها ما شاءوا وهي تحضر لهم صاغرةً ما تيسر لها اذ ذاك من المأكول والمال ولما لم يقنعوا بكل ذلك اماتوها شرّ ميتة وهموا بالانصراف واذا بزوجها قد حضر واذ رأى زوجته ملقاة عَلَى الحضيض ثار ثائره ونبض نابضه وعلق يشتمهم ويؤنبهم على افعالهم الوحشية . اما هم فلم يمهلوه ريثما اتم كلامه حتى طعنه واحد منهم بحسامه فارداه قتيلاً . . .

فزاد ذلك في غيظ الامير وقد هاج الدم في رأسه فضرب الارض برجلهِ وصاح : ابلغ من هوءلاء اللصوص ان يجتاحوا عباد الله حتى في ارباض العاصمة؟ واشدّ ما يذهلني انكم تقاعدتم للان عن الضرب عَلَى ايديهم الاثيمة وقمع شوكتهم وتأديبهم . . . واقد سمعتكم في بدء الحديث تشيرون الى علامةٍ يتسمون بها فما هي ؟

اجابوا هي مكنسة ورأس كلب يحملها زعماوءهم بازآء السرج رمزاً الى انهم يبغون ان يكنسوا من المملكة كل موأامرة ضد الملك وينهشوا اعداآءه نهشاً

فاطرق الامير هاجساً عابساً وقد عوّل على ان ينبيء الملك بكل ما سمعه من هذه الاخبار الغريبة حفظاً لراحة الرعية وذوداً عن حقوقها من تخديش اولئك اللصوص الاثمة · وفيما هو كذلك اذ سمع بغتةً صوتاً ضعيفاً يستغيث وما عتم ان رأى فتى يسيل من اطرافه الدم قد بادر الى جماعة المرنمين والمتألبين حولهم من رجال القرية ودخل بينهم وهو يصيح : أغيثوني ·· اغيثوني ·· خبئوني ·· فتراكض اليه الحاضرون وهم يقولون ماذا اعتراك ايها الفتى ؟ اما هو فاجابهم بصوت مرتجف تخنقه العبرات : هناك كنت ارعى غنمي مع شقيقتي ·· واذا بهم قد هجموا علينا وصاروا ينحرون الاغنام · ولما بصروا بشقيقتي اختطفوها واما انا ··

ولم يكد يفرغ من كلامه حتى قاطعته اصوات متعددة · فان نساء كثيرات كنّ يركضنَ من اطراف القرية ويولولنَ قائلات : مصيبة عظيمة ·· فادحة شديدة ·· خبئوا البنات فان رجال الحرس آتون الى هنا وقد اختطفوا دونكا وحنة وقتلوا اولغا و ·· و ·· و ··

ولم يكن بعد ذلك الا لحظةٌ حتى ظهر عن بعد فرقة من

الفرسان لا يقلّ عددهم عن الخمسين وقد سلوا السيوف وساروا نحو المكان الذي كان مجتمعاً فيه الجمهور السابق الذكر . وكان يتقدمهم شابّ حسن الملبس حادّ العينين وقد نيط بسرج جواده مكنسة ورأس كاب وهو يسير بانفة وخيلاء مردداً بصوت جهور قوله : انحروا المواشي . امسكوا الفتيات . اجلدوا الفلاحين . اقبضوا عَلَى الشيوخ واذيقوهم مرّ النكال . . احرقوا القرية ولا تشفقوا عَلَى احد . . .

فلما سمع اهل القرية ذلك هاجت قلوبهم لعلمهم بما اشتهر عن رجال الحرس من الغلاظة في المعاملة وقد كبر الامر عليهم وايقنوا بحلول مصابٍ كبير ولم يعلموا باي طريقة يتخلصون من هذه البلية . اما الامير نيكيتا فاذ سمع باذنه غلاظة هؤلاء الحرس ورأى بعينه ما تفاقم بسببهم من القلق الشديد والخوف الجسيم هاج غيظه الكامن وبلغت منه الحدة مبلغها . فطمأن قلوب الاهلين وقال لهم : عليّ انقاذكم من هذه الورطة وكبح جماح هؤلاء المردة . ثم اشار اليهم ان يتفرقوا ويعتصموا ببيوتهم وقام هو مع فرسانه وانطلقوا الى مكان آخر وكمنوا وعيونهم تراقب رجال الحرس

اما زعيم الحرس فلما وصل الى المكان الذي كان ملتئماً فيه الجمع وقف حائراً مبهوتاً لانه لم يرَ في تلك البقعة الاّ رجلاً طاعناً

في السن كان لم يزل في احد اطرافها وقد خانته رجلاه عن الفرار والاختفاء فناداه الزعيم قائلاً : قد سمعنا من بعيد اصوات غناء وطرب فاين الفتيات اللاتي كنَّ يغنينَ ويلعبنَ في هذه البقعة ؟

فلم يحرِ الشيخ جواباً ولبث لا يتحرَّك من هول ما داهمه من الهلع · فعبس الزعيم وجهه وقطب حاجبيه ولكز جواده حتى اقترب من الشيخ المذكور ثم رفع سوطه وضربه به ثلاثاً قائلاً : يظهر انك بلا لسان ايها الاحمق فيجب ان ينالك شيء من العقاب ثم امر اتباعه ان يشنقوه حالاً فدنا من الشيخ المشار اليه نفرٌ من الحرَس ووضعوا في عنقه حبلاً وقادوه الى شجرة قريبة : اما هو فاخذ يستغيث بهم ويلتمس شفقتهم وحنانهم فلم يرَ الاَّ صدوداً : بيدَ ان الحرَس ما كادوا يصلون الى الشجرة المنوَّه بها و يبادرون الى عملهم الفظيع حتى سمعوا بضع طلقات متوالية تبعها هجوم عشرة رجال مشاة من القرية وفي اثرهم فرسان الامير نيكيتا وقد اشرعوا الاسنة وصاحوا بهم صيحةً تزعزع الجبال وقد ارتفعت لهم ضوضاة شديدة

الفصل الثالث

✻ رجال الحرَس ✻

لم يكن رجال الحرس يتوقعون مثل هذه المفاجأة ولم يكن ليخطر في بالهم ان احداً يجترىء علَى مناوأتهم او اعتراضهم في ما

يفعلون . ولذا فلما رأوا فرسان الامير نيكيتا قد اطبقوا عليهم من كل جانب وهم يتوعدونهم بكل ويل وثبور ذهلوا اشد الذهول واسقط في ايديهم . اما رجال الامير فما امهلوهم ان سدّوا سيف وجوههم كل سبيل وانقضوا عليهم كالبواشق واعملوا فيهم السيف البتار وفرّقوهم بعد ان اثخنوا فيهم واعتقلوا جماً غفيراً منهم وجندلوا كثيرين . وكان الامير نيكيتا في اثناء هذه المعركة قد التقى بقائد الحرَس فعاجله بضربة كادت تكون القاضية فسقط عن جواده الى الحضيض وللحال ترجل الامير فشدّ منه الاكتاف وسأله بغلظة : من تكون ايها اللص الزنيم ؟

فنظر اليه قائد الحرس بشراسة غريبة وقد قدحت عيناه شرراً وقال بجفاء ابتئني اولاً : من تكون انت حتى تجسر على اهانة رجال الملك . . . وسترى ايها النذل مغبة فعلك الذميم

فرفع الامير يده وعوّل علَى ان يقضي عليه لو لم تعجبه شجاعته الغريبة وعدم جبنه وهو في هذه الحالة . فاخذ يحدّق فيه وهو يزداد استغراباً . وفي هذه الهنيهة دنا من الامير اكبر خدامه واسمه ميخيتش وقدم اليه مكنسةً وراس كلب وهو يقهقه ضاحكاً ويقول قد وجدتهما يا مولاي مُعلَّقين عَلَى سرج جواد هذا اللص (واشار الى قائد الحرس) . فحرّك الامير رأسه وهزّ كتفيه مطرقاً صامتاً . ولم يكن الاّ القليل حتى دنا منه فرسانه يقودون

جوادين قد اعتقل في سرجيهما رجلان غريبا الزي احدهما كهل ذو لحية كبيرة قد وخطها الشيب والاخر شاب في سن الثلاثين ذو عينين سوداوين حادتين وملامح البسالة بادية على محياه

فالتفت الامير الى رجاله قائلاً : من هذان الرجلان وما السبب في اعتقالهما على هذه الحالة؟

اجابوا : انّا يا مولانا قد الفيناهما كما ترى في طرف هذه البقعة وكان بعض رجال الحرس قائمين عَلى حراستهما فتولينا تخليصهما وقدناهما اليك

فقال الامير : حُلّوا منهما الوثاق واطلقوا سراحهما

اما الرجلان المجهولان فعقيب ان شعرا بالحرية التامة ظلاّ في مكانهما والسنتهما منطلقة بالشكر لمن احسن اليهما وابصارهما شاخصة الى رجال الحرَس وما يكون امرهم وماتكون نتيجة هذه الحادثة

وكان الامير نيكيتا على اثر ذلك قد وجه خطابه الى الاسرى من رجال الحرس قائلاَ : والان افلا تطلعوني عَلى سرّكم وتنبئوني بجلية امركم وكيف ساغ لكم ان تتسموا برجال الملك وانتم لصوص اثمة ؟

فاجابه واحد من الحراس : ان سوألك ليذهلنا ايها الرجل

أَلم تدرِ بعدِ من نكون ؟ العلك هبطت من السماء حتى انك لا تعرف « حرس الملك » الذين لم يبقَ احد في جميع اطراف المملكة الروسية الا ويعرفهم تمام المعرفة ..

ولم يكد يفرغ من كلامه حتى قاطعه الزعيم بقولهِ : هكذا يخيل لي انه هبط من السماء او خرج من الجحيم والا لما كان يجهلنا ويغرر بنفسه هذا التغرير الذي سيفضي به ولا شك الى محل النطع والنكال

فازداد انذهال الامير عند استيعابه كلام الزعيم الجريء وقال له : اعلم يا هذا انك ان بقيت مصراً على عدم التصريح باسمك فليس جزاؤك الا الشنق في هذه الساعة

فحدجه الزعيم حدجة خيلاء وقال : انا متى خومياك احد اتباع الشريف ماليوتا سكوراتوف اخدم سيدي بامانة وابذل مهجتي في سبيل رضى الملك . ولقد اختارني سيدي الملك لان اكون احد زعماء حرسه الخاص واطلق ايدينا في الضرب على ايدي العصاة وقمع شوكتهم من البلاد الروسية وها انذا قد انبأتك بنفسي آملاً ان تميط لي انت ايضاً اللثام عن اسمك حتى اذكرك حين الحاجة اذ لا بد من استدعائك عما قريب ومعاقبتك على ما جنته يداك

فاشتد احتدام الامير وامر بعضاً من رجاله ان يبادروا الى شنق زعيم الحراس . ولم يكن الا اسرع من وري الزناد حتى

رأيت نفراً من رجاله قد احاطوا بالزعيم ووضعوا حبلاً في عنقه وعزموا على جرّه الى الشجرة الدانية منهم وتعليقه عليها كما اراد ذووه من هنيهة ان يفعلوا ذلك بالشيخ القروي المذكور فيما مضى . بيد ان احد الرجلين المجهولين اللذين اطلق الامير سراحهما قد حال دون تتميم هذا العقاب ودنا من الامير وقال : ايأذن لي حضرة الامير بالكلام ؟

اجاب الامير : قل ما بدالك

قال : لقد اوليتنا اليوم ايها الامير الخطير احساناً عظيماً بانقاذك ايانا من ربقة هوءلاء الاشقياء (يعني الحرس) . فنحن نتقدم اليك ايها الامير متوسلين ان تدع هولاء الناس وشأنهم وان لا تشنق قائدهم . ويلوح لي انك كنت في بلاد قاصية قضيت فيها زمناً طويلاً متغيباً عن الاوطان ولذا فانت تجهل الانقلاب الكبير الذي جرى فيها . وعليه فان كنت ترغب في الحياة طويلاً فأسألك ان تعفو عن هذا اللص خوميك ليس حباً بحياته بل حباً بحياتك ايها الامير وحذراً مما يعقب مثل هذه المعاملة مع رجال الملك من الويلات والنكبات . اما عقابه ففوّضه الينا ونحن نجريه فيما يلي من الزمن ان شاء الله

ولما فرغ هذا الرجل من كلامه اطرق الامير مفكراً وقد ادهشه هذا التحذير لا سيما وانه ادرك من خلاله ان قائله انما

تكلم ذلك عن تعلق واخلاص شديدين . وقد لاح له ايضاً ان هذا الغريب قد تعوّد الامر والنهي وان له لا شك امراً سرياً لم يقوَ عَلَى استظهاره . فسأَله قائلاً ارغب اليك ايها الرجل ان تنبئني بحالك فقد ادهشني ما اقدمت عليه من التماس العفو عن هذه العصابة الاثيمة مع انك كنت من هنيهة مع رفيقك تقاسيان مضض الاسر منها

فاجابه الغريب : اجل يامولاي ولولاك لكنا الان في حالة الهوان والاضمحلال . ومع هذا فاني بالحاح التمس لهم العفو منك . ولي ملء الثقة بانك حال وصولك الى موسكو واطلاعك عَلَى ما يجري الان فيها من الغرائب لا تندم عَلَى اطلاق سبيلهم . وهب انك قضيت عليهم الان أَفي مأمن انت من غيرهم ؟ او تزعم ان رجال الحرس هذه الشرذمة فقط ؟ كلا يا مولاي فانهم كثيرو العدد وقد استشرى شرهم واشتدت شوكتهم حتى انه لا يسلم من اذاهم احد

كان الامير نيكيتا يسمع هذا الرجل المجهول بمزيد الاستغراب حتى اذا اكمل كلامه كان قد سكن تهيج افكاره فعزم على ان ينصاع لمشورته ويصرف الحراس ويطلب من الحكومة تأديبهم وقمع شوكتهم : وفيما هو بهذه الحالة دنا منه ميخيتش اكبر خدمه وقال له : ارى يا مولاي ان هذا الرجل قد اصاب المرمى في التماس العفو عن هؤلاء الاشقياء وقد رأيت علامات العفو بادية عَلَى محياك فالتمس منك ان تأذن لنا قبل اطلاق سبيلهم ان نجلد

كلاً منهم خمسين سوطاً حتى لا يستأنفوا اعمالهم هذه في المستقبل

فلم يفه الامير ببنت شفة بل ظلّ غارقاً في تأملاته وتصوّراته

اما ميخيتش فظنّ ان مولاه لا يأنف من تتميم ملتمسه وما كان الاَّ كلمح البصر حتى بادر الى الحراس وبمساعدة رجال الامير تمم ما عوّل عليه بدقةٍ كليةٍ. ولما فرغ من عمله عاد يمشي الهوينا والسكينة لائحة على وجهه ويداه وراء ظهره كرجلٍ فارغ البال راضٍ عما صنع. فلما رآه الامير على هذه الحالة لم يتمالك من الضحك رغماً عما به من تلاعب الافكار. وما كان بعد ذلك الاَّ القليل حتى امر رجاله بتجريد الحراس من اسلحتهم واطلاق سبيلهم

اما رجال الحرس فما كاد يفرج عنهم حتى امتطوا صهوات جيادهم وكرّوا راجعين وهم يحرقون الأُرَّم. ولما تواروا عن الابصار همّ الامير باستئناف السفر مع ان الليل كان قد ارخى سدوله على تلك البطاح. بيد انه لما رأى ان رجاله قد نهكهم الكلال واعياهم المسير صرفهم ليأخذوا نصيباً من الراحة حيث يشاءون وامرهم ان يوافوه في اليوم التالي الى موسكو. اما هو فاختار ان يسير وحده مع خادمه ميخيتش. فاستوقفه الرجلان الغريبان وقالا له: اتأذن لنا ايها المولى الجليل بان ننضمّ اليك ونرافقك في هذا الطريق ليس خشيةً عليك من احد بل لان وجهتنا واحدة

فلم يأبَ الامير قبول ملتمسهما وساروا بعد ذلك جميعاً صامتين هاجسين وما عتموا ان خاضوا عباب الحديث

الفصل الرابع

﴿ في الطريق ﴾

كانت تلك الليلة حالكة الظلام بحيث لا يكاد يُرى على جانبي الطريق غير اشجار كثيفة تزيد المكان رهبةً . ولم يكن اصحابنا الاربعة — الامير وخادمه والرجلان الغريبان — يسمعون غير نقيق الضفادع وحفيف الشجر بمرور النسيم وصوت وقع حوافر خيولهم الذي كان يردّده الصدى بحيث كان يخيل لهم من وقت الى اخر ان فرساناً آخرين قادمون اليهم ثم لا يلبثون ان يردّهم الانتباه الى الحقيقة . وكان الامير نيكيتا يسير ساكتاً مشتغل الذهن بنقيق الضفادع ونعيق الغربان على تلك الاشجار وحفيف الورق والاغصان وخرير الماء الذي كان يجري بالقرب من ذلك الطريق ولم يلبث ان تقاذفته الشواغل والهواجس واندفعت افكاره في موامي الخيال اي اندفاع . اما الخادم ميخيتش فكان يسير تابعاً لمولاه وهو صامت ايضاً وعيناه شاخصتان الى جميع الجهات كأنه يتوقع محذوراً . وما عتم ان دنا من الامير وقال بصوت خافت — يظهر لي يا مولاي ان هذين الرجلين يكنان امراً سرّياً وقد

خشيت منهما عليك واست اخالهما الا من قطاع الطرق والمجرمين

فلم يعبأ نيكيتا بكلامه بل اجابه — دعهما وشأنهما ولا تخشَ بأسهما لاني موقن انهما لا يبادران الى الايقاع بنا عقيب ان منحناهما الحرية والنجاة

قال الخادم — لكنني سمعتهما يتخاطبان همساً كانهما يحذران ان يسمعهما احد

اجاب الامير — كن ساكن الجأش من هذا القبيل

وما كاد يتم كلامه حتى سمع احد الغريبين ينشد اغنية وطنية شجية كان لها اشد تاثير في قلبه· ولقد اورد المرنم في هذه الاغنية حكاية حبيبين كان الزمان مبتسماً لهما والصفو حليفهما فما لبث الدهر الغادر ان فرّق شملهما وقطع رجاءهما . . . وكان الامير اثناء ذلك مصغياً اتمّ الاصغاء وما فرغ المنشد من انشاده حتى ازدادت شواغله وكثرت بلابله وعلقت تتقاذفه تيارات التخمينات المتباينة وودّ لو كانت له اجنحة لطار بها الى حبيبته بصدر يطفح مسرةً وحبوراً وقلب يرقص جذلاً وسروراً ونفس ملكتها دواعي الهناء حتى استفزّتها وجوارح استولت عليها السعادة حتى هزّتها . . . ثم جرى عَلَى خاطره فكر قطع ما كان يفعم فوءاده سروراً من حبال الآمال فعلق يناجي نفسه بقوله : وما ادراني اذا كانت هيلانة باقية الى الان عَلَيّ ولأي تعدّ الليالي والايام للقائي

اوشغلها عني شاغل وغيرتها صروف الزمان فنقضت عهود حبي من فؤادها وجعلته مسكناً لغيري . لا . فمعاذ الله ان تحنث هيلانة بيمينها او تكسر قيود المحبة التي تقيد بها قلبينا . اليست هي القائلة لي قبل رحيلي عنها الى ساحات الوغى — «اي حبيبي ثق بوفائي وشدة هيامي وكن موقناً انه لا توجد قوة بشرية تستطيع ان تسلب من قلبينا الحب المتبادل الذي ينمو مع الايام قوة واشتداداً واعلم يا حبيبي باني اطلب من الله على الدوام حفظك وردك الي غانماً منتصراً لاضفر على رأسك بيدي اكاليل الفخار والجلال ..» أفمن الممكن ان يخامر فؤاد من كان هذا كلامها ضرب من الصد والجفاء لرجل لم يزل مقيماً على هواها اميناً على عهوده . افلم يكن ذلك الحب الطاهر الذي ارتبطنا به قد خولني قوة عظيمة على اقتحام الاخطار وتذليل المصاعب واحتمال المشاق والمتاعب التي لا يحيط بها وصف ... اجل ان حبي لك يا هيلانة لا يشوبه دنس الشهوات فقد جمعت فيه بين العبادة الخالصة والاحترام التام فكان هو العفاف كله . وها قد عدت الان فائزاً بما منيت به نفسي من الاماني وسأراك ان شاء الله محافظة على عهدي واروي غليل اشتياقي ببهاء سناك .. ولكن آه هل يسعدني الزمان بنيل المنى وتحقيق الرجاء فاظفر بك واعيش في الغبطة والسعادة ام هو يترصدني لينصب لي حربه ويقطع قلبي بسيف الحرمان ؟ .

واو يلاه ان في قلبي ايتها الحبيبة هاتفاً ينذرني بسوء المصير وتعاسة المغبة

اؤمل وصلاً من حبيبٍ وانني على ثقة عما قليل افارقه
تجاري بنا خيل الحمام كأنما يسابقني نحو الردى واسابقه
فيا ليتنا متنا صغاراً فلم يذق مرارة فقدي لا ولا انا ذائقه

الفصل الخامس

الرفاق

ظلّ الامير نيكيتا وهو مشرد الافكار شاخص في الفضاء غارق في بحر تأملاته وتخميناته وانه لكذلك اذ سمع صوت جلبة وفي اقل من لحظة دهمه رجال بخيولهم فذعر وهبَّ الى سيفه فلم يمكنه اولئك الفرسان من استلاله بل اطبقوا عليه وارادوا الفتك به وبخادمه الذي كان وراءه . اما رفقة الامير فكانا متخلفين عنه قليلاً فلما سمعا الجلبة همزا جواديهما وهجما كالبرق الخاطف وقد سلاّ السيوف وهما يصيحان — ويلكم ايها الانذال ! ابتعدوا من هذا المكان والاّ اذقناكم الموت الزؤام

وما كادا يتمان كلامهما حتى قهقه احد الفرسان المحدقين بالامير وتبعه رفاقه وقد علا منهم ضجيج الاستحسان ثم تقدموا كلهم نحو رفيقي الامير وهم يقولون العفو يا صاحبينا . وترجلوا

ثمَّ عن خيولهم وكذلك فعل رفيقا الامير فتعانقوا وهنأُوا بعضهم بعضاً كل ذلك والامير لم يفهم كنه الامر بل وقف جامداً مندهلاً . وفيما هو كذلك دنا منه احد رفيقيه وقال له — المعذرة يا مولانا فان هؤُلاء القوم هم ذوونا ولم يُقدموا على فعلهم هذا الاَّ لاعتقادهم بانك من رجال الحرس لانهم ساخطون عليهم وقد اقسموا كما اقسمنا نحن ايضاً ان ينتقموا منهم ولا سيما حينما بلغهم انهم اسرونا

وما فرغ هذا من كلامه حتى تقدم الفرسان المشار اليهم وعددهم ثمانية وطلبوا العفو من الامير وشكروه عَلَى تخليص رفيقيهم من ربقة رجال الحرس وقالوا بعيد ذلك : اذًا يامولانا قد آلينا ان نقتل كل رجال الحرس لويلات اصابتنا منهم وقد صمَّمنا جميعاً مع رفيقينا هذين وغيرهما على طلب الانتقام ... ثم صاحوا كلهم قائلين : ليمحَ رجال الحرس عن وجه الارض وليمت زعماؤهم ... وكرروا تلك العبارة ثلاثاً بصوتٍ واحد فكان لها في تلك الغابة صدى بعيد وعقبها سكوت عميق . ثم ساروا بعد ذلك جميعاً يتقدمهم الامير نيكيتا وهو في اشد الاستغراب من هؤلاء القوم . وقد غلب عَلَى ظنه انهم من جماعة القوزاق او قطاع الطريق . وفيما هو غائص في لجة الافكار آنس نوراً عن بعد فسأل الجماعة : ما هذا النور ؟ العلنا عَلَى مقربة من بعض المنازل ؟

فتقدم اليه احد رفيقيه السابقين وقال : ان النور الذي تراه يا مولاي هو منبعث من طاحون في ذلك المكان فاذا شئت ان تعرّج عليها فتبيت فيها الى انبثاق الصباح قدناك اليها وعدنا مع اصحابنا ورجعنا ادراجنا نطوف الاحراش والغابات ٠ اما المسافة التي تبقى من الطاحون الى موسكو فهي دون القليل

وكان قد مرّ نصف الليل وغلب التعب والنعاس على ميخيتش ولحظ الامير منه ذلك كما لحظ ان هوءلاء القوم لا يجسرون ان يسيروا معه الى العاصمة خوفاً من ان تدركهم يد الحكومة فقال : لا بل نتحوّل اليها وافضل الوصول الى موسكو صباحاً من الوصول اليها ليلاً ٠ وهل نجد في الطاحون مبيتاً ؟

اجاب : نعم ياسيدي واني اعرف الطاحون واعرف صاحبها فهو من اوفى اخلاّئي

فقال الامير : اني اشكر لك البسالة التي ابديتها مع رفيقك في هذا الليل الدامس وان قدّر لي كافأتك ايها الصنديد احسن مكافأة

فاجاب : بل نحن نشكر احساساتك الكريمة ايها الامير ولن ننسى مدى العمر انك انقذتنا من ايدي اولئك الطغام ٠ فثق باننا سنظلّ مع جميع قومنا اتباعاً وخدماً لك مدى الحياة ٠ وصرنا منذ الان نترقب الفرص علّنا نقوم لك بخدمة نفيك بها بعض

مالك علينا من المنَّة

فقال الامير : اشكرك على هذا الاخلاص شكراً جزيلاً . اما الان وقد حان الفراق فاسالك ان تنبئني باسمك

اجاب : اما اذا لم يكن بدٌّ من اطلاعك على اسمي فاعلم ايها الامير ان لي اسماء كثيرة تتقلب وتتبدل حسب انقلاب ظروف الاحوال . فأُعرَف الان باسم بيرستين ولا أعلم متى يكون غير ذلك . . وما زالا يتجاذبان اطراف الحديث و باقي الجماعة يتبعونهما فرحين حتى وصلوا الى الطاحون . فصفر بيرستين ثلاثاً وفي الحال اجيب صدى صفيره بصفير آخر وعلى اثر ذلك خرج من الطاحون شبح و بيده مصباح . فاحدق الامير بنظره فاذا به يرى رجلاً قصير القامة كبير الراس دميم المنظر يدبّ على الطريق و يقول — لم اكن انتظرك ايها العزيز في مثل هذه الساعة . . . ولما دنا منهم قليلاً قال — والانكى من ذلك انك آتٍ اليَّ ومعك رفاق وليس عندي كما تعلم ما يكفيكم و يكفي خيولكم . فدنا منه بيرستين وصافحه وقال له بصوت منخفض ليس مرادنا ان نبيت عندك كلنا وانما اطلب منك ان تهيىء مبيتاً لحضرة الامير وخادمه فاجاب الطحان بصوت خافت — اني افعل ما تشاء بيد اني أنتظر هذه الليلة قدوم امير آخر من موسكو والاَّ لما ترددت ان أُلبيك حالاً . وقد أمرني الامير المنوَّه به الاَّ اقبل احداً هذه

الليلة فكيف العمل ؟ فقال بيرستين همساً — لا يهمني امره او امرك وانما يهمني ان تقوم بضيافة الامير الذي جئتك به الان قياماً حسناً ولا تنبىء اميرك به ان كنت تخشى سطوته وباسه . افهمت ؟

فقال الطحان رافعاً صوته : سمعاً وطاعة . ثم تقدم الى الامير فحياه بهشاشة ودعاه ليبيت عنده . فلبى الامير وسار وراءه عقيب ان ودّع بيرستين ورفاقه . اما ميخيتش فنادى بيرستين وقال له : واذا احتاج مولاي الامير الى شهود بشأن ما اجراه مع رجال الحرس فكيف نجدكم وفي اي مكان ؟

اجاب بيرستين ضاحكاً : ان حضرة الامير لا يحتاج الينا لنكون له شهوداً لان شهادتنا لا تقوم فضلاً عن اننا لا نستطيع الظهور امام القضاة . اما اذا احتاج الامير لمساعدتنا في شان آخر فاسأل الطحان عنا ينبئك بمكاننا والسلام . ثم افترقا فسار بيرستين ينهب الارض وراء رفاقه وتبع ميخيتش مولاه

وما كان الاّ القليل حتى ترجل الامير وخادمه فقادهما الطحان الى غرفة صغيرة في الطاحون وقدّم لهما طعاماً وهيأ لهما فراشين على غاية البساطة ثم ودعهما وخرج بعد ان اقفل عليهما الباب . فاكل الضيفان ما تيسر ثم قاما الى مضجعيهما . فقال ميخيتش : ما هذا الطحان يا مولاي الا جني من الجان التي تسكن المغاور والكهوف ولقد كان الافضل لنا لو واصلنا سيرنا الى موسكو وبتنا هناك براحة

وطمأنينة

اجاب الامير : لا لزوم لان نقلق عباد الله في هذا الليل ونكدر راحتهم . على انه باذن الله لا خطر علينا في هذا الطاحون فماذا تخشى

قال ميخيتش — لو لم يكن صاحبها طحاناً لكنتُ باوفر راحة . نعم انه قدّم لنا طعاماً جيداً ولخيلنا شعيراً وافراً غير انه طحان

قال الامير : لم اعلم للان النكتة التي تخيفك منه

اجاب الخادم — الا تعلم يا سيدي ان كل طحان يكون رفيقاً للشياطين والجان وانه لا يعمل عملاً الاّ بمساعدة هذه الارواح الشريرة . ولست انا وحدي ازعم هذا الزعم بل كل الناس ينظرون الى الطحانين كانما هم اناس اصطحبوا مع الارواح النجسة وامتزجوا معها ولا امتزاج الراح بالماء

قال الامير — وما لنا ولزعم الناس اما انت فدع هذه الخزعبلات جانباً واقنع بما قسم الله لك ونم متكلاً عليه

فصمت ميخيتش وقد غلب عليه النعاس فنام . اما الامير فبات ينتظر صباح الغد انتظار الظمآن للماء ولم يغمض له جفن وهو يتردد بين حوادث النهار الغابر وحوادث الليل حتى قرب الفجر فنام قليلاً

الفصل السادس

﴿ الدجّال (١) ﴾

في اواخر الليل بينما كان السكون ضارباً اطنابه على هاتيك الجهات كان رجلٌ حسن البزّة راكباً جواداً مطهماً يسير جهة الطاحون سيراً احثيثاً ولما انتهى اليها ترجل عن جواده وبادر الى الباب فطرقه بعنفٍ ونادى الطحان بصوت جهوري قائلاً : هلمّ ايها الطحان بالعجل . ولم يكن الاّ القليل حتى سمع الطحان يقول بصوت ابحّ — رويدك ايها الامير فهاءنذا بين يديك انما اسأَلك ان تخفض صوتك لان عندي ضيوفاً وشغلنا كما تعلم يقتضي سكوتاً وهدوءاً

فاحتدم الرجل الذي دعاه الطحان اميراً وقال له : ومن أَذن لك ايها الدجّال ان تقبل هذه الليلة احداً ؟ أولست عالماً

---

(١) اذا رأى القرآء في هذا الفصل وفي غيره من فصول الرواية كثيراً من الاوهام والخزعبلات وما اشبهها من التقاليد التي كانت سائدة اذ ذاك في بلاد الروس ومتسلطة عَلَى عقول السواد الاعظم من القوم فلا يضربوا بها عرض الحائط ويحسبوها مقللة من شرف الرواية ومحطة من شانها . واذا حاولنا تجريد الرواية من هذه الترهات لان فيها شيئاً فاسداً كنا كمن يقلل جمال الحوادث التاريخية المتسلسلة فيها لان موءلفها انما اراد في ايرادها بيان ما كان عليه الروس في ذلك العصر من الجهل والغباوة . وسائر تلك الروءى والاوهام كانت محترمة عندهم وشائعة في بلادهم ليس فقط بين السوقة بل و بين الملوك والامراء والاعيان كما يتضح ذلك من سياق الرواية

بقدومي؟ فهيا اطردهم والاَّ . . .

فقاطعه الطحان نادماً علَى تصريحه بوجود الضيوف وقال — ألتمس منك ايها الامير الاَّ ترفع صوتك هكذا لانك بذلك انما تفسد ما سنجريه من العمل الذي جئتَ لاجله . اما الضيوف فلا يحولون دون مقاصدنا لانهم غارقون في سبات النوم فهيَّا بنا

فلم يهتم الامير بمعرفة الضيوف اذ كان له من افكاره شغل شاغل بل قال له — انظر يا هذا اني موطن النفس على ان اسمع منك ما يسرّني ويكون لدائي بلسماً شافياً وان علقت تماطلني وتتلاعب بي فما جزاوءك الاَّ اشد العقاب واهول المنايا فاختر لنفسك ما يحلو

فقال الطحان — مهلاً يا مولاي فاني سأُطلعك علَى ما ينجلي لي حرفاً حرفاً دون التصدّي للنتائج والخفايا لانها بيد الله . اما اذا كنت معوّلاً مذ الان علي معاقبتي فالافضل ان لا اجري شيئاً . فتبسم الامير وقال — لا تخشَ فاني انما قصدت مداعبتك

وفي اثناء ذلك كان الطحان قد خرج الى الامير فاخذ جواده وربطه الى شجرة قريبة وعاد اليه . اما الامير فكان شاباً طويل القامة عليه ملامح الغنى وامارات العظمة والسوءدد وعلو الشان .

ولما عاد الطحان قال له — هل استظهرت ايها الامير الكلمات التي انبأتك بها؟

اجاب : اجل اني استظهرتها وعلَّقت في عنقي حسب اشارتك قلب سنونو

قال الطحان : وهل اجداك ذلك نفعاً ؟

اجاب الامير بحزن وتنهد : كلاَّ فلقد شاهدتها اليوم في الحديقة وحالما وقع بصرها علي نفرت كالظبي المذعور وولجت مخدعها

قال الطحان : لا تسخط علي يامولاي بل اسمح لي ان ابدي كلمةً اخرى

اجاب : قل ما بدالك

قل : غير اني اخشى غضبك وبأسك

فرفس الامير الارض برجله وصاح به : قل بلا تردّد ايها الاحمق

فقال الطحان : اواثق انت بانها لا تحب احداً ؟

اجاب الامير : ومن ترى ذاك الحبيب الذي تهواه ؟ ازرجها الشيخ ؟ ان هذا من المحال

قال — أَفلا يخطر ببالك انها تحبُّ سواه ؟

فما سمع الامير هذا الكلام حتى انتفض كما انتفض العصفور بلله القطر وصاح بالطحان : كفّ من الهذيان ايها الشيخ الاحمق . الا تعلم اني لو عرفت لها حبيباً لكنت مزقته اربا اربا . فهذا لا يكون ولا اقدر ان اتصوره في الاحلام . . . وما لبث ان سكن جأشه

فخفض صوته وقال : ارحمني ايها الطحان واشفق على شبابي فقد بلغ اليأس مني وأنحل الغم بدني واحرق الوجد فؤادي وان لم يأتني فرج قريب فلا البث ان اقول: عَلَى الدنيا السلام ٠٠٠ ولولا حب هذه الغانية لكنت كسابق عادتي امرح في حلل الافراح راتعاً في عيش رحراح لا يزعج خاطري شيء٠ اما الان فقد امسيت على شفا الوبال ٠ وطالما حاولت ان اصرف افكاري عن هـذا الحب الذي ملأ خاطري وطفح به قلبي فلم استطع ٠ فقلتُ في نفسي لعل الانشغال بالصيد والقنص ينسيني ذكر من سلبت لبي وملكت قلبي ٠ فصرتُ اخرج كل يوم هائماً على وجهي ولا اعود الا ليلاً فلم يجدني ذلك راحةً ولا تعزية ٠ثم زعمت ان معاقرة الخمرة ومنادمة الاخوان تفرجان كربتي وتخمدان ما تأجج في احشائي من سعير الهوى فلم افلح ٠ اخيراً انخرطت في سلك رجال الحرس فقربت من الملك وصرت اتناول الطعام عَلَى مائدته عائثاً في اوقات الفراغ — وكانت كثيرة جداً — في بلاد الله هاتكاً ستار ما حرَّمته الشريعة ومع هذا فلم اصب شيئاً من النجاح ولم استمل فؤاد من احببت ٠ وقد صرتُ عظيماً جداً في عيون القوم واصبحت مهيباً يخشى كل امرىء سطوتي وبأسي حتى صار اسم اثناسي فياز يسكي مخوفاً هائلاً بيد اني مع هذه الصولة وهذا الجلال اللذين فزتُ بهما لم اقدر ان احظى بمنيتي

واستولي عليها . فظللت لاهياً باعمالي الجهنمية لا يردعني عن اجراء المآثم رادع وهيهات ان يلهيني عن هيلانة شيء فقد تيمتني بحبها واذهبت عقلي بجمالها فما الحيلة في الحصول على قلبها . وقد طالما اجهدت نفسي في استغوائها بشيء فلم اظفر بما يروي الغلة او يشفي العلة . ولعلك يا صاح تستطيع بدهائك ومهارتك ان تنيلني البلسم الشافي فهات ما دبّرت

فاطرق الطحان الى الارض وقد هاله منظر الامير اثناسي وخشي ان هو لفظ كلمة في غير محلها يتعرض لسخطه وفتكه به لا محالة . فاخذ يقلب وجوه الوسائل التي تمكنه من تعليق خاطر الامير بشيء . اما الامير فلم يمهله بل انتهره قائلاً ويحك ايها الشيخ الساحر اواتيت بي الى هنا لتعذبني ؟ أو لم تعدني انك تبحث عن الاعشاب والازهار التي تبلغني مرامي فأيّها اصبت ؟

اجاب الطحان مرتعداً : ان الاعشاب والازهار ذات التأثير في الانسان كثيرة . فمنها ما اذا حمله المرء في عنقه أَمِنَ شر الحيوانات ومنها ما يجعله محبوباً من الملك فلن يقع عليه عقابه ابد الدهر . ومنها ما اذا تناوله اضحى مهيباً هائلاً يخشاه كل من ينظر اليه . . ومنها . . . .

فقاطعه الامير قائلاً — انهم يخشون بأسي وسطوتي بدون ان استعمل ازهارك واعشابك وكذلك يحبني الملك جداً . . .

فاذكر لي سواها

فاستأنف الطحان كلامه بقوله — ومنها ما يسمى راس آدم وهذا الصنف يجعل الانسان محبوباً وموقراً من الجميع فتنهال عليه الهدايا من كل المعارف والخلان . ومنها ما اذا مضغته بفمك اصبحت بمعزلٍ عن الادباب فلا تعود تقربك او تضرّ بك . ومنها . . .

فتبرَّم الامير من هذا التعداد المملّ واضجره خروج الشيخ عن حدود الموضوع وتوغله في فلسفة اعشابه فقال بضجر : اودّ ان تطلعني على ما جئت لاجله من الاعشاب

اجاب الطحان باهتمام — سمعاً وطاعة يا مولاي تمهل علي فانبئك بكل ما لدي . فمن تلك الاعشاب ايضاً ما اذا مسسته لا تفتقر الى المال مدى حياتك . ومنها ما يجعل المرء ماهراً في الفروسية يشار اليه بالبنان في اساليب الطعان . . .

فاحتدم الامير وقال : او ليس عندك من تلك الاعشاب ما يجعل الفتاة تحب متيمها وتهواه وترقّ لفؤاده المنكسر ؟

فاطرق الطحان هنيهة ثم اجاب — كلا يامولاي فلم اكتشف للآن شيئاً من هذا الصنف

فقال الامير متنهداً — او لم تكتشف منها ما يخفف آلام الحب المبرّحة ويدرأ ويلات الجوى ؟

اجاب — وهذه ايضاً لا اعرفها انما اعرف ايضاً من تلك الأعشاب ما اذا مسست به الاقفال انفتحت امامك وتحطمت . واعرف ايضاً ...

فقاطعه الامير بصوت اجش — صه انى لفي غنى عن هذه السفاسف التي تسردها عليَّ ايها الشيخ الاحمق الدجَّال وقد ذهبت آمالي ادراج الرياح فبئس ما نطقت به .. قال هذا وهجم عليه ووضع يديه في عنقه وهزَّه بغلظة قائلاً — آمرك ان تحضرها لي حالاً حالاً والآن ...

فارتعد الطحان وهلع قلبه وايقن بدنوّ اجله لا محالة وقد كاد يختنق لولا ان الامير تركه بغتة وخرّ عند قدميه منتحباً وهو يقول ارحمني ايها الطحان ونجني من هذا العذاب ... اني اشعر بنار آكلة تتقد في احشائي ... ويلك ايها القلب الشقي لماذا تطمح الى الحب وقد قضي عليك ان تحيا شقياً وتموت منسياً ... أفي امكانك ايها الطحان ان تبرّد لوعتي وتكفكف دمعتي ؟ ...

فازداد الطحان خوفاً واضطراباً وقد ادركته الشفقة على الامير فعطف عليه وقال له — ماذا حلّ بك يا مولاي ؟ تشجع ولا تقنط .. افلا تستغرب حالتك امام الطحان داود المسكين؟ فعد الى رشدك واشفق علىَ نفسك

اجاب الامير برعدة — أنّى لي ان اعود الى رشدي وقد شرد

مني العقل فبالله الا ما علاتني بالمعونة والشفاء وتسرية هذا الشقاء

أَلا موتٌ يُباع فأشتريه فهذا العيش ما لا خير فيه

قال هذا وانتصب قائماً عن الارض بنظر هائل وافكار مشرّدة وعينين يقتدح منهما الشرر. اما الطحان فوقف كالمأخوذ ولم يدرِ بماذا يسلي الامير ويفرّج كربته وقد هاله الامر وخاف سوء العاقبة فقال له — هلمَّ بنا الان يا مولاي فلعله ينكشف لنا شيء من غوامض الغيب. ثم اقتاده الى الماء وقال — انظر انت يا سيدي في الماء وانا اسرد اقوالي. ثم انبطح الطحان عَلَى الارض وصار يتمتم كلاماً مجهولاً ويبدي اشارات شتى. اما الامير فحدّق بالماء عند دولاب الطاحون. وبعد بضع دقائق قال الطحان: ماذا ترى ايها الامير؟

قال — كأَن لؤلؤاً يتناثر او لجيناً يسطع

قال — ستكون ايها الامير اغنى رجال روسيا بلا استثناء

فهزّ الامير راسه ولكنه لم يرفع نظره عن الماء فسأله الطحان والان ماذا ترى؟

قال — ارى كأَنّ سيوفاً تحتكّ ببعضها وبينها ذوائب ذهبية

قال — سيرافقك الظفر في الحروب وستكون لك سعادة دائمة في خدمة الملك

قال — والان أرى الماء قد تعكر.. وها هو آخذ في الاحمرار

وقد صار كالدم · فما معنى ذلك ؟

فجمد الطحان ولم ينبس بكلمة · فاعاد الامير سوءاله · فاجابه الطحان : حسبك ايها الامير لان طول التحديق في الماء يؤذيك · فلم يرعوِ الامير بل ظلَّ ثابتاً في مكانه لا يتزحزح ولا يحول نظره عن الماء · وبعد قليل قال : والان اري خيوطاً ارجوانية كانها اوردة دموية ·· وكأن هناك كلاَّبات تفتح وتطبق ··

فدنا الطحان منه وامسك بيده قائلاً : يكفي ايها الامير فقد تجاوزت الحد

فدفعه الامير وواصل النظر ولم يلبث ان قال — وكأني اري الان منشاراً مسننة وهي تروح وتجيء وكأن تحتها دماً يتفجر ·

قال — ارجوك يا سيدي ان تكف النظر لئلا تصير الى عاقبة وخيمة

قال — تمهل عليَّ ايها الشيخ فاني اشعر بألم في اعصابي ورجفة في اطرافي

وبعد قليل وقف الامير وهو يرتجف ويئن انيناً محرقاً كأنه فهم ما تترصده به الايام من المحن والنوائب · وبعد سكوت طويل قال للطحان : الا يمكنك ان تعرف اذا كانت تحب سواي ؟

قال — وهل لديك شيء مما يخصها ؟

قال — نعم فقد وجدتُ عند باب منزلها هذه الشريطة الزرقاء

قال ـ هاتها وفي المرة القادمة انبئك بما يفتح الله به عليَّ ٠ فرماها له الامير ثم اخرج من جيبه قبضة من الدنانير ونفحه بها قائلاً : رأيك الموفق الى الصواب ايها الطحان في جمع شملي بهيلانة وعليك التدبير فانما الدنيا دون هيلانة سجن مظلم في عينيَّ والحياة عذاب واصب ٠ فآه من الحب ما احلاه وما امرَّه ٠٠٠

لا يعرف الشوق الاَّ من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

واعلم اني قد وقفت نفسي على هواها وآليت ان ابذل روحي فداها ٠ فويل لمن يناظرني فيها او يزاحمني عليها ٠ فوحق عينيها لاعلونَّ رأسه بصمصام يهوي به الى جهنم النار ولو فرَّ الى السبع الطباق الشداد ٠٠٠

فلما ان اجاشت التخيلات سورة الغضب في صدره هبَّ الى جواده فامتطاه وهمزه كمن يطارد عدواً وراح ينهب الارض عائداً من حيث اتى

الفصل السابع

﴿ موسكو ﴾

ان مدينة موسكو العظيمة كانت منذ سبعة قرون ونيف

قرية صغيرة تُدعى كوتشكو نسبةً الى صاحبها وقتئذٍ الشريف اسطفان كوتشكو . فمرَّ بها ذات يوم احد امرآء الروس المدعو يوري دولغوروكي وكان شاخصاً من مدينة كياف الى مدينة فلاديمر لزيارة ابنه فلم يصادف من صاحبها احتفاءً به فكان ذلك داعية الى سخطه عليه ومعاقبته بالموت . ثم صعد جبلاً كائناً بقربةٍ من القرية واخذ يمتع بصره بمشاهدها وارباضها فراقته نضارتها وشاقه جمالها فامر بانشاء مدينة خشبية دعاها موسكفا باسم النهر الجاري فيها (وهي المدعوّة عندنا موسكو)

ومن ذلك الحين شرع الروسيون يشيدون فيها المباني شيئاً بعد شيءٍ وتوطنها كثيرون منهم على تمادي الايام وجعلت العمارة تتزايد فيها كلما تكاثر اهلها واتسعت ارزاقها شأن غيرها من الامصار ثم تداول سرير الملك فيها امراء الروس وملوكهم وكان من امرهم ما هو مدوّن في بطون التاريخ

واول ما ذكرت هذه المدينة في التاريخ كان سنة ١١٤٧ حينما زارها الامير يوري دولغوروكي المذكور انفاً واولم فيها وليمة فاخرة لاحد اصفيائه الامراء . ولما اجتاح التتر بلاد الروس دمَّروا مدينة موسكو وحرقوها معار باضها سنة ١٢٣٧ . بيدَ ان الامير ميخائيل شقيق الامير اسكندر نيفسكي جدَّد بناءها واختطها داراً لنفسه وصار اول امير فيها . ثم عقبه الامير دانيال ابن

الامير اسكندر نيفسكي وعَلَى عهده تقدّمت تقدماً حسناً بالعمران والنفوذ السياسي · وبعد وفاته سنة ١٣٠٣ خلفه فيها ابنه الاكبر يوري ثم شقيقه يوحنا الملقب « كاليتا » وفي ايامه ازدادت رونقاً وجلالاً واصبحت من امهات المدن الروسية وما لبثت ان اضحت حاضرة البلاد وعاصمتها · ولما تولى زمام الاحكام في موسكو الامير ديمتري دونسكوي (١٣٦٣ — ١٣٨٩) عظم شانها واتسع نطاقها وقد ازدادت في عهده القوة الروسية نفوذاً و بعكس ذلك هبطت القوة التترية التي كانت متغلبة على بلاد الروس منذ زمان مديد · ولما انقضى عهد الامير قام باعباء الشؤون ابنه باسيل الاول وخلف هذا بعد وفاته ابنه باسيل الثاني · ثم تولى زمام الدولة يوحنا الثالث ابن باسيل الثاني واستقرّ على سرير الملك من سنة ١٤٦٢ الى سنة ١٥٠٥ وهو الذي انقذ البلاد من التتر وخلع نيرهم · وفي زمانه كثرت في موسكو اسباب القوة والمنعة وتعدّدت فيها الابنية العظيمة وصارت تتوارد اليها الثروة والجاه حتى دعيت « رومية الثالثة » واصبح امراؤها ملوكاً · ولما توفي يوحنا خلفه ابنه باسيل الثالث · وبعد وفاته افضت نوبة الملك الى ابنه يوحنا الرابع الهائل (١٥٣٣ — ١٥٨٤) وهو من ابطال روايتنا · وقد اشتهر هذا الملك بالفتوح الكبيرة والغزوات العديدة والابنية الحافلة وكل ابهة وجلال وهو من اجلّ

من سبقه من الامراء والملوك قدراً واعلاهم همةً واسعدهم طالعاً الاَّ انه غلبت عليه الخيلاء والزهو فاذاق الكثيرين من كبراء دولته البلاء والشقاء وقتل جمهوراً غفيراً من رعاياه لغير جريرة وعلى عهد هذا الملك اصبحت موسكو عاصمة جميع البلاد الروسية مع ما انضم اليها من البلدان الجديدة مثل مملكة كازان ومملكة استراخان وغيرهما . وهكذا فبعد ان كانت موسكو في ابان امرها قريةً دنيئة لم تلبث ان اصبحت اعظم مدائن البلاد الروسية وابعدها ذكراً وارفعها علماً واوسعها ظلاً واكثرها ثروة وعمراناً وامنعها عزةً وسلطاناً . ومن اشهر ما في هذه المدينة من الانشاءات كنائسها العظيمة العديدة واديرتها الشائقة الرفيعة وقصورها الفخيمة الانيقة واجراسها الجسيمة وبروجها الحصينة ما لا يتأتى لاحد وصفه

الفصل الثامن

﴿ الشريف موروزوف وزوجته ﴾

من سرّح طرفه في تلك المباني الشاهقة التي كانت في ذلك العهد قائمة في موسكو عَلَى ضفتي نهرها يرى قصراً جميلاً مزيناً باحسن الرياش وافخر الاثاث تحيط به حديقة غناء ينفح الزهر في جوانبها مسكاً وعبيراً وتصدح الطير على افنانها طرباً وسروراً .

اما صاحب هذا القصر فكان من كبرآء موسكو واعاظم اشرافها يقال له الشريف موزوزوف وهو شيخ اشتهر بين مواطنيه بالغنى الوافر وعمل الخير والاحسان ومساعدة البائسين واغاثة الملهوف حتى لم يكن هناك من لم يحترمه و يدعُ له بطول البقاء والخير. وكان ايضاً متحلياً بجميع الصفات الحسنة والاخلاق الرضية ذا مروءة وشهامة وحماسة متمسكاً بعرى الاحتشام حريصاً علَى دواعي الشرف فضلاً عما زين به اسمه من الشهرة الطائرة والصيت الاثيل بخدماته الوطنية الجزيلة. وهذا الشيخ كان قد اقترن من مدة قصيرة باجمل عذارى موسكو وافضلهنَّ كمالاً وأجزلهنَّ لطفاً ودعةً. وقد دهش جميع الاهلين حينما زفت اليه هذه الحسناء المدعوّة هيلانة وهي ابنة احد مشاهير القواد وكان قد مات ابوها شهيد الوطن والامة في اثناء الحرب التي نشبت بين الروس والتتر يوم استظهر الاولون واخذوا من اعدائهم مدينة كازان عنوةً

ولم يكن لهذه الفتاة حين وفاة ابيها الا عشرون عاماً وكان كثيرون من الامراء والاشراف وزعماء رجال الحرس الملوكي قد هاموا بها وكلٌّ منهم يتمنى ان يحظى ولو بنظرة الى جمالها الفتَّان اما هي فلم تمل الى احدٍ منهم بل سلَّمت نفسها لرجل شيخ يفوق اباها سناً. فهذا قد ادهش الجميع. اجل ان فتاة بسن

العشرين جادت الطبيعة عليها باجمل الصور وارقّ الطباع تقترن برجل شيخ امر مدهش وغريب · نعم ان موروزوف كان من اعرق ، الاسر الروسية حسباً ونسباً ذا عقل راجح وحكمة رائعة وصحة متينة وثروة واسعة واملاك فسيحة وريع عظيم بيد انه شيخ لا يقلّ عمره عن الستين · واين هذا من الامير اثناسي فيازيمسكي حبيب الملك الذي كان قد هام بها شديداً وعلق يبعث اليها بالهدايا النفيسة والطرف النادرة ملتمساً ان تهبه قلبها وتكون له نعم الشريكة في الحياة الرغيدة التي كان قد جهز اسبابها من قبل اما هيلانة فكانت تنفر منه وتأباه وتعيد اليه هداياه ولا تنظر الى جماله وغناه كان قلبها قد أُوصد او سُلبت منها حرية الاختيار · فلما رأى الامير اثناسي منها ذلك الصدود والجفاء انطلق الى الملك يوحنا (الرابع) وكشف له حقيقة حاله واستغاث به بعبرات سخينة ان يشفق على شبابه ويكون له نصيراً · فطمان الملك خاطره ووعده ان يخطب له محبوبته سريعاً

اما هيلانة فلما بلغها هذا الخبر قلقت ووقعت في ضنك شديد وسقطت في وهدة اليأس وكادت تذوب ألماً وكمداً وقد عولت على عدم التسليم · وفي اليوم الثاني من بلوغ هذا النبأ اليها غادرت منزلها وسارت على غير هدى وهي لشدة بلواها تحدثت نفسها بالانتحار لتنجو من الشقاء الذي ألمّ بها فتهب

راحتها وافقدها هناءها . فشاهدت معبد الله مفتوحاً فقالت في نفسها: مالي الأ ان اشكو امري الى خالقي وهو لا يهملني . ثم ولجت الكنيسة فلم ترَ فيها الا بضعة اشخاص فأعرضت عنهم وانفردت وحدها في احدى زوايا المعبد تصلي . وكان من جملة الواقفين اذ ذاك في الكنيسة الشريف موروزوف الآنف الذكر وله معرفة تامة بالفتاة وقومها . فما تأملها وهي داخلة علَى الحالة التي وصفناها حتى تنفس طويلاً وقال في نفسه مسكينة هذه العذراء فانها عقيب ان فقدت والدها البطل اخذت في النحول والضعف وكادت تذهب بحسنها وجمالها . اجل ان الدهر قد حرمها والدها وجميع اسباب السعادة التي كانت راتعة بها في كنفه فاضحت يتيمة لا معين لها ولا مجير . بيدَ ان صلات الصداقة وعهود الاخاء التي ارتبطت بها مع والدها تدعوني الى ان اكون ابرّ بها من جميع الذين يهمهم امرها فينبغي لي ان اخرجها من حالة الكآبة واسهل لها اسباب الرخاء . قال هذا ودنا من هيلانة — وكان المصلون قد فرغوا من الصلاة و بادروا الى الخروج من الكنيسة — وقال لها بحنو والدي — مالي اراكِ صفراء اللون ناحلة الجسم يا بنية ابكِ ألم ؟

فرفعت هيلانة نظرها فابصرت الشريف موروزوف صديق والدها الحميم الذي كانت تعتبره بمقام ابيها وتزوره مع والدتها

ويزورهما هو الى منزلهما وكانت تفضي اليه بامورها وترجع اليه بجميع شوءونها الاَّ امرٌ واحد لم تطلعه عليه بل كتمته في نفسها تنغيصاً لها وسبباً لهلاكه ٠٠٠ لما رأت هيلانة الشريف موروزوف بازائها آب اليها رشدها واطمأَن بالها لانها وجدت من تلوذ به وتكون في حمايته غير هيابة ولا وجلة٠ فاجابته وقداخفت ما يخالج صدرها — اني حزينة النفس جداً ولذا تراني في هذين اليومين غائصة بين تيارات الافكار والمخاوف اقضي اوقاتي بالنوح والبكاء

فسألها الشريف — وما سبب هذا الحزن الشديد؟

فاجابت وهي مطرقة — هو خوفي مما ينتظرني من الآلام والبلايا لاني عالمة بان رسل الملك سيفدون عليَّ عن قريب و يلجئوني الى الاقتران بالامير اثناسي وانا لن ارضى به قريناً٠ فاشتد عليَّ ذلك وآلمني حتى كدت افقد رشدي واقطع حبل حياتي بيدي

فقال الشريف بلهجة ابوية — رويدكِ ايتها الآنسة اللطيفة اما انا فاعتقد ان الامير اثناسي مع ما هو متصف به من سمو المكانة بين اعيان البلاد اهلٌ لان يكون لكِ رفيقاً نعمَّا ولا سيما لانك لم تهوي احداً للان وقلب الفتاة اليافعة مثلكِ يكون كما لا يخفى اشبه بالشهد فبعد ان يصبر قليلاً يميل ويحب اخيراً حباً متيناً ٠ نعم انك لا تميلين الآن الى اثناسي بل تحسبين الاقتران به

امرًا هائلاً على انك ربما بعد ردح قصير جدًا من الزمن تحاّينه فوءادكِ ولا تطيقين العيش بدونه

فقاطعته هيلانة وقد اجفلت — كلاّ كلاّ لن يكون هذا واني اوثر الموت عَلَى ان اقترن بهذا الانسان الذي مجرّد ذكره يحرمني الراحة و يوليني الجزع والانقباض . فاتوسل اليك بحق ما لوالدي عليك من صلة المودّة ان تشفق عليّ وتعتني بي وتدبر لي طريقة انجو بها من الاشراك التي نصبت لي في هذا السبيل الممقوت

فاطرق موروزوف هنيهة ثم رفع راسه وحدّق بالفتاة مليًا واجابها وهو غير عالم بما خبأته له يد الاقدار — لديّ طريقة واحدة احميك بها فتاملّيني يا هيلانة . فانا رجل شيخ واحبك حبًا يفوق حب الاباء لابنائهم واني مستعد ان اقترن بك اذا لم يكن ثمّ من جهتك ممانعة فهل انت راضية ؟

فمسحت هيلانة دمعة انحدرت عَلَى وجنتها واندفع من صدرها تنهد عميق وقالت — اجل اني راضية تمام الرضى . ثم اكبت على قدميه محبورة

فلم يملك موروزوف عبرته عند هذا المشهد فمسح دموعه ثم رفع الفتاة عن الحضيض وقبلها في جبينها ولم يعلم المسكين ان ما اظهرته هيلانة كان فرح امرءٍ اشرف على الغرق فابصر اوهن

النباتات فتمسك بها لينجو · ولما سكن جاش هيلانة خاطبها الشيخ قائلاً — فان كنت راضية كما تقولين اقسمي لي هنا بحضرة الله انك لا تخونين عهدي ولا تدنسين شيبتي

فاجابت هيلانة بصوت خافت مرتجف — اني موافقة واقسم لك بما تشاء

وللحال استدعى موروزوف والدة الفتاة وخطب اليها ابنتها ثم طلب من الكاهن ان يتمم طقس الخطبة ففعل · وعادت هيلانة الى منزلها وهي تشعر كأن حملاً ثقيلاً قد ازيل عنها · ولما جاءها رُسل الملك يسألونها الرضى بالامير اثناسي رفضت طلبهم واعلنت لهم خطبتها للشريف موروزوف

ولم يكن الاّ بضعة ايام حتى ثابت الى هيلانة عافيتها وزال عنها ما اثّر فيها من عناء الشقاء فزُفّت الى موروزوف باحتفال شائق واقامت تعيش في كنفه على تمام السعادة والغبطة

الفصل التاسع

غضب الملك

لما بلغ الملك خبر اقتران موروزوف بهيلانة غضب غضباً شديداً وعوّل على الانتقام من الشريف فاستدعاه اليه وعامله بكل خشونة واجلسه على مائدته بعد الامير اثناسي فيازيمسكي و بوريس

غودونوف مع انه اشرف منهما حسباً ونسباً ولا سيما بوريس الذي لم يكن الى ذلك العهد قد نال وظيفة سامية او لقباً شريفاً . فلم يحتمل موروزوف هذا الازدراء وشعر كأنَّ سهماً اخترق فوءاده فوثب على قدميه وصاح بالملك — اني لا احتمل الامتهان ولا العار فلن اجلس بعد هذا الرجل (مشيراً الى غودونوف) ولا بعد فيازيمسكي

فلما سمع الملك يوحنا هذا الكلام ثارت في راسه سورة الغيظ وامر موروزوف ان يغرب عن وجهه و يرخي شعره الابيض فلا يقصه ولا يرى وجه الملك الاَّ وقد نال عفوه ورضاه . فعاد الشريف الى قصره منزعج الخاطر حزين النفس . بيدَ انه كان راضياً عن عمله لانه لم يعرض نفسه للامتهان فلم يجلس بعد من هم دونه رتبة ومقاماً . وكان لموروزوف كثير من الخدم والاتباع الذين لم يكن يهمهم في الدنيا الاَّ رضى مولاهم وارتياحه اليهم فكانوا يتسابقون الى تتميم اوامره وقضاء اشاراته اما هو فكان يعاملهم بالرأفة والحنان فيلبي ملتمساتهم ويهبهم الصلات الوافرة و يوءاسيهم . ولا غروَ لمن كانت معاملته لخدمه علَى هذه الصورة ان يُفدَّى بالروح و يستسهل في جانب خدمته ومحبته كل صعب اما حب موروزوف لقرينتهِ هيلانة فكان يزداد علَى الايام فلم يشوّه صفاءه كدر ولم يطرأ عليه تغيير ولا فتور ولم يكن يسمع

مورو زوف منها طلباً او ملتمساً الا" وينيلها مبتغاها بالعجل بثغر باسم وعواطف موقوفة على خدمتها وتلبية سؤلها . اما هي فكانت تعد" نفسها سعيدة في حماه وكانت تحبه محبة فائقة وتعتبره شديدا وتصلي لمبدع الكائنات ان يصون قرينها بحلل العافية ويقصي عنه كوارث الدهر . غير انه كان يتمثل لمخيلتها احياناً في اثناء الصلاة والخلوة شاب لطيف الهيئة بهيّ الطلعة حسن السربال ابيّ النفس عالي الهمة ممتطٍ جواداً كريماً يخترق به صفوف الاعداء ويدحرهم كالاغنام ... فهل ترتكب هيلانة اثماً اذا كان خيال ذلك الفارس لا يبرح نصب عينيها فتتذكره في كل ساعة من حياتها في اليقظة والمنام وتتمثله جالساً اليها يتشاكيان مرارة الفراق ويتذاكران ما فعلت بهما صروف الايام او يتمشيان في الحدائق الجميلة وهي مستندة على ذراعه .. وآونة تراه واقفاً امامها يرنو اليها بعين اللوم والتقريع كأنه يقول لها — أي هيلانة لقد كنت اظنك موضع آمالي وعنوان سعادتي على انك غدرت بالحب وخفرت ذمته فعكفت عَلَى حب غيري . فاين العهود التي عقدناها قلباً بقلب لا يداً بيد . اين المواثيق اشهدنا الله عليها وملائكته اين قولك لي انا وقلبي في يدك . اين تلك الكلمات التي وقعت في قلبي المعنّى موقع البرء من ايوب فشدّدت عزمي وقوّتني عَلَى مقارعة الاهوال ومساورة الهموم واقتحام غمرات المنون في ساحات

الصدام ؟ . . اكذا يكون رباط حبك اوهن من خيط العنكبوت؟ اكذا تطوي النوى بيني وبينك ؟ اكذا تكفرين بدين الهوى وانا الذي عقد عليك مجامع قلبه فكنت معقد اوطاره وكعبة آماله ؟ اكذا تغيرك النوى و يقلبك الهوى فصرمت حبلي ونقضت عهدي ؟ يا لخيبة الامال فيك . . ولكن ليس ما كان منك بالامر الغريب فانت ابنة حواء . . .

الفصل العاشر

﴿ الناسك ﴾

في عام الف ومئة وخمسة وستين في اليوم الرابع والعشرين من شهر حزيران قرعت اجراس مدينة موسكو قرعاً متواصلاً لان ذلك النهار كان عيداً حافلاً عند الاهلين فاكتظت الكنائس والمعابد بالخلق على اختلاف الدرجات والرتب وهم بعد تأدية الفروض الدينية قد خرجوا وتفرقوا كلٌّ لشأنه وسمات البشر والرخاء بادية على الجميع . ولما كان منتصف النهار كنست الازقة والشوارع ولم يبقَ فيها احد بل أوى الجميع الى منازلهم طلباً للراحة والقيلولة غير انه على جانب الطريق الغربية المؤدية الى العاصمة كنت ترى نزلاً اجتمع فيه بعض القوم للمقامرة ومعاقرة بنت الحان وكانت اصواتهم المختلفة تخرج من ذلك النزل وتتردد في الارجاء المناوحة

عابثةً بالسكينة الضاربة قبابها على المدينة . ولم يمض الا القليل حتى لعبت الخمرة في روءوس اولئك الناس فعلا ضجيجهم اكثر من ذي قبل فضلاً عن السباب والشتائم التي كانت تتصاعد من وسطهم .
ان هوءلاء القوم اقبلوا الى هذا النزل وهم على اهبة السفر او بقصد التنزُّه في ارباض المدينة لان خيولهم كانت واقفة تنتظرهم عند ابواب النزل وقد نيط بسرج كل منها مكنسة وراس كلب

وكنت ترى اذ ذاك في الطريق الرحبة فارسين قادمين الى المدينة احدهما مرتدٍ ثوباً ارجوانياً ثميناً تتلألأ في صدره علامات الشرف والافتخار وقد وجه خطابه الى خادمه عندما قرب من ذلك النزل بقوله — اناظر يا ميخيتش هوءلاء السكارى؟

— نعم يا مولاي لا درَّ درُّهم

— تفرّس في خيولهم فاني ارى انهم من اولئك القوم اللصوص الذين ظفرنا بهم في قرية ميدفيدفكا

— اجل فاني ارى يا مولاي تلك العلامة الدنسة التي وسموا بها ولقد تولاني الخوف لانهم بالحقيقة كما يظهر رجال الملك والاَّ لما تجرَّأوا على الدنو من العاصمة

— ادنُ منهم واسألهم عن منزل الشريف موروزوف

— سمعاً وطاعة يا مولاي . قال هذا وهمز جواده فطار به الى

جهة النزل فاوقفه ميخيتش وسأل الجماعة : هل لكم ايها القوم ان تدلونا عَلَى منزل الشريف موروزوف ؟

وما كاد ينطق بهذا حتى تطالّ اليه المجتمعون وسأله بعضهم وماذا تريد من هذا النذل ؟

فاضطرب ميخيتش من هذا الكلام وقال : ان مولاي الامير نيكيتا سيريرياني يريد ان يراه ويسلمه رسالة من قائد الجيش الاكبر الامير برونسكي

— سلمنا الرسالة

فلم يملك ميخيتش نفسه عند ذلك بل صاح بهم ويلكم او الى هذا الحد بلغت منكم الجسارة فكيف اسلمكم رسالة الامير ؟

— قلنا لك سلمنا الرسالة لنرى فحواها لان هذا الشيخ الاحمق موروزوف يتآمر عَلَى الملك ولعله كما يتراءى لنا يريد ان يثير ضده بعض الاعوان ويحمل عَلَى الهياج والثورة

— لا تنطقوا هكذا ايها السكارى لانه من المستحيل ان يرتبط مولاي الامير نيكيتا مع اعداء الملك فكفوا الهذيان ودلوني ان شئتم عَلَى بيت من احببت

وما كاد يفرغ من كلامه حتي انقض عليه الجماعة صائحين به : ألا تسلمنا الرسالة باختيارك ايها الاحمق فنحن ناخذها رغماً عنك . بيدَ انهم ما كادوا يبادرون الى امساكه حتى انتهرهم الامير

نيكيتا — وكان قد قرب منهم وصاح — ارتدّوا عنه ايها الاوغاد واعلموا ان من يلمسه باصبعه طيّرتُ راسه وشكوت الباقين لحضرة الملك

فذعر رجال الحرس لتلك المباغتة غير انهم ما عتموا ان اقتربوا من الامير وهم يزمجرون ويشتمون وكادوا يطبقون عليه لو لم يسمعوا آنئذٍ صوت رجل ينشد نشيداً دينياً جعلهم يوجهون نظرهم وسمعهم اليه . فالتفت الامير ايضاً واذا به يرى رجلاً كهلاً بسن الاربعين مرتدياً ثياباً خشنة زهدية وحاملاً في صدره بعض الصور الحديدية وفي يده السبحات الخشبية اما وجهه النحيل فكان يتهلل بشراً وعيناه الكليلتان تكنّان صلاحاً وخيراً . وما دنا هذا الرجل من الجماعة وشاهد الامير نيكيتا حتى وثب اليه وقد فاضت دموع الجذل من عينيه وقال له أهذا انت يا نيكيتا ? لله ما اكبر حظي ونعيمي بك . ولكن مالي اراك بينهم ?.. ثم اندفع يرنم : طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الكفرة وفي طريق الخطاة لم يقف ..

فلما شاهد رجال الحرس هذا الرجل تنحوا قليلاً عن الامير ووقفوا صامتين بهيبة واجلال كأن على روءوسهم الطير اما الناسك فلم يلتفت اليهم بل ظل يتفرّس في الامير ثم هز رأسه وقال — الى اين انت مسافرٌ يا نيكيتا ?

وكان الامير قد ذهل عند مشاهدته هذا الرجل ولا سيما حينما دعاه باسمه ولم يكن هو يعرفه من قبل فسأله : من اين تعرفني يا رجل الله ؟

فبش له الناسك واجاب — كيف لا اعرفك وانت اخي فحالما وقع عليك بصري عرفتك ولئن كنت عائداً الى الوطن بعد غياب طويل وقد خشيت عليك من هذه الذئاب المفترسة (واشار الى الحراس) فلماذا انت واقف بينهم ؟ ان الحق والصدق والعدل والمروءة قد فقدت الان ولم تبق هذه الفضائل الاّ في بعض الافراد · اما الباقون وهم السواد الاعظم فقد زاغوا وحادوا عن سبل الرشاد · انّا نرى الان الفضيلة موثوقة بسلاسل ضخمة بينا الرذيلة تمرح بين عباد الله فاغرة فاها لتبتلعهم غنيمة باردة · وقد وجدت والأسفاه انصاراً اشداء واولياء الامور متعامون عنها لا يهمهم امر تلك الضحايا البريئة التي تقدم بوفرة على مذبحها الدنس كأن انوار الشواعر الشريفة والعواطف الانسانية الحقة قد انطفأت في نفوسهم فاصبح القوي يسطو عَلَى الضعيف وينكل به تنكيلاً · فويل للقوم الاشرار العائثين في بلاد الله

وما قال هذا حتى دنا منه واحد من رجال الحرس وقال له : ماذا تطلب ايها الناسك باسيل نقدم لك حاجتك من المال اوغيره

فاجاب الناسك — اني لا اطلب منك شيئاً ولا اريد شيئاً

انما ارغب اليك في ان تجيب الامير الى ما سأل

فقال الامير — يا رجل الله اني سألتهم ان يدلوني عَلَى منزل الشريف موروزوف

فحدّق به الناسك وقال — اذن انت تروم مواجهة الشريف موروزوف ؟ فهذا ايضاً من الابرار الصادقين المخلصين للدولة والوطن بَيدَ انه قام يحارب الشر بالقساوة والجهاد الحسن ولكنه لا يستطيع المقاومة طويلاً فسيحل به قريباً من الويل ما حلّ بسواه من اهل الحقيقة وذوي المروءة والوفاء

فسأله نيكيتا متعجباً — واين منزله ؟

اجاب الناسك لا اودُّ ان ادلّك عَلَى منزله . لا اشاء ان ارسلك الى محلّ يكون لك من تبعته الشقاء المستمر . فليدلك غيري . قال هذا وانطلق في سبيله لا يلوي عَلَى شيء وقد اوعز الى رجال الحرس ان لا يمسوه باذىً فوقف الامير مندهلاً اشد الذهول من امر هذا الرجل ولم يدرِ كيف يؤوّل كلامه . عَلَى انه التفت الى رجال الحرَس وسألهم — هلاّ ترشدونا الى مطلبنا ؟

اجاب بعضهم بغلاظة — سر في هذا الطريق حتى تبلغ النهر ومن هناك عرّج يسرةً تجد مأوى شريفك الاحمق

فارتدّ نيكيتا وخادمه عنهم وسارا يقصدان المكان المشار اليه . اما رجال الحرس فعادوا الى ما كانوا عليه من الضوضاء

والسكر والشتائم والاهانات التي كان بعضها موجهاً الى الامير حتى ان واحداً منهم ناداه بصوت جهوري قائلاً — اهدِ صديقك موروزوف السلام وقل له لقد ازف اوان شنقه لانه شبع من الايام· وعقبه آخر بقوله — وانت ايضاً جهز لنفسك حبلاً حسناً . . .

اما الامير فلم يعرهم اذناً صاغية بل ظلّ سائراً وافكاره مشتغلة بما قاله الناسك ولا سيما لانه ابى ارشاده الى منزل موروزوف كأن في ذلك التهلكة والبلاء

وقد لاقى الامير في طريقه الى النهر كثيراً من رجال الحرس الذين كانوا يسيرون هناك زرافات ووحداناً بعضهم يتمايلون من جانب الى جانب والآخرون يتوافدون الى الحانة وكلهم يمطر كلام الخشونة والفظاظة ولا يدعون احداً من المارّين الاّ اوسعوه شتماً وسباباً كأنَّ وظيفتهم انما وجدت لتجيز لهم مثل هذه الاعمال البربريَّة الشاذَّة

الفصل الحادى عشر

﴿ هيلانة ﴾

من يسر في الطريق المؤدية الى موسكو ويدخل المدينة على ضفة نهرها يشاهد حديقة محدقة بقصر شاهق البنيان حسن الاتقان وكلاهما للشريف موروزوف · اما الحديقة فكانت

مكتسية بالاشجار المتنوعة تتخللها عَلَى بساط الاديم الرياحين والازهار وعَلَى افانين الشجر ترفرف سواجع الطيور عَلَى اختلاف اجناسها وهي تغرّد تغريداً شجياً ينفي عن القلب الحزن حتى يخيل للرائي انها جنة من جنان عدن فيستطيب المكوث فيها ولا سيما ابان الظهيرة ترويحاً للنفس من وعكة الاشغال وطلباً لاستنشاق نفحات النسيم البليل تحت ظلال الاشجار والتماساً لتسرية الهموم وقشع غيوم الهواجس المتلبدة بامتاع البصر في محاسن الطبيعة ومناظر الرياض الشائقة

وكان الشريف موروزوف آنئذٍ راقداً في سريره وقت المقيل وقد خرجت زوجته هيلانة الى تلك الحديقة مع بعض الفتيات صويحباتها ووصيفاتها فجلست في وسطهنَّ تحت شجرة زيزفون واخذت تتجاذب معهن اطراف الحديث متنقلة من القديم الى الحديث واغصان الاشجار تميل الى تلك الغادة الفتانة كأنها تحاول التقاط درّ الفاظها او تشكو الى قدّها افتضاح قدودها ·
وكانت هيلانة مرتدية لباس عقائل الروس وعليها من الحلي والجواهر ما يبهر الناظر ويدهش الخاطر · وكان يطفح عَلَى محياها ماء الجمال ويتدفق من عينيها نور ومن خديها نار وهي تبسم عن لوءلوء منضد وثغر يخجل ثنايا الاقاح وتعطو بجيد يزري باعناق الظباء الغيد وترنو بعيون ولا كعيون المهى عيون هنَّ سيوف تريش سهاماً

فتصمي فؤاد الناظر اليها

ولم يمض على جلوسهن الا القليل حتى وقفت احدى الفتيات وقالت مخاطبة هيلانة : الا تقترح علينا مولاتنا العوبة نسلي بها خاطرها ؟ فلم تنتبه هيلانة الى مقالها لانها كانت اذ ذاك غائصة في لجة الافكار . فاعادت الفتاة خطابها فانتبهت واجابت —

آه ياحبيبتي اولغا ان نفسي لا تميل الى شيء من ذلك الآن

فقالت الفتاة — فماذا تريدين اذن ان نعمل لتسليتك ؟ فانه اذا عرف مولانا الشريف انك لم تكوني بيننا منشرحة الخاطر عنفنا الا مزيد عليه

فتنهدت هيلانة وقالت — انشديني اذاً تلك الاغنية التي أسمعتنيها بالامس فاني ارتاح الى سماعها

— عجباً يا مولاتي . فما بالك تتشوقين اليها وليس فيها الاّ ما يزعج الخاطر ويحزن النفس ؟

— لا اريد سواها يا اولغا فلا تتعبي نفسك بالمحال

— اني اخشي يا مولاتي ...

— وماذا تخشين ؟

— اخشى كدرك وتهييج اشجانك

— اني اطلبها فانشدينيها

فحنت اولغا راسها علامة الطاعة ثم اندفعت بما تعريبه :

ألا ما لنفسي والسرور واشجاني تزيد ودهري في هوى الهم القاني
ومالي وتغريد الصوادح والاسى بوادره تنهلّ من مدمعي القاني
وما لذّتي والوجد ملء حشاشتي بنشق اريج الزهر او ميل اغصان
ولي كبدٌ تصلى بنار النوى وما يرقُّ لها دهري فينسخ حرماني
قضى الله لي بالبعد عمن احبهُ وان كان لا ينفكّ من مهجتي داني
حبيبٌ افدّيه بروحي وان يكن رماني بسهمٍ من نواه فاصماني
اكتّم وجدي فيه والدمع فاضحي
وهيهات لا يجدي اصطباري وكتماني
ألا في سبيل الحب نفسٌ اضعتها ولم ارَ الاَّ داعي البين يلقاني
معذّبةٌ في الحب ذاب فؤادها فلله ما اشقى فؤادي واشقاني
اروح بدمع العين غرقى وان يكن بقلبي من فرط الجوى وقد نيرانِ

وما كادت الفتاة تفرغ من انشادها حتى تساتلت الدموع من مقلتي هيلانة فسقت وردًا وغطت وجهها بيديها وقد احتبس لسانها عن الكلام . اما اولغا المنشدة فتنحت عن البنات واستخرطت في البكاء وهي تعنف نفسها وقد قامت اليها رفيقاتها يلمنها على هذا النشيد الذي احزن سيدتهنّ . فانتهرتهنّ هيلانة قائلة : دعنها ولا تلمنها الا انها انما فعلت ما طلبتُ . فعادت الفتيات الى هيلانة ومعهنّ اولغا وهي دامعة العينين . ثم وقفت فتاة اخرى اسمها دونياشا وقالت : اتسمح لي مولاتي بان انشدها اغنية لطيفة هي البلسم

الشافي لجراح الاحزان ؟ فاومأت اليها هيلانة بالقبول فانشدت ما معناه:

روض انسٍ جمعت فيه المنى   خضرة والماء والشكل الحسن
جمّلت افراحنا ذات سنى   ما رآها ناظرٌ الاّ افتتن
صرمت من لطفها حبل العنا   حين جالت معنا في كل فن
مَلِكٌ في الارض او حوريةٌ   تفتن الالباب من حور عدن
لو رآها عابدٌ منقطعٌ   هجر الزهد واطراف القنن
كم اميرٍ راح فيها والهاً   مستهام القلب مهزول البدن
تائهاً في مهمه الحب فلا   يرتضي منها بديلاً او سكن
فلتدم مولاتنا راتعةً   في رياض الصفو لاتدري الشجن
مَن كهيلانة مولاةٌ سمت   مَن كهيلانة بدر التمّ مَن

ولما اتت عَلَى آخر انشادها التفتت طربةً الى مولاتها لترى ما حاكت اغنيتها فيها غير انها رأت عكس ما كانت ترجو فان هيلانة ازدادت حزناً وكآبةً فشرقت بدموعها وتنهدت تنهّداً يفتت الاكباد وقالت من فؤاد متبول — الا فابكين معي يا رفيقاتي واندبنَ تعسي وبلواي فقدذهب هنائي وثُلّ عرش صفائي · فذهلت البنات لهذا المشهد ولم يفقهنَ ما حلّ بمولاتهن وكأَن صاعقة انقضت عليهنّ فلبثن حائرات لا يعلمنَ كيف يسأَلنها عن سبب بجوها وبكاها · غير ان ما رأينه منها جرأهنّ عَلَى السوءال

فتقدمت اليها احداهن وقالت — فدتك نفسي يا مولاتي فما الذي يبكيك وانت في بحبوحة الرخاء وبسط العيش والهناء؟ فتنهدت هيلانة واجابت — لا ارى لبكائي تفسيراً ولا اعلم له سبباً غير ان نفسي كانت منذ الصباح حزينة وافكاري مشردة وقلبي يخفق خفوقاً شديداً حتى اكاد اسمع ضرباته. ثم تأوهت وقالت — لمَ هذه الحلي والجواهر التي انا متزينة بها فناشدتكنّ الله الاَّ ما نزعتنها عني وضفرتنّ غدائري مثلكن. فازدادت البنات ذهولاً وقلن لها — كيف تقولين هذا وانت عقيلة الشريف موروزوف صاحب المجد الباذخ والشرف الرفيع فاذا ضفرتِ غدائرك كما نضفرها نحن ورآك على هذه الصورة مولانا الشريف فماذا يعمل بنا؟

فقالت هيلانة — انه لا يراني فلا تخفن ولا سيما لاني لا البث حتى اعود الى ما كنت عليه قبل ان نبرح هذا المكان

فقالت الفتيات — انّا على كل حال لن نجري ما طلبت فلا نعرّض انفسنا لتبعة هذه الخطيئة فضلاً عن تعرّضنا لغضب الشريف وحسبنا ما سيتلقانا به من اللوم اذا ما رأى عينيك محمرّتين

فاطرقت هيلانة قائلة في نفسها — وهل يعدُّ تذكر السالف خطيئة؟.. ثم خاطبت الفتيات بقولها — فليكن اذاً ما اردتنّ عليّ اني ادعو اليّ اولغا فأضفر شعرها كما كان يضفر شعري قبل

زواجي · فدنت منها اولغا وجثت امامها على ركبتيها · فبادرت هيلانة وشرعت في العمل وفي اقل من لمح البصر كان لاولغا ضفيرتان شائقتان · وعندها التفتت هيلانة الى البنات وقالت — انظرنَ افليس ضفائر الفتيات أبهى واجمل من ضفائر النساء ؟ فاجبنَ — كل شيءٍ في وقته حسن يا مولاتنا فانت تتمنين الضفائر وهذه رفيقتنا دونياشا تتمنى العقائص · فاحمرّت دونياشا خجلاً وقالت — اليكن عن الاستهزاء فانا اود ان ابقى طول عمري عذراء · فضحكت البنات ضحكاً عالياً

ثم قالت هيلانة موجهة كلامها الى اولغا : انحني امامي يا اولغا لانيط بضفيرتك هذه الانشوطة الزرقاء اذ لا يخفى ان هذا النهار هو عيد « يوحنا كوبالا » وعرائس الماء يضفرن شعورهن ليغرينَ الناس

فاجابتها واحدة من البنات — كلا يا سيدتي فان عرائس الماء لا يضفرنَ شعورهن في هذا النهار بل في عيد الغطاس · اما اليوم فانهنّ يمرحن مسترسلات الشعور ويفتنّ الناس بدهائهنّ وجمالهن

فقالت اولغا — بعيشكنّ ما هذا الحديث ؟ بالله دعننا منه فعرائس الماء يفعلن اليوم اموراً كثيرة غريبة تشيب الاطفال وترتعد لهولها الفرائص

فسألتها هيلانة — وانتِ ايضاً تخافين عرائس الماء يا اولغا ؟

فاجابت — كيف لا اخاف يا سيدتي ولا احد يجترئ ان يمرّ في الاحراش في هذا النهار او في عيد الغطاس لانه ان كان المارّ فتاةً خطفتها العرائس وان كان شاباً خابنَ لبه واسرنَ قلبه

فقاطعتها البنات قائلات — تتكلمين يا اولغا ولا تدرين ما تقولين . اولا تعلمين ان عرائس الماء لا يوجد لهنّ اثر في جميع احراش موسكو بل هنَّ يكثرنَ في الولايات الجنوبية من بلادنا وفي الشمال الاقصى ؟ ... ونعم انهنّ خلاَّبات فكم من محبٍ نسي بهنّ محبوبته . وكم من والد هجر فيهنّ عياله . وكم من عاقل ضاع فيهنّ رشده وكم وكم ...

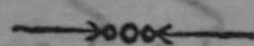
فاطرقت هيلانة مفكرة ثم رفعت راسها وقالت — او توجد عرائس الماء في بلاد ليتفا ؟ — قالت هذا وهي توجس في نفسها خيفةً على حبيبها ان يكون في عداد من وقعوا في اشراكهنّ . ولذا سألت عما اذا كان لتلك العرائس وجود في البلاد التي ذهب اليها حبيبها الامير نيكيتا من خمس سنوات كما علم القارئ مما مرَّ . ولا غرو ان ذكرت هيلانة تلك البلاد فانما

تلفتها الى نجدٍ دليلٌ　　عَلَى ان الغرام بارض نجد

فاجابتها الفتيات — ان عرائس الماء يحببن السكنى هنالك

فتنهدت هيلانة وسقطت من عينيها دمعتان كحبتي لؤلؤ .

وفي هذه الدقيقة سُمع صوت وقع حوافر جواد وظهر من وراء سياج الحديقة فارس مليح الهيئة بهيُّ الطلعة . فلما وقع نظر هيلانة عَلَى هذا الرجل عولت على الاختباء والتحجب غير انها ما حدَّقت ببصرها اليه حتى اخذتها الرعدة وتغير لونها لانها تحققت ان ذلك الفارس هو هو حبيبها الامير نيكيتا . فصاحت بالفتيات : اغربنَ عني ودعنني وحدي ولا تعدنَ الى هنا الا باشارة مني . فرضخت صويحباتها لامرها وتوارينَ عنها دون ان يجسرنَ عَلَى استفهامها عن سبب ذلك



الفصل الثاني عشر

المقابلة

لما شاهد الامير نيكيتا خطيبته وحبيبته هيلانة في حديقة الشريف موروزوف جحظت عيناه وشعر بان يد الغيرة صدمته صدمةً اصابت منه فؤاداً كان قد وقفه لعبادة تلك الفتانة فغاب رشده وارتخت اوصاله وما تفرَّس فيها قليلاً حتى رأى شعرها معقوصاً على راسها حسب عادة عقائل الروس . فشعر كأنَّ صاعقةً انقضت عَلَى راسه وايقن بتقوض جميع امانيه واضمحلال آماله . فاضطرب واكتأب واخذ منه اليأس كل مأخذ وقد اسودَّت الدنيا في عينيه . على انه اوقف جواده ليتحقق الامر و يجمع افكاره المشرَّدة

اهذه هي هيلانة حبيبتي الوحيدة ؟ ... اهذه هي الفتاة الفتانة التي لا تزال مطبوعة على صفحات قلبي صورتها اللطيفة والتي وقفت لها فؤادي وروحي ؟ .. اهذه هي قبلة آمالي وديباجة فخري ؟ ... اراها الان في حوزة غيري . أفتلك هي الحبيبة التي اقسمت لي بان تبقى حريصة على الولاء ؟ ... الم تكن صورتها قد خولتني قوة عظيمة على اقتحام صعاب الاخطار واحتمال متاعب الاسفار ؟ .. اهذه هي التي كنت أُمني نفسي بمشاهدتها لأسمع من فمها كلمة الترحيب الحلوة ؟ .. فماذا اعتراها ترى حتى انكرتني وجحدتني ؟ أليس ذلك جناية لا تغتفر ؟ .. فالسلام عليك ايتها الامال التي كنت ابني منك قصوراً شاهقة وقد عبثت بك الايام .. السلام عليك ايتها الاماني فقد لفتك اكفان الدهر وامسيت نسياً منسياً . السلام عليك ايها الحب يا ربيع القلوب ومورد النعماء .. ولكن لم يكن عهدي بك ان تتحول سعادتك الى شقاء وحلاوتك الى مرارة وعناء . اهذا ما كنت ترجوه يا نيكيتا ؟ .. اهذا ما كنت تتأمله بعد مر الفراق ؟ ... ولكن من ادراك اذا كانت هيلانة قد قصدت بهذا المظهر المداعبة والمزاح . لاني لا اقدر ان اصدق انها قد تزوجت ولم تنتظر عودتي .. بيد اني اراها في حديقة الشريف موروزوف فما هذا السر ؟ وعلى كل فاني لا اصدق ايضاً بان هيلانة تقترن

بوروزوف وهو طاعن في السن ...

بهذا الكلام كان نيكيتا يناجي نفسه . اما هيلانة فلم تكن اقل ارتباكاً منه وقد ضاق بها الفضاء وودَّت لو فتحت الارض فاها وابتلعتها من ان تكون في هذا الموقف الحرج الشديد على قلبها غير انها بعد ان أقصت البنات عنها ولم يبقَ في الحديقة احد سواها تقدَّمت الى السياج بقدم واجفة

فابتدرها الامير نيكيتا بقوله — استحلفك الله يا هيلانة ان تنبئيني بكلمة واحدة . أأنتِ متزوّجة ام اردتِ المزاح ؟

فاطرقت هيلانة ولم تجد كلاماً تقوله

فاستانف الامير خطابه : لا تعذّبيني يا هيلانة بل قولي كلمة لا غير أأنت متزوجة ؟ قال هذا وقد فعل سكوتها في قلبه ما كاد يذيبه

فنظرت اليه هيلانة بعينين ينبعث نورهما الوضاح تحت الاهداب الطويلة السوداء وقالت له وهي ترتجف — عفواً ايها الامير فاسمع ما اقول

فقال الامير وقد تفاقمت آلامه — لا اريد ان اسمع شيئاً لاني عرفت كل شيء فأستودعك الله — قال هذا واطلق لجواده العنان

فاستوقفته هيلانة وقالت بلسان يلعثمه الحزن وصوت متهدج

تقطعه الزفرات المحرقة والدموع المنهمرة : استحلفك بالشرف ان تسمع مقالي وبعد ذاك اقتلني ٠ — قالت هذا ولم يعد في امكانها ان تتكلم اكثر لان قواها قد تلاشت فاصطكّت اسنانها وداهمتها نوبة عصبية فسقطت الى الارض مغمىً عليها وقد مدت ذراعيها الى الامام كانها تطلب شيئاً ٠ فلما شاهد الامير نيكيتا ذلك انصدع فوءاده هلعاً فاوقف جواده بعد ان همّ بالمسير ووقف حيران كمن تكسّر النصال عَلَى اوصاله وهو لا يدري ماذا يفعل ٠ اما هيلانة فما عتمت ان افاقت من غشيتها فتنهّدت والتفتت الى الامير وشرعت تقص عليه ما جرى لها من يوم مفارقته وتطرّقت في حديثها الى ذكر ما داهمها من الويلات الصادرة عن الامير اثناسي فيازيمسكي وكيف انه كان يتعقبها بقصد استمالتها اليه او الاستيلاء عليها باي وجه اما هي فلم تقابله الاّ بالصدّ وبذلك اثارت حنقه وغضبه ٠ ثم وصفت له ما تلا ذلك من تداخل الملك في هذا الشان وانها لما لم ترَ لها نصيراً اسلمت نفسها للشريف موروزوف فكان ابرّ بها من الجميع

كانت هيلانة تتكلم ويتخلل حديثها عويل وشهيق وزفرات تفتت الاكباد ٠ واخيراً قالت — انك ايها الامير لا تقدر ان تحبني لان ذلك لم يُكتب في سفر نصيبنا ٠ فان شئت ايها الحبيب ان تغفر لي كان ذلك منك رحمةً والاّ فهذه حياتي بين يديك

فافعل ما تشاء...

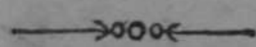
فلم يُحر الامير جواباً بل ظل ضائع الرشد وهو لا يدري ما يصنع او ما يقول. فاستطردت هيلانة كلامها بقولها : اني استحلفك بالله ان تجيب سؤالي وتلفظ كلمةً واحدةً — قالت هذا ونظرت اليه نظرة خوف ورجاء

اما نيكيتا فحدثت في نفسه في هذه الدقيقة مصارعة شديدة جلاها قوله بصوت التأثر : اي هيلانة يظهر لي ان الله انما بذلك قضى وهذه ارادته المقدسة. فانتِ اذاً غير مذنبة نعم انت بريئة ولا تستوجبين التعنيف ولست في حاجة الى المسامحة لانكِ لم ترتكبي زلّة ولم تقترفي ذنباً. واذكري دائماً ان نيكيتا مخلص لكِ وانه يجود في سبيلك بالحياة. وأعدك وأُشهد الله باني ما زلتُ احبكِ ولن استطيع اهمالك لانك لم تبرحي آسرةً لفؤادي

ان هذه الكلمات التي نطقت بها شفتا الامير كانت كالبلسم الشافي حلت في جسم هيلانة ودبَّت الى جميع جوارحها فأَحيت ميّت آمالها وكفكفت دمعتها وانعشت نفسها فوثبت مستبشرةً مجبورة تتعثر باذيالها ووقفت على متكأ ملتصق بسياج الحديقة فاستقبلها نيكيتا بوجه باش وبدون ادنى تبصر او تحذر انطرح كلٌّ منهما على الآخر والتقت الشفاه فسكرت من خمرها النفوس

ان هيلانة قد عانقت الامير نيكيتا وغدرت بعهد زوجها

الشيخ · قد قبلته ولم تهمها الايمان الغليظة التي اقسمت بها ان لا تخون زوجها · فماعسى ان تكون حالتها اذا سبر الشيخ غورها وعرف سرّها ؟ · · · ان موروزوف كان من اصحاب الغيرة شديد التحمس في الشرف وكان مع هذا يحب زوجته الحديثة السن محبة فائقة بيدَ انه كان شديد القساوة لمن كان يبدي له شيئاً من الدناءة والقحة والاخلال بالواجب · افلم تخف اذا هيلانة ان يتبين زوجها حقيقة امرها ويطلع علَى خفاياها ؟ الم يخامرها خوف عظيم من الاقدام علَى عمل ربما ذهب بروحها وروح حبيبها ؟ ألم تفقه ان عملها هذا لهو جناية كبرى ضدّ الواجبات الزوجية المقدسة؟ · · ان هيلانة اجابت داعي هواها ولم تفكر بالعواقب · ولعلها فعلت ذلك دون روية ولا امعان · · ·



الفصل الثالث عشر

الامير والشريف

ان الشريف موروزوف كان يعرف الامير نيكيتا بيدَ انهما افترقا عن بعضهما من مدة طويلة فانه قبل ان انطلق الامير الى بلاد ليتفا للحرب كان الشريف يقود جيشاً روسياً ويناوىء العدو في مكان بعيد بقي فيهِ نحو خمس سنوات فتكون مدة افتراقه عن نيكيتا عشر سنوات · غير ان موروزوف لم تغيره هذه السنون

بل ظل كما كان سابقاً نشيطاً قوي البدن ماضي العزم والارادة فلو القى عليه الان الامير نظرةً واحدةً لكان عرفه حالاً لان الشريف كان من اولئك الافراد الذين هيئتهم ترسخ في الذاكرة على مدى بعيد · وحسبك قامته وهيبته تجذبان النظر فكان شيخاً وقوراً اشتعل راسه بياضاً في مصارعة الابطال وكفاح الكماة فنال صيتاً بعيداً واحدوثةً جميلةً وترامى ذكره الى جميع الارجاء وعرف الخاص والعام فضله الجزيل ومجده الاثيل وكان له نظر حاد شديد التأثير ولا سيما في حالة الانفعال وسورة الغضب · وقد اشتهر على الخصوص بكونه حريصاً عَلَى دواعي الشرف متفانياً في حب الحقيقة شديد التمسك باهداب العفة والاستقامة مبغضاً للظلم لا يخفض جانبه لاحدٍ من الناس عظيماً في عيون الشعب ورجال الدولة والبلاط وكان مع ذلك لين العريكة كريم الاخلاق كثير المؤانسة لذويه لطيفاً في معاملاته معهم · ومجمل القول انه كان متصفاً بكل ما يجمل الناس من الفضائل والاداب · اما قصره فكان جامعاً لكل اسباب الهناء والراحة لا تكاد ترسخ فيه قدم ضيفٍ او زائرٍ الاّ وتنتعش روحه وينطلق لسانه بالشكر الحميم والثناء

— اهلاً بك ومرحباً ايها الامير · ادخل ايها الضيف العزيز · الحمد لله على سلامتك ايها الصديق الحبيب · — بهذا الكلام استقبل

الشريف موروزوف الامير نيكيتا في مساء ذلك النهار ودخل به الى ردهة في القصر فسيحة حسنة الرياش وغالية الاثاث تتلألأ على جدرانها الاسلحة المختلفة في اغماد مرصعة بالنقوش وكريم الحجارة . ولما استقر بالاثنين المقام استأنف الشريف خطابه فقال مرحباً بك ايها الامير . اني وايم الحق لمسرور جداً لهذه المقابلة بعد طول الغيبة وبعد الشقة ولا سيما لعودك الميمون مكللاً بالظفر والفوز فقمت بمهمتك التي أُنفذت لاجلها من قِبَل الملك والوطن احسن قيام . فانك كما انبأتنا بشائر الاخبار قد قهرت اللّيتفاويين (سكان بلاد ليتفا) وانتصرت عليهم انتصاراً باهراً فاكتسبت بذلك رضى الملك ومحبته الشديدة فضلاً عن شكر الوطن والامة لمساعيك الحميدة . فبورك فيك يا بنيّ من قائدٍ باسل ووطنيّ امين مخلص لملكه ووطنه لا يستعمل المخاتلة والخداع في اعماله وتصرفاته امين علَى مبادىء الشرف والمجد

فشكره الامير علَى هذا الاطراء غير ان الكلمات الاخيرة قد اثرت فيه بعض الشيء فشعر بخجل داخلي كاد يبدو علَى محيّاه لو لم يبادر الى تغيير الموضوع فقال — ايها الشريف ان الامير بروسكي القائد العام قد انفذ معي اليك رسالة فها كها

فتناولها الشريف وقال — اشكرك ايها الامير وسأتلوها فيما بعد اما الان فدعني امتع الطرف بمرآك واستأنس بمحادثتك .

قال هذا ومدّ يده فقرع جرساً . فدخل احد خدمه فقال له — ادعُ السيدة هيلانة الى هنا وقل لها ان ضيفاً عزيزاً زارنا وهو الامير نيكيتا سيريبريانى . فانصرف الخادم ولم يمضِ الا القليل حتى دخلت هيلانة فحيّت الزائر تحية اللقاء كانها تشاهده لاول مرة . بيدَ انها كانت صفراء اللون مكسورة الطرف ولم تلبث ان جمدت كالصنم لا يتحرك منها شيء غير قلبها الذي كان يخفق خفقاناً شديداً . اما موروزوف فقال مخاطباً الامير — اعرّفك ايها الحبيب بزوجتي هيلانة ولا اخالك تجهل اباها لانه كان من اكابر الوطن ودهاقنة السياسة المشهورين . ثم خاطب زوجته قائلاً — وانتِ يا عزيزتي اعرّفك بالامير نيكيتا البطل الشهير وهو مثال الشهامة وعنوان المروءة ولا شك في صفاء قلبه واخلاص وداده

وكان الامير في اثناء هذا الكلام كمن يسمع الحكم المبرم عليه . اما هيلانة فلبثت مبهوتة وهي تضطرب كالقصبة حركتها العاصفة ولم ترفع نظرها الى نيكيتا . فلمح موروزوف ارتعادها وقال لها : ما بالك يا هيلانة حزينة النفس منقبضة الصدر ؟ تُرى ماذا اصابك ؟ انك لكاسفة البال يؤلم قلبك البلبال وها وجهك قد امتقع فرَقاً وهلعاً . . . ثم دنا منها وهمس في اذنها — العلّ الامير اثناسي فيازيمسكي مرّ اليوم بازاء الحديقة ؟ ومهما يكن فلا تخشي بأس احد ما دُمت حياً ارزق فلن يتجرأ احدٌ ان

ينال منك قلامة ظفر . ولكن اسألك الآ تخرجي وحدك الى الحديقة بدون ان اكون انا برفقتك . فانفي الان عنك كل حزن وهلمي نفرح ونسر بقدوم ضيفنا الحبيب

فاطرقت هيلانة واجمة غير انها ما لبثت ان احست بان عيني زوجها شاخصتان اليها تستشفان ما في جنانها فتجلدت وتجملت وابدت بعض الانس والبشر . بيد ان ذلك لم يغرب عن زوجها فانه لمح في بشاشة وجهها تصنعاً فقال لها — اذهبي ومري الخدام ان يعدوا لنا طعام العشاء لاني اخشى ان يكون اميرنا العزيز جائعاً .

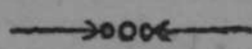
فانصرفت هيلانة وهي تكاد تتعثر باذيالها . اما نيكيتا فقال للشريف — اشكر عنايتك يا سيدي وارجوك ان تعفيني من الطعام لاني لست في حاجة اليه الان وبودي ان انطلق لمقابلة الملك في هذا المساء

فنظر اليه الشريف باسماً وقال — علامَ هذه العجلة ؟ اني لا ادعك تخرج من هنا قبل ان تؤاكلني فلا تحتقر شيخاً اقصاه الملك من امام عينيه وكتب له ذنباً عظيماً . او لم ترَ شعري الطويل ؟

فاطرق الامير متأملاً ثم قال — اني ارى يا مولاي ذلك ولذا تراني في حالة الاستغراب الشديد لان القوم يشهدون لك باحسن المآتي الوطنية فكيف ساغ ان تكون مذنباً امام الملك وهذه حياتك كلها بيضاء كالثلج لم توصم قط بعار وقد قضيتها في خدمة

الملك والوطن

فتنهد الشريف واجاب — السبب في ذلك هو لاني لم اشأ أن امتهن حقوقي واخفض جانبي وشرفي لاناس هم دوني بدرجات ·
— قال هذا وقد اربدّ وجهه واخذ يسرد عَلَى جليسه مجمل الحوادث التي جرت في موسكو في اثناء غيبته عنها



الفصل الرابع عشر

﴿ خلاصة وجيزة ﴾

قال — ان اموراً عجيبة وحوادث غريبة قد جرت في موسكو منذ انشأ يوحنا الرابع فرقة رجال الحرس · تلك الفرقة الهائلة التي جعلت دأبها الفتك والاغتيال وركوب الفظائع والمنكرات فاقلقت الافكار وروّعت القلوب وغيّرت الاحوال وقلبت هيئة البلاد ونادت عليها بالويل والثبور

فلم يستطع الامير سكوتاً عند ذلك وقال : اني لم افقه بعد سرّ هولاء الرجال وقد شاهدتهم بعيني فبالله الاّ ما اوضحت لي ايها الشريف كنه امرهم

فاجاب الشريف — لبيك ايها الامير العزيز فأصغ لما اقول : يظهر اننا اغظنا الجوّاد الرحيم حتى صرنا الى هذه الحالة من التعس · وسبب كل ذلك ان بعض المفسدين قد وشوا الى الملك

بعض الافراد المقربين اليه . فما كان منه الا ان اهانهم وطردهم من قصره ومن ذلك الحين اخذت تجتاحنا المصائب متتالية لان يوحنا كان سيء الظن برجاله الامناء المخلصين فصار يعتقد بان كل واحد منهم ينوي ضده شراً فجعل يقصيهم من بلاطه و يدني منه قوماً آخرين لم يشتهروا بشيء من الاعمال الوطنية حتى ولم يكن اسمهم معروفاً من قبل . وهؤلاء الاثمة كانوا يسعون دوماً لدى يوحنا باخصائه القدماء و يوغرون صدره عليهم وكان دو يعيرهم اذناً واعية فيعاقب اخصاءه باشد العقوبات و ينكل بهم اي تنكيل كانهم قوم فعلوا جرماً او اتوا جناية عظمى . ولا ريب في ان اصغاء يوحنا لاولئك البغاة السفلة كان مدرجة لترقيهم في عينيه ومدعاة لاحتدام غضبه على الامناء من رعاياه والانكى من هذا وذاك انه كان يثأر بهم دون ان يبلو صدق الواشين بهم او يسمع استغاثتهم ودعواهم . وظلت هذه الاعمال البذيئة جارية مجراها واولئك الرجال يزدادون نمواً و يزداد شرهم انتشاراً بينما الابرياء يُساقون افواجاً بعضهم الى السجون وآخرون الى المشانق والمذابح وليس من يلبي نداءهم او يسمع شكواهم . الم تسمع يا حضرة الامير قبل الان عن هذه النوازل ؟

— بلى قد سمعت عن ذلك بعض الشيء واما في بلاد ليتفا بيد اني كنت زاعماً بان يوحنا عادل في اعماله فله مطلق

الحق في الانتقام من اعدائه وغير المخلصين من رعاياه

— على رسلك ايها الامير ولا احد ينكر ماله من الحق في ذلك . غير انه لم يكن يعاقب اعداءه حقيقة بل كان جام غضبه ينصب على رؤوس الابرياء فقط . فهذا اداشيف وهذا يفان شيشكين وهذا ساتين وعيالهم وذووهم وغيرهم كثيرون وكلهم ابرياء تشهد لهم انت وغيرك وجميع ابناء الوطن يشيدون بحمدهم وليس من ينكر فضلهم واياديهم البيضاء

فاطرق الامير مفكراً ثم قال — ان الذنب كل الذنب على رجال البلاط الساعين بجميع هذه النكبات فهم الذين كما يظهر من كلامك تجنوا على ابرياء الامة وقادوهم الى التهلكة

— نعم القول ولكن يوحنا نفسه لا يتبصر في اجراءاته ولا يتروى في انواع العقوبة التي يفرضها . وهاك واحداً من الوف الادلة على ذلك فان رئيس سقاته ثيودور باسمانوف اشتكى له على الامير اوبولنسكي لانه تفوه بكلمة في غير محلها . فما كان من يوحنا الا ان طعنه — وهو جالس معه الى مائدة الطعام — في قلبه بخنجر حاد افاض روحه

فذعر الامير لهذا الكلام وقال لموروزوف — اعلم ايها الشريف بانه لو قال لي احد سواك هذا الكلام لكنت دعوته واشياً ولكنت بنفسي القيت القبض عليه في الحال

فتبسم الشريف وقال — مهلاً ايها الامير فكيف خطر لك ان تتصوّر مثل هذا وتظنه يصدر من الشيخ موروزوف؟ اجل ان ذلك عارٌ عليّ ولكن هي الحقيقة ابت الا الظهور

— اعذرني ايها الشريف عما بدر مني هفواً لانني في اشد حالات الاستغراب من مثل هذه الفظائع ولا اعلم كيف أأوّلها فلعل ذلك عارض اصابه فنكب به عن كل صواب

— قد يمكن ان يكون ما اعتقدت ولكن تمهل عليّ فافكهك بنادرة اخرى : مرةً دعا يوحنا رجاله الاخصاء واحباءه وعلق يرقص واياهم في ازياء المساخر وكان حاضراً اذ ذاك الامير ميخايل ريبنين فما شاهد هذا القصف حتى استخرط في البكاء والعويل اما يوحنا فسخط عليه وامر بان يقدم له زيٌّ من تلك الازياء ليشاركهم في خلاعتهم . . .

فابتدره نيكيتا قائلاً : وهل لبسه الامير ؟

فقال الشريف : كلاّ ايها الحبيب فانه وقف مرتعداً وصاح : اني لن الطخ شرفي ومقامي بهذه السخرية . وداس ثمت الزي برجليه

فقال نيكيتا متهللاً : ألا اكرم بهذه المزية وهذا الشرف

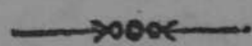
اما موروزوف فهزّ رأسه وقال بحزن : ولكن المسكين عوقب علَى ذلك بعد مضي خمسة ايام بان تجرع حسوات المنون وهو ضمن

الهيكل ... اواه ايها الامير ما اتعس ما صرنا اليه

فقال نيكيتا : انّا لله وانّا اليه راجعون . ثم اطرق مفكراً مهموماً

وبعد ان ساد الصمت هنيهةً استأنف الشريف حديثه فقال : والخلاصة ايها الامير ان العقوبات الشديدة كانت تترى بحيث لم يكن يمرّ يوم الاّ يُهرق دمٌ زكيٌّ ان كان في السجون او الاديرة والكنائس او الساحات او الشوارع والسكك وكنت ترى اتباع الاشراف وخدمهم يُساقون زرافات ويُقسرون علَى الشهادة الباطلة على مواليهم فيؤتى بهولاء وينكل بهم . نعم ان بعض اولئك الاتباع والخدم لم تكن ذمتهم تبيح لهم البهتان وشهادة الزور غير انهم كانوا يُعذبون ويقتلون بان يعرض بعضهم على السيف والبعض الاخر علَى النار او علَى غير ذلك من ضروب النكال . وعلَى الجملة ان جمهوراً غفيراً قد عُذّبوا ظلماً لانهم كانوا يسيرون في سراط الحق والعدل فنالوا اكليل الشهادة وليس لهم اثم البتة . ولا اكتم عنك ان يوحنا كان في بعض الاحيان يعود الى رشده فيندم ويبكي داعياً نفسه قاتلاً ظالماً ويوزع الاحسانات والهبات علَى الاديرة والكنائس والفقرآء غير ان ندامته لم تكن تطول فكان بعد الندامة يعود الى سيّء اعماله وفظيع افعاله بل كان يزيد عليها من الشدّة والقساوة وضروب التفنّن في العذاب

ما كان منسياً . واليك ايها الامير ما جرى في اعقاب ذلك مما تشيب لهوله الاطفال



الفصل الخامس عشر

﴿ نفور الملك ﴾

وعقب الشريف حديثه فقال : بينا كنت ذات يوم خارجاً من منزلي صباحاً قصد التجول في ضواحي المدينة للانتعاش بهوائها الرطب ونسيمها العليل شاهدت في طريقي جماهير الشعب يسرعون الخطى وعلامات الارتباك بادية على وجوه الجميع وكان بعضهم سائرين نحو قصر الكريمل والبعض الآخر عائدين منه وكلهم يرددون بحزن : « ان الملك يتجهز لمغادرة العاصمة ولسنا نعلم اين يقصد » فما كدت اسمع هذا الكلام حتى اعتراني هزة اضطراب ووجل ولم ابطىء ان عدت ادراجي الى منزلي و بادرت الى جوادي فامتطيته واسرعت ميمماً قصر الكريمل وقد التقيت في الطريق بكثير من النبلاء والامراء وجميعهم مسرعون الى القصر بين ممتطي صهوات الجياد وماشين على الاقدام كابسط الناس غير مبالين بشيء من دواعي الشرف . وما كدنا نبلغ القصر حتى عاينا كوكبةً من رجال الشحنة خارجةً من هنالك تتبعها المركبة الملوكية تقلُّ الملك والملكة وولي العهد ووراءها مركبات أخر

تحمل جميع اجهزة القصر وامتعته والخزنة وغير ذلك شيء كثير
ووراء هذه المركبات زعماء الجنود واخصاء البلاط وعدد غفير من
اصحاب الرتب والمقامات وكلهم خارجون من الكريمل اما نحن
فما كان منا الا ان هرعنا نحو مركبة الملك عَلَى امل استعطافه . بيد
ان رجال الشحنة حالوا بيننا وبينه وهم يقولون : ان جلالته لا يأذن
لاحد ان يدنو منه . فامتثلنا الامر وارتددنا القهقرى خائبين وقد
اظلمت الدنيا في عيوننا . اما المركبات فظلت سائرة في وسط المدينة
حتى توارت عن العيان فعدنا الى منازلنا ونحن نعلل انفسنا بان
الملك لا يلبث ان يعود الى العاصمة . غير انه لم يمض عَلَى ذلك
اسبوع حتى ورد المطران رسالة منه مضمونها ان الملك لم يعد يطيق
الصبر عَلَى مساوئنا ولذا فانه غادر المملكة وسافر الى حيث يريد . وما
شاع هذا الخبر في المدينة حتى قام له الجميع وقعدوا وما كنت تسمع
الا العويل والبكاء والجميع يصرخون : واويلاه قد برحنا الملك وتركنا
حيارى فمن ذا يملك علينا الآن ؟ . . ولا انكر عليك ايها الامير ان
يوحنا ولئن كان قاسياً وهائلاً غير ان الله مسحه واوجب علينا طاعته
والاعان لاوامره ويظهر انه سبحانه وتعالى انما اراد بذلك ان يعاقبنا
عَلَى اثامنا . واخر الكل التأمنا وقررنا عَلَى ان نشخص الى حيث الملك
ونبتهل اليه ان يعود الينا لتدبير شؤون المملكة . وقد عرفنا انه في
قرية الكسندروفا التي تبعد من هنا نحو ثمانين كيلومتراً . فلم نلبث ان

سرنا على بركة الله ونحن نمني انفسنا برضى الملك وانفراج الكربة ·
ولما وصلنا الى القرية المذكورة استأذنا بالدخول على الملك فأذن لنا
فدخلنا وفرائصنا ترتعد وقلوبنا هالعة وما كدنا نلج القاعة التي كان
جالساً هو فيها حتى اعترانا الذهول الشديد وكدنا لا نعرف
الملك لشدة النحول الذي اصابه · ولما دخلنا سلمنا بالاحترام
اللائق فاستقبلنا هو بالتعنيف والملامة واخذ يعدد هفوات وذنوباً
كثيرة نسبها الينا ونحن براء منها وقد دعانا اخيراً غير مخلصين
لسدته وقال — ومع كل هذا فانا ملبٍ نداء الابرار من رعاياي
وخاصة الاساقفة منهم وسأستأنف تدبير شؤون المملكة على شرط
سوف ينجلي للجميع · ولما قال هذا سمح لنا بتقبيل يده وخرج
فقفلنا راجعين الى العاصمة

وكان الامير نيكيتا اثناء ذلك صامتاً مصغياً اتم الاصغاء كأن
على راسه الطير · فلما وصل الشريف الى هذا الحد من الكلام ساله — وما
هو الشرط الذي اشترطه عليكم ؟

فاجاب الشريف متنهداً : هو عنوان الدمار وآلة البوار
واليك ذلك بالتفصيل

الفصل السادس عشر

﴿ كيف نشأت فرقة رجال الحرس ﴾

— بعد مضي ثلاثة اسابيع عاد الملك الى موسكو فابتهج الاهلون اي ابتهاج وتألبوا لملاقاته وهم يشكرون الله ويهنئون بعضهم بعضاً . اما هو فلم يلبث ان استدعى جميع الامراء والنبلاء وقال : ها اني عدت الى العاصمة لاستئناف تدبير المملكة وقد وطدت عزمي عَلَى التنكيل بجميع الخوَنة وذوي الدسائس والفتن فلي مطلق الحرية في الضرب عَلَى ايديهم واستباحة اموالهم وعقاراتهم ولا حق لاحد ايًا كان ان يتوسط في شيء من ذلك وسأصطفي لي حرساً خاصاً يذودون عن حقوقي و يرصدون الخوَنة لقمع آثارهم من البلاد وساخصص لي ولهم مدناً مختلفة وغياضاً عديدة وشوارع واملاكاً اخرى في العاصمة وفي غيرها من المدن وليس لاحد ان يعترضني او يشاركني في شيء . هذا ما ارتأيت عمله ضمانةً لراحتي وداعيةً لرضاي . . . ولما كان بعد ايام انشأ يوحنا فرقة رجال الحرس جامعاً فيها من راق في عينيه من الاشخاص غير ناظر الى شرف اصلهم او كرم عنصرهم . ولم يكن احد ينخرط في تلك الفرقة الا و يعاهد الملك مقسماً بالله ان لا يكون له ادنى علاقة مع الاشراف بل يترصدهم بتمام التيقظ والحذر للظفر بكل من تقع عليه منهم شبهة او يظهر من حاله ما يدعو الى الريب . وما كادت

هذه الفرقة تنتظم احوالها وتسير في الخطة المرسومة لها حتى استفحل امرها وتفاقم شرها · والحق يقال يا حضرة الامير اني لا اكاد اصدّق عيني لدى مشاهدة الدمار الذي جرى في البلاد من قبل هؤلاء الحراس الطغاة وها انهم يطوفون الان شراذم عديدة في جميع انحاء المملكة متسمين بالمكنسة ورأس الكلاب يدوسون الحقيقة و يكنسون الشرف الروسي وليس الخيانة كما رصدوا نفوسهم يعضّون خدّام الملك الامناء وليس الاعداء كانما عهد اليهم اهلاك كل ذي نفس ابية وغيرة وطنية· وقصارى القول انهم اشد ما وقع على البلاد لحد الان من البلاء· والانكى من كل شيء انه لا يجري عليهم حكم او عدل ولا يعرفون شريعة

وكان الامير نيكيتا اثناء هذا مصغياً وهو في اشد الاضطرابات النفسانية · فلما فرغ الشريف من خطابه سأله الامير: ولماذا رضختم لهذا الشرط الوبيل ؟

فاجاب موروزوف — عجباً ايها الامير أفنجسر على معارضة الملك ومناوأته ؟ اوليس هو من لدن الله ؟

فقال الامير : لا مشاحة في انه من الله ولكنه قبل اجراء جميع هذه الامور سألكم فلمَ لم تقولوا له انا لا نرضى بهذه العصابة ؟

اجاب الشريف : وهب اننا فعلنا ذلك افلا يخال لك انه

يعود حالاً فيتركنا ؟ او نقدر ان نمكث بلا ملك ؟ وماذا يقول الشعب ؟

فأطرق الامير مفكراً مضطرباً وبعد هنيهة رفع راسه وقال بصوت كئيب — اجل ان الرعية لا يمكنها ان تبقى بدون وليّ لامورها مدبرٍ لشوءونها · غير اني اعجب ايضاً كيف انكم تنظرون بعيونكم هذه الفظائع والكبائر وتصمتون فلمَ لم تشكوا امركم الى الملك وتقولوا له ان البلاد قد تقوّض نظامها ودبّ اليها الوبال من هولاء الضواري

فاجاب الشريف — اني ايها الشريف لا اصمت ما دام في عروقي دم يجري فلم اكن لاخفي آرائي الحرة ولذا تراني الان كاحد المجرمين وقد اقصاني الملك ولا بد ان يستدعيني يوماً ما فيعاقبني · ولم يبقَ من الاشرف احدٌ في البلاط بل تراه الان مرسحاً لاولي التهتك والدعارة وصار كل عابر سبيل ادنى من البلاط منا فترى هناك الكسي باسمانوف وابنه ثيودور اللذين لا تقدر ان تميز احدهما عن الاخر بالشقاء والدناءة · وماليوتا سكوراتوف الذي يصعب عليك ان تعرفه اجزّار هو ام وحش ضارٍ فانه يكون على الدوام ملطخاً بدماء الازكياء · وفاسيلي غريازنوي وبوريس غودونوف فالاول لا يهمه من دواعي الشرف شيء وقد مات ضميره اما الثاني فانه يبيع اباه وامه واولاده

في سبيل الرفعة والارتقاء . وليس هناك من ذوي المقامات الرفيعة الا الامير اثناسي فياز يمسكي غير انه لم يلبث ان اهان شرفه واهاننا جميعاً . ولكن ماذا اقول عنه . . . والخلاصة ان البلاط قد امسى الان في احط الدركات من الشقاء والتعس والملك مُعرض عن كل اصلاح غير مبالٍ بمصالح البلاد فهو ابداً منقطعٌ مع ندمائه واخصائه اللؤماء الى الولائم والترف منغمس في الملاهي والمعاصي لا يهمه الا الانتقام والتشفي واراقة دماء العباد

ثم صمت موروزوف متنهداً متأوهاً وقد شغلته افكار اخرى فامعن في الخيال . اما الامير نيكيتا فكاد يتدلّه من الحزن والقلق وهو لا يفقه سرّ انقلاب الملك وماذا طرأ عليه حتى جعله علة جميع هذه الشدائد والمحن التي نابت البلاد ونادت عليها بالويل والثبور

الفصل السابع عشر

﴿ على مائدة الطعام ﴾

وفي اثناء ذلك كان الخدم قد بسطوا مائدة الطعام فقام الشريف موروزوف ودعا ضيفه والحّ عليه بان يشاركه في طعامه . فلبى الامير الدعوة وقام فجلس على مائدة الطعام حيث كان كثير من الالوان الفاخرة والمشروبات الطيبة . وفي ابان

ذلك اترع موروزوف قدحين من معتق الشراب الرائع فقدم للامير قدحاً وتناول هو بيده القدح الاخر وقاما ثمت عن المائدة فشربا نخب الملك داعيين له بطول البقاء وسلوك سواء السبيل ثم جلسا وخاضا عباب الحديث · فسأل الشريف جليسه ان يسرد عليه حوادث الحرب التي قام بها في بلاد ليتفا · فاجابه الامير عن كل اسئلته باسهاب يحتمله المقام وقد استطرد في حديثه الى ذكر المعركة التي نشبت بينه وبين رجال الحرس في قرية ميدفيدفكا بجميع تفاصيلها وذكر له ايضاً كيف شاهد شرذمة منهم وهو داخل الى موسكو وما كان من امره مع الناسك باسيل · وكان موروزوف مصغياً الى حديثه بتمام الاعجاب فلما فرغ ابتدره الشريف بقوله انك ايها الامير لممّن يبخل الدهر بامثالهم وممن يشتد بهم الملك ويُعزّ غير ان ما اجريته في القرية المذكورة لهو ضد الصواب المعروف الان في البلاط · انك ايها الحبيب قد اهنت رجال الحرس واوقعت بهم غير هياب ولا وجل ومعلوم ان كل من يتصدّى لهؤلاء الناس بأذيةٍ ما يُساق الى موضع العذاب والنكال كانه اهان شخص الملك · واما هجومهم على قرية ميدفيدفكا قصد الفتك والاغتيال فلا تعجب منه لان القرية تخصني ومشهور الان ان كل نبيل يقع تحت سخط الملك تكون عقاراته وضياعه مطمح انظار رجال الحرس ومرمى دمارهم فتراهم يتوافدون اليها في كل حين

للنهب والسلب وسائر الفظائع والمنكرات · اما الناسك باسيل فهو رجل بار يخشاه الملك ويرتعد من تعنيفه وانذاره لانه لا يقبل على الحق رشوة بل يوبخ ويعنف كل من فعل سيئاً وركب شططاً ولو كان عندنا رهط مثله لكنست البلاد على ما ارى من فرقة رجال الحرس وطهرت من بذاءة اعمالهم وفظاظة معاملاتهم ... ولكن مالي ولذكرهم في مثل هذا المقام · هات الان فاخبرني — افي عزمك ان تقابل الملك ؟

— بلا بد ان شاء الله غداً باكراً جداً انطلق لمقابلته

— عجباً ايها الامير ولا اخال انك تستطيع ذلك لانك لا تقدر في هذه الليلة ان تسافر وبيننا وبين الملك الان مسافة مئة كيلومتر بنيف

— وكيف ذلك العله غادر قصر الكريمل ؟

— اجل فانه غضب علينا مرة اخرى فظعن الى قرية اليكسندروفا مع احبائه رجال الحرس

— فاذاً يتحتم علي الاسراع فاعذرني ايها الشريف لا سيما واني لم اكن في منزلي بعد فعلي ان انطلق اولاً اليه لاتعهد ما هنالك بعض الوقت وغداً صباحاً اكون ان شاء الله في القرية المذكورة

— انصحك ايها الامير الا تشخص الى هناك لاني اخشى عليك

— وماذا تخشى ايها الشريف ؟

— اخشى ان يحلّ بك ما لم يكن في الحسبان

— الموت والحياة في يد الله ايها الشريف وهو يهبهما لمن يشاء من عباده ولست ارى الا التسليم لارادته تعالى

— انت تعلم ايها الامير اني احبّك حبّاً فائقاً وقد احببت هذا الحب اباك من قبلك وكنت واياه يداً واحدةً في جميع الامور والاحوال . فانا اكراماً لتلك الصداقة المتينة التي كانت موثقة العرى بيننا ارى من الواجب اللازب ان اقدم لك نصيحة شفيقةً وهي ان انت سافرت الى مقرّ الملك هلكت لا محالة . واعلم ان حياتك كانت مجيدة وستكون اعظم مما كانت والحروب ان انطفأت نارها اليوم فتستعر غداً ولا غنىً للوطن عن ساعدك القوي وبسالتك المشهورة فلا تعرّض نفسك الآن للهوان

— قلت واقول ان الموت والحياة بيد الله ولا يقدر الانسان ايّاً كان ان يردّ مقدراً

— ومع هذا فاني ارى ان تنصاع لمشورتي وتمكث عندي فاقيك كل ملمة وتكون عندي بمنزلة الابن الحبيب

— ان دواعي الشرف ايها الشريف تقضي عليّ بالشخوص الى قرية اليكسندروفا لانه عار على المرء ان يختبيء من ملكه

— بالصواب نطقت . ولكن ان انت رضيت ان تبقى عندي

بعض الوقت ريثما يخمد غضب الملك نوسط المطران بينكما فيحمله على مسامحتك

— ان الموت احب اليّ من الحياة على هذا النمط وليس من الفضيلة ان اطلبها بالحيل . وهب اني تواريت ردحاً من الوقت افاكون بذلك مرتاح الضمير ؟ كلا . ولذا فاني استودعك الان ايها الشريف شاكراً صنيعك الجميل معي وعسى الله ان يجمع بيننا في آن اخر

فنظر اليه الشريف بعين المحبة والحزن معاً وفي دماغه اتون من الافكار المضطربة خوفاً من مواراة شمس هذا الحسن وذبول زهرة هذا الغصن غير انه امتدح في سره تصميمه لانه لو كان في مكانه لما فعل الاّ ما عزم الامير عليه . فنهض مودّعاً وقال له: لتحرسك العناية الالهية يا بني وليوفق الله مسعاك ويباركك من العلاء . ثم دنا منه فعانقه بلهفة الوالد الحنون وخرج ثمت مشيعاً اياه الى فناء المنزل وفوءاده يتفتت ومهجته تتقطع

وكان الخدم قد اعدّوا الجواد فامتطى الامير صهوته وخرج من ذلك القصر وقلبه خافق وافكاره مشرّدة

الفصل الثامن عشر

﴿ مقابلة ليلية ﴾

لم يمرّ عَلَى الامير نيكيتا عقيب خروجه من قصر الشريف موروزوف بضع دقائق حتى لاح له شبح واقف في ظلال احدى اشجار الحديقة لم يلبث ان تبين فيه شخص حبيبته هيلانة وكانت من آن الى آخر تلفت نحو القصر جيداً يفضح جيد الظبي وترسل نظرها الى نوافذه وابوابه لعلها ترى عيناً كانت تخافها وتخشاها فيفتضح الامر ويسوء المآل٠ فوقف الامير وجلاً مبهوتاً بيد انه لم يشعر الا وقد صار امامها كأن يداً قوية دفعته الى الدنو من ذلك المكان ثم وقف ولم يدرِ كيف يفاتحها الحديث ٠ اما هي فحين ابصرته سقط من عينيها دمعتان بل حبتا لوءلوء انحدرتا بتمهل عَلَى تينك الوجنتين الحارتين ولم تبطىء ان اسرعت نحوه وقالت له بصوت تمازجه رعشة الحزن: اتعلم يا نيكيتا كم احبك وكم قاسيت واقاسي من اجل هذا الحب ٠ الا تراني قد تركت مخدعي في مثل هذه الساعة من الليل وعرضت نفسي لغضب زوجي واسرعت لاقف بين يديك لاني سمعت كل ما دار بينك وبين الشريف من الحديث وعلمت انك مسافر الان لتقابل الملك فبالله لا تشخص الى هناك ايها الامير لان الموت يترصدك واحرباه ٠٠٠

فتنفس الامير نيكيتا الصعداء ومسح عينيه مما ترقرق فيهما من الدموع وقال: لقد كتب يا هيلانة لهذا القلب ان ينهدم رجاؤه وتفنى منه آماله فلقد اصابه من سهام اليأس ما قطع معه كل امل من الحصول على مبتغاه ... انني يا هيلانة لم اعد الى الوطن العزيز لاستقبل المسرّات والافراح كما كنت اعلل نفسي وقلبي ولكني عدتُ وقد اقفل امامي باب السعادة والهناء فصرت كارهاً الحياة متضجراً من عيشتي متعذباً من حالتي التي صرت اليها غير راض عن نفسي ولا عن دنياي بل صرتُ اذا رأيت مصيبة او فاجعةً طرحت نفسي اليها تعمداً لاتجرَّع كاس المنون غير آسف على شبابي صابراً على مضض بلواي . وهاءنذا الان ساضرب في الارض ناشداً ضالةً واحدةً الا وهي الموت فهو اخفّ وقراً من هذه الحياة عليَّ لانه ينجيني من عذاب هذه الدنيا وتقلبات هذا الدهر الغادر . والخلاصة ان صورة الدنيا باسرها قد انقلبت في عيني ولم اعد اجد فيها ما يحببها اليَّ

فلما سمعت هيلانة هذا الكلام امطرت خديها الورديين بدمع غزير وقالت : وكيف ترضى بالعذاب وانت للان في عنفوان الصبا وشرخ الشباب؟ انهم واويلاه يذيقونك الموت الزؤام

— وماذا ارجو بعد ضياع كل ما تعتزُّ به النفس ويبتهج له الفؤاد؟ اوّاه ياهيلانه يا حبيبتي لقد فقدتك الى الابد ولم يبقَ لي سبيل

الى الحظوة بجبيبة سلبت ابي واسرت قلبي وغادرتني وحيداً فريداً اتجرّع غصص الحياة المرّة واموت في اليوم الواحد الف مرّة

فلما سمعت هيلانة ذلك ذاب قلبها التياعاً وتأثراً وقالت — ان كنت لا تشفق على نفسك فاشفق عليَّ من تفديك بنفسها . اشفق على هيلانة المنكودة الحظ ... اني احبك يا نيكيتا وانت حياتي فالطف بحياتك اكراماً لي ... اناشدك الله الاّ ما عدلت عن عزمك — قالت هذا بصوت متقطع خنقته العبرات

فانفطر قلب الامير عليها تلهفاً وازداد بها تعلقاً وكاد يلبي الى ندائها لولا ان دواعي الشرف حالت دون ذلك فاجابها وعيناه مغرورقتان بالدموع — اهيلانة يا موضوع رجائي ويا بلسم شفائي تجلدي الان ولا تدعي الغم يتغلب عَلَى قلبك فلا بدّ من السفر

فصاحت هيلانة وقد زادها كلام الامير ارتياعاً — آه يا نيكيتا رفقاً بي . ولم تلبث ان خارت قواها وتخاذلت ركبتاها وكادت تسقط الى الارض وابثت هنيهة وهي تذرف العبرات السخينة وحاولت بعدئذٍ الكلام فارتج عليها . اما الامير فلم يتمالك من سكب الدموع . ولبثا حيناً على تلك الحال لا يسمع منهما سوى زفير وشهيق واخيراً طفق يقنعها بوجوب سفره ومقابلته للملك حفظاً لكرامته وذوداً عن حقوقه والا فيعد نذلاً جباناً .

وكانت هيلانة تسمع وهي مطرقة الى الارض وصدرها يكاد ينشق من شدة الحزن والاكتئاب

وكانت النجوم بادية في القبة الزرقاء والجو صافياً نقياً ليس فيه سوى قليل من الغيوم الرقيقة والقمر يسير الهوينا في طريقه وقد حجبت تلك الغيوم ضوءه بعض الشيء . ثم هب النسيم العليل فرنح معاطف الاشجار ونثر على الحبيبين احسن الازهار وبالاجمال ان كل شيء في الطبيعة كان يشعر بالراحة والسكينة خلافاً لهذين الحبيبين اللذين استولت على افئدتهما عواطف البلبال . وفيما هما كذلك حانت من نيكيتا التفاتة الى ما وراء هيلانة فابصر شبحاً قائماً وهو تارة يتحرك واخرى يجمد كالصنم .. فمن ترى هذا الشبح ؟ اهو خادم من خدم الشريف مر من هناك على غير تعمد ؟ ام ذو الشريف موروزوف بعينه قام في هذا الهزيع من الليل يستنشق النسمات البليلة فاستنشق ما لم يدر في خلده وما لم يكن وسع جلده ؟

فذعر نيكيتا ودنا الى هيلانة للمرة الاخيرة ثم اطلق لجواده العنان . اما هي فسترت بيديها عينيها الداميتين وقالت — ويلاه انا السبب في هلاكه !

الفصل التاسع عشر

القصر — دير

ان الطريق الموءدية من موسكو الى دير الثالوث الاقدس ومن هذا الى قرية اليكسندروفا كانت تمثل صورة رائعة كثيرة التنوع فهناك الناس على اختلاف هيئاتهم وطبقاتهم يسيرون فيها ذهاباً واياباً بالمقاصد شتى . فمن نبلاء يرفلون بملابس الغنى والكرامة . ومتسولين يطوفون بين تلك الجموع بما عليهم من اخلاق الثياب يلتمسون صدقات المارة . وزوار يتوافدون الى الدير المذكور لزيارة الاماكن المقدسة فيه . وتجار يتزاحمون ببضائعهم وسلعهم . وغيرهم يتاجرون بالحيوانات الداجنة والادباب . و بين الجميع جماعات برمتها من رجال الحرس يتنقلون من مكان الى اخر وقد رنحتهم الخمرة وهم ينشدون اغانيهم البذيئة باعلى الاصوات او يمتهنون عباد الله حباً بالتسلية وقتل الاوقات . وكان يمر ايضاً في تلك الطريق عصابات عديدة من اللصوص وقطاع السبيل فيرتادون هذه الامكنة للنهب والسلب حينما تمكنهم الفرص وكانوا تارة يبطشون برجال الحرس تشفياً منهم وطوراً يوقعون بالتجار وغيرهم من ذوي الاموال . غير انهم كانوا اقل ضرراً وشراسة من رجال الحرس . وكان بينهم و بين هوءلاء حرب عوان لم تخمد نارها قط

لما وصل الامير نيكيتا الى دير الثالوث الاقدس استحر بالصلاة

مبتهلاً الى الله ان يشدد عزيمته و يدرأ عنه المصائب والويلات . و كذا فعل اتباعه . ولما ودعه رئيس الدير باركه كمن يبارك شخصاً ساعياً الى الموت

ثم سار الامير من ذلك الدير وهو عرضة لتلاعب التصورات تتصرف فيه الهواجس كما تشاء فتارة يقنط و يتصور المستقبل قاتماً مظلماً بالنوائب والرزايا . وطوراً يتوقع انفراج كربته وصفاء دهره ولكنه لا يلبث ان يعود الى مخاوفه . فيجزم انه ليس من خليقة بشرية تقوى على احتمال ما احتمله هو من الغصص والمرارة فقد سلبته غير الدهر محبوبته ور بما تحرمه كل ما من شانه ان يعزي النفس ويجلب الفخر والمجد . و بقي نيكيتا خائضاً غمار هذه التأملات تساوره الهموم وتتناوبه الغموم حتى رأى جماعةً من رجال الحرس واقفين على قارعة الطريق من شانهم التعرض لكل مسافر الى القرية ليسألوه عن اسمه ومقامه وسبب شخوصه اليها . فلما دنا منهم الامير نيكيتا سأله زعيمهم باسهاب عن نفسه وقصده ولما وقف على ما اراد اخذ منه ومن ذويه الاسلحة التي معهم ثم صرفهم لشأنهم موعزاً الى اربعة اشخاص من رجاله ان يشيعوهم الى القرية

وما عتم الامير بعد ذلك ان شاهد قبب القصر الملوكي وهي متعممة باكاليل من الاشعة الذهبية التي كانت ترسلها غزالة النهار فتكسبها منظراً مدهشاً جامعاً بين اللطافة والعظمة

في هذا القصر العظيم كان الملك يوحنا الرابع يصرف اوقاته في العبادة والقنوت قاصداً بذلك راحة نفسه والتوبة عن مساوئه وآثامه. فكان في اكثر الاحيان يجد في الصلاة راحة لضميره وتعزية لقلبه بحيث صمم اخيراً على ان يجعل القصر ديراً و يتولى هو بنفسه رئاسته. فاختار من فرقة رجال الحرس ثلاثمئة رجل وهم الاكثر شراً ودعارة وفرض اليهم خدمة هذا الدير بمثابة رهبان يقومون بسائر مهام الطريقة الرهبانية وانتدب من زعمائهم الامير اثناسي فياز يمسكي لتدبير الموءونة وماليوتا سكوراتوف للنظر في شوءونه العامة وعين غيرهما في وظائف اخر ومنح الجميع عمائم و بدلات رهبانية كانوا يتزينون بها ومن تحتها الاثواب الثمينة الموشوة بالذهب والفضة. ثم سنَّ لهم قانوناً رهبانياً وحتم على الجميع السير بموجبه جاعلاً نفسه مثالاً في تتميمه. فكان يهب من نومه في منتصف الليل. وفي الساعة الرابعة صباحاً ينطلق الى قبة الاجراس ومعه ابناوءه وماليوتا سكوراتوف. فيقرعون الاجراس ايذاناً بابتداء صلاة السحر التي كان يتحتم على جميع الرهبان حضورها والذي لا يحضرها يكون عرضة للعقوبة بان يُسجن ثمانية ايام. وهذه الصلاة كانت تمتد الى الساعة السادسة او السابعة وكان الملك في اثنائها يقرأ و يرتل صارفاً اكثر الوقت في الركوع والخشوع. وفي الساعة الثامنة كانوا يجتمعون لصلاة الضحى

وفي العاشرة يجلسون الى مائدة الطعام . فيقف يوحنا في ابان الطعام ويقرأ على الاسماع شيئاً كثيراً من الارشادات التقوية والمواعظ الدينية لاكابر علماء الدين ومشاهير الوعاظ . والرهبان في خلال ذلك يأكلون من الوان الطعام الفاخرة ويشربون من معتق الخمور ما تطيب له نفوسهم . وعند فراغهم كانوا يحملون فضلات الطعام الى الساحة امام القصر ويوزعونها عَلَى جمهور المحتشدين هناك من الفقراء والمحاويج . اما رئيس الدير (الملك) فكان عادة يتناول طعامه بعد الجميع ثم يقوم فيرقد في سريره او ينطلق الى السجن لتعذيب بعض المسجونين . وفي الساعة الثامنة مساء كان الاخوة يجتمعون لصلاة المساء . وفي العاشرة يأوي يوحنا الى مخدعه فيضطجع في سريره وامامه ثلاثة من رُواة الاخبار يفكهونه بالحكايات والنوادر التي كان يسمعها قبل سباته

غير ان هذه المعيشة كان يتخللها كثير من الرياضات فكان يوحنا يشخص لزيارة الاديرة وتعهد الحصون عَلَى حدود المملكة او يخرج مع رهبانه لصيد الحيوانات البرية في الاحراش والبراري . وكان صيد الدببة احبّ اليه من كل شيء . وفي تضاعيف هذه الاعمال كان يحلّ مشاكل البلاد ولم يكن لاحد ان يجري في المملكة شيئاً بدون امره واطلاعه

ولا بُدّ من القول ان تلك السيرة الرهبانية التي رتبها الملك

يوحنا واوجبها على رهبانه لم تكن لتردعهم عن شرورهم بل كانت سبباً آخر لانغماسهم في سائر الملاهي والمفاسد وتطوحهم في الخلاعة والفجور . نعم انهم كانوا يطوون الايام ما بين صلاة ووعظ غير انهم كانوا في خلال ذلك يجرون من المآثم والمحرمات ماينذى له وجه الانسانية وتنفر منه السباع الضارية . فلم يكن همهم في هذا الدير الا الوقيعة بكل نبيل صادق والوشاية على كل كبير في الامة وايغار صدر الملك وحمله على معاقبة هذا او اغتيال ذاك بحيث صار كل الاشراف والنبلاء عرضة لسائر ضروب العذاب والنكال . حتى انهم كانوا في كثير من الاوقات ينفثون سموم الوشاية في اذن الملك وهو جاث يصلي وكان هو يصدر اوامره بالاعدام او بغيره من انواع القتل وهو مستغرق في الصلاة . هذا الى غير ذلك من الجرائم والفظائع التي لا تقع تحت حصر

الفصل العشرون

﴿ قرية اليكسندروفا ﴾

لما وصل الامير نيكيتا الى قرية اليكسندروفا رأى ان القصر او الدير منفصل عن سائر الابنية بخندق عميق تجاوره على مسافة متسعة اراض خصيبة موشاة بالوان الزهر والريحان وتحدق به روضة غناء فيها من كل فاكهة زوجان . فوقف هنيهة يتأمل القصر

وفخامة بنائه وعظمته وقد دهش بنوع خاص من البدائع والنقوش التي كانت تزين قببه واعمدته الشاهقة وحار في انواع الترف وضروب الاكاليل الذهبية والافاريز الفتانة التي لم تكن تخلو منها نافذة من نوافذه العظيمة . وبالجملة فان هذا القصر كان مما يفتن النظر ويخلب الجنان ولا سيما حينما ترسل الغزالة عليه اشعتها الذهبية فتجعله آية الغرابة ومحل الاعجاب

وكان بالقرب من القصر دار الطباعة وهي فسيحة الارجاء تحتوي فضلاً عن بيوت الالات واماكن العمل كثيراً من المخازن المختصة بالعملة الذين اكثرهم من انكلترا وجرمانيا . ويلي هذه الدار منازل لا تعد ولا تحصى وهي مختصة بالخزان ونوابهم والفراشين والطهاة والخبازين وساسة الخيل والكتبة والبيازرة والسعاة والبنائين وغيرهم كثيرين من اصحاب الاشغال وخدمة القصر

اما كنائس القرية فكانت تبدو من خلال جميع تلك المباني بعظمة وفخامة ولا سيما كنيسة السيدة التي كانت بهندامها الخارجي وبما يسطع عليها من النقوش والاشكال تفتن العين وتسبي البصر فقد كانت الصلبان الذهبية تغشي سطحها بحيث كان مركوزاً على كل قرميدة منه صليب خاص فكانت الكنيسة على هذه الصورة تبدو كانها مغطاة من جميع جهاتها بشبكة من الذهب

هذه المناظر سرت من هموم الامير نيكيتا شيئاً وطردت

عنه تلك الافكار المزعجة التي استولت عليه طول الطريق وأنسته حالته الحرجة التي هو صائر اليها. بيدَ انه لم يلبث ان تراءى له منظرٍ رهيب فذعر وعاودته المخاوف والوساوس فانه بينا كان مواصلاً سيره يتبعه اعوانه وخدمه استلفت نظره عدة مشانق منصوبة على الطريق بازاء بعضها و بجانب كل منها آلات التنكيل وجميعها مصبوغة بالصباغ الاسود الفاحم كانها تنبئ بتعاسة من تصير حالته اليها ...

عجباً من الانسان ما اوهى افكاره وما اكثر شرّه وافساده. الانسان يظمأ الى شرب دماء اخيه وابن نوعه فينصب له ما شاء تفننه واختراعه من آلات المهلكة والبوار ليجندله فيها و يسقيه كاس الحمام ... غير ان هنا موتاً شنيعاً سافلاً يحدق به العار والشنار. واي عار اكبر من ان يشرب الانسان كاس الردى من يد جلاّد زنيم او ان يعلّق ليكون عرضةً للتفرج والازدراء !واين هذا من الموت المجيد في ساحات الوغى بين بروق المرهفات ورعود المدافع القاصفات؟ ... هذه التخيلات جالت في راس الامير نيكيتا عندما شاهد تلك الالات الجهنمية وقد ارتعدت مفاصله و بان الاضطراب على وجهه الوسيم. فلحظ منه ذلك الحراس المتولون قيادته وقالوا له بلهجة الاحتقار : هذه اراجيحنا ايها الامير — اشارةً الى المشانق — و يظهر انها اعجبتك كثيراً حتى انك لا تكاد ترفع نظرك منها.

وكان ميخيتش سائراً وراء مولاه فما سمع هذا الكلام حتى ارتجفت اعضاؤه وعلت وجهه امارات الحيرة والغيظ غير انه هزّ راسه صامتاً وواصل سيره . امانيكيتا فلم ينبس ببنت شفة بل تنهد من كبد حرى وسار وهو موقن ان حبل آماله قد قطع وانه يمشي الى القبر بقدم مسرعة

الفصل الحادي والعشرون

﴿ الدب ﴾

لما وصل الامير نيكيتا وذووه الى الخندق المار ذكره ترجلوا عن خيولهم وربطوها في حلقات من الحديد مغروسة باعمدة كانت قائمة هناك لاجل هذه الغاية . وولجوا ثمت باحةً فسيحة جداً وقد اكتظت بجماهير الفقراء والتعساء وهم باطمارهم البالية بين واقف وجاثم ومضطجع وكانوا يضجون باصوات مختلطة بعضهم ينشدون باصوات كئيبة اعداداً من المزامير وآخرون يصيحون ويستغيثون كاشفين عن قروحهم الكريهة وكلومهم الشنيعة . وفي اثناء ذلك كان واحد من رجال القصر واقفاً على دكة هناك يوزع عليهم المآكل والهبات باسم الملك يوحنا . ومن وقت الى آخر كان ينتاب هذه الباحة بعض من رجال الحرس فيجلسون على ما هناك من المقاعد ويلعبون بالميسر او بغيره من الالعاب الفكاهية قصد قتل

الوقت بالقصف واللهو . وكانوا جميعهم يرفلون بالوشي والديباج

فوقف الامير نيكيتا يتأمل في هذه الخلائق المختلفة وقد اخذ الدهش منه كل مأخذ . وفيما هو كذلك استوقف بصره من رجال الحرس شابٌ يافع بسن العشرين وضيء الطلعة بشعر اشقر ينال فرعه كتفيه وقد تزيّن من الجواهر باجملها رونقاً واغلاها قيمةً وهو اشبه بفتاةٍ منه بفتىً حتى ان حركاته كلها كانت تدل علَى ما شاء الله من التخنث والخلاعة . اما رصفاؤه الحراس فلم يكونوا يقدمون له اعتباراً خاصاً غير انهم كانوا اذا دنا من زمرةٍ منهم تتفرق هذه الزمرة للحال واذا دنا من بعض الجلوس كانوا يهبون من اماكنهم و يتخلون له عنها اما اذا خاطبوه فكانوا يظهرون له كل تزلف ورقة . فالظاهر انهم كانوا يفعلون كل ذلك اما حرصاً عليه او حذراً منه

لما شاهد هذا الشاب الامير نيكيتا وخادمه ميخيتش حدجهما بنظرة كبر وخيلاء ولم يلبث ان استدعى الحراس الادلاء وسالهم عنهما واذ عرف كل ما اراد نظر شذراً الى الامير نيكيتا ثم همس الى رفاقه كلاماً جعلهم ان يغربوا في الضحك و يتفرقوا مسرعين اما هو فصعد الى مرقى هناك وطفق يتفرس في الامير ضاحكاً مستهزئاً . وكان نيكيتا يرى كل تلك الحركات وقلبه يتمزق حنقاً غير انه صبر على مضض وهو يتعجب لهذا الفساد الذي صار اليه

البلاط . وان هو لكذلك اذ رأى بغتة هياجاً وجلبة بين الفقراء
وما عتم ان ابصرهم يهرولون جهة باب الباحة افواجاً افواجاً وقد علا
ضجيجهم وصراخهم وبانت عَلَى وجوههم امائر الخوف والرعدة
وكادوا يصدمونه في اثناء هذا الهياج . فذهل الامير ووقف مبهوتاً
ولكنه لم يلبث ان اكتشف سرّ هذه الحركة الغريبة : فان دبّاً
هائلاً ظهر من الباب الاخر وهجم على الناس بهيئة مرعبة وفي اقل
من لحظة كُنست تلك الباحة ولم يبق فيها الا الامير نيكيتا وحده .
فتحفز لمنازلة الدب ولم يبدُ عَلَى وجهه الخوف بل مدّ يده الى جانبه
ليأخذ حسامه فعادت يده فارغة ولقد سها انه جُرّد من اسلحته
قبل دخوله القرية . فتنهد وقد تغير حاله وغلب عليه الوجوم
وفي تلك اللحظة سمع قهقهة ذاك الشاب وهو يقول من المرقى :
ابحث عن سلاحك جيداً ولعلك تجده . وكان ذلك اكثر مما
يستطيع نيكيتا احتماله ولا سيما في هذا الموقف الحرج الذي اضحى
فيه عاجزاً عن الدفاع فاستشاط غيظاً والتهب صدره حزناً اما
الدب فلم يمهله حتى لطمه برجله فجندله الى الارض وكاد بالاخرى
ان يقضي عليه . وكان الامير قد غاب عن الصواب ولم يعد يعي
شيئاً سوى انه شعر بيد لمسته وسمع صوتاً رخيماً يقول :
انهض ايها الامير فما عليك من باس . فرفع الامير نظره واذا به
يرى شاباً من رجال الحرس بسن السابعة عشرة وهو وسيم الوجه

بادي النشاط ينبىء منظره عن البسالة وعلو النفس وتوحي عيناه السوداوان شدة الذكاء وحدة التصور ورقة الشعور . وقد ابصر الامير في يده سيفاً مسلولاً يقطر منه الدم وفي الجانب الاخر الدب ملقى على الارض يتشحط بدمه . فايقن انه هو الذي نجاه من مخالب الدب . اما الشاب فلم يفتخر بعمله ولما تحقق ان الامير عاد الى رشده حياه وعوّل على الانصراف فاستوقفه نيكيتا ومد اليه يده فصافحه وقال — ايها الشاب قل ما اسمك حتى اذكره في كل حين شاكراً لك مروءتك وحسن صنيعك

فاجابه الشاب — مالك ولاسمي ايها الامير اني لا احبه ولا اشاء ان يذكر فاستودعك الله الان . قال هذا وانصرف كالبرق الخاطف

فدهش الامير من هذا الجواب ولم يعرف كيف يفسره . وفيما هو كذلك دنا منه ميخيتش وهو يلهث عياءً وقال له: الحمد لله على نجاتك يا مولاي . اني وحقك قد كدت اموت ارتياعاً من هول موقفك الحرج عرضة للدب وقد اجهدت نفسي وانا اجري كل الوسائل حتى يتركك الدب ويرمي اليَّ ولكن الشكر لهذا البطل المغوار الذي انقضَّ عليه كالشاهين وفي اقل من لمح البصر ارداه يختبط بدمائه . واما ذاك الفتى المتخنث فلا درَّ درُّه . لانه كان السبب في اطباق الدب عليك . ثم استطرد كلامه قائلاً

همساً — ولكن اين نحن يا مولاي افي قصر الملك ام في مرتع الوحوش ؟ . . انا لله وانا اليه راجعون

ان ملاحظة ميخيتش كانت عادلة ولكن المسكين لم يطلع بعد على القوانين الجديدة التي اضحت دستوراً للعمل والاجراء في البلاط . ان يوحنا الرابع كان يحب مصارعة الحيوانات وقد كان عنده عدد وافر من الدببة في اقفاص من الحديد . وكثيراً ما كان هو او حراسه يطلقون هذه الوحوش من اقفاصها على الشعب حباً بالتسلية ليس الا . غير ان الملك كان يعطي الهبات الوافرة لكل من يمسه اذى دب منها . اما اذا فتكت هذه الضواري باحد فكانت تلك الهبات تعطى لاهله ويقيد اسم ذاك المنكود الحظ في سجل خاص لاجل ذكره والترحم عليه في الاديرة مع سائر ضحايا سلوان الملك او غضبه . . .

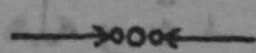
وفي اعقاب ذلك خرج من القصر رجلان من خدمة المائدة الملوكية فتقدما الى الامير نيكيتا وقالا له — ان جلالة الملك قد شاهدك من نافذة القصر ويود ان يعرف من تكون

فعرّفهما الامير بنفسه فانصرفا وعادا بعد دُنيهة وقالا — ان جلالته يسألك عن صحتك ويدعوك لمناولة الطعام على مائدته

هذه النعمة لم تبهج الامير كثيراً — فلعل يوحنا لم يطلع بعد على مناوأته لرجال الحرس في قرية ميدفيدفكا او لعله قد عرف ذلك

ولكنه يريد ان يعاقبه في اثناء الوليمة اظهاراً لجرمه وارهاباً لغيره كما جرى ذلك مراراً مع كثيرين من الامرآء والنبلاء . غير ان نيكيتا سلم امره لله وصبر

كان هذا النهار من الايام الغير العادية في قرية اليكسندروفا فان الملك كان يتجهز للشخوص الى مدينة سوزدال للتبرك من اماكنها المقدسة وقد اعلن انه يريد قبل ظعونه ان يتناول الطعام مع الحرّاس الرهبان (الثلاثمئة) وامر ان يدعى ايضاً اربعمئة من رجال الحرس وبعض الاشراف فصار جميع المدعوين اكثر من سبعمئة رجل



الفصل الثاني والعشرون

﴿ الوليمة ﴾

ان غرفة الطعام في قصر الملك عبارة عن ردهة فسيحة جداً قد انتصب فيها عدة اعمدة ملبسة بضروب الانسجة البديعة الحافلة بالنقوش الجميلة والصور الرائعة وقد بسطت بينها موائد مستطيلة في ثلاثة صفوف لكل صف عشر موائد وكل مائدة معدة لعشرين رجلاً . اما للملك وولي عهده واقرب اخصائه وندمائه فقد بسطت موائد خاصة في مؤخر الردهة . وقد أُعدّ للضيوف مقاعد مستطيلة مفروشة بالديباج الثمين وللملك عرش عالٍ

مرصع بكثير من حجارة اللؤلؤ والالماس وهو قائم على اسدين من عاج يعلو مؤخره نسر ذو رأسين وقد نشر جناحيه وهو مصفح بالذهب الخالص . وكان في وسط الردهة مائدة عظيمة جداً تحفظ عليها الآنية الفضية والذهبية المعدة لاستعمال القوم في اثناء الوليمة وهي مما يخلب الابصار ويفتن العقول . فمن جملتها اقداح ذهبية باشكال شتى بعضها يمثل دِببة واسوداً وبعضها ديوكاً وطواويس وكراكيّ وبعضها وحيد القرن وغيره من الحيوانات والطيور مما لا يقع تحت حصر . وقد صُففت هذه الآنية عَلَى المائدة المذكورة عَلَى شكل بناء واصل الى السقف

ولما ازفت الساعة دخل الردهة المذكورة رجال الحرس بألبستهم البديعة وجلسوا عَلَى مقاعدهم الخاصة . ولم يكن وقتئذٍ عَلَى الموائد شيء من الآنية الاَّ صحاف اللحم البارد وبعض الفواكه والاثمار والحوامض . وما كاد رجال الحرس يستقرّون في مقاعدهم حتى دخل خدَمة الطعام ووقفوا بازاء عرش الملك وتلاهم مدبّر المائدة وساقي الملك ثم جماعة المدعوّين من الامراء والاشراف . واخيراً عزفت الابواق وقرعت اجراس القصر ودخل الردهة الملك يوحنا الرابع يتبعه ابنه يوحنا وسائر اخصائه . وكان الملك طويل القامة مفتول العضل عريض الاكتاف وقد اتشح برداء طويل من انخر الانسجة رُصّع كله باللآلىء والاحجار الكريمة يتدلى عَلَى صدره صليبٌ

غالي الثمن وجوهرة بديعة عليها صور المسيح ووالدته و كثير من الرسل والانبياء

وما كاد الامير نيكيتا يتفرس في وجه الملك حتى دهش لنحوله وتبدل نضارته . نعم ان وجهه لم يزل جميلاً ولكنه صار متغضناً كئيباً وقد خف شعر لحيته وعارضيه . وكان ليوحنا اذ ذاك من العمر خمس وثلاثون سنة غير انه كان يظهر بسن الاربعين فما فوق . وكان هذا الملك على جانب عظيم من الذكاء . وتوقد الذهن وقوة الحجة اذا تكلم أقنع ولو كان كلامه لتأييد قساوة احكامه وفظاعة اعماله . وقد اشتهر بدهائه العجيب وسوء ظنه بكل انسان وهذا ما مهد له اراقة دماء الالوف من رجاله و كبراء دولته

ولما دخل الملك ردهة الطعام وقف جميع الحضور وقد انحنت له جباههم وانخفضت لديه رؤوسهم اما هو فاجتاز بين صفوف الموائد ولما انتهى الى عرشه ادار نظره في الحشد وحنى رأسه الى جميع الجهات ثم قرأ بصوت جهوري صلاة طويلة وبارك المائدة وجلس فجلس القوم الا الساقي وستة من خدم المائدة

بعد ذلك جاء جمهور من الخدم وقد ارتدوا سراويل من القطيفة البنفسجية فوقفوا امام الملك ثم سجدوا وخرجوا ازواجاً لاحضار الطعام ولم يلبثوا ان عادوا الى الردهة حاملين بين ايديهم على صحاف ذهبية مئتي إوزة مشوية . وبهذا ابتدأ الاكل

الفصل الثالث والعشرون

﴿ اخصاء الملك ﴾

كان الامير نيكيتا جالساً بالقرب من مائدة الملك وبازائه نفرٌ من الاشراف الذين عرف بعضهم قبل مسيره الى بلاد ليتفا ولم يكن هؤلاء الاشراف من فرقة رجال الحرَس غير انه لسموّ مكانتهم دُعوا هذه المرة لمناولة الطعام مع الملك · فأجال نيكيتا طرْفه في الملك وفي ندمائه وهو يفحصهم بنظر دقيق وقد اخذه الدهش لهذا الانقلاب الغريب الذي جرى في البلاط في مدة غيبته عن البلاد واكبر الفرق بين الملك يوحنا منذ خمس سنوات وبينه الان وهو بين هذه العصابة الشريرة · ولم يلبث ان التفت الى جاره — وهو من معارفه واصحابه — وقال : اذا صدق ظني فان ذاك الفتى النحيف العابس الجالس عن يمين الملك هو ابنه وولي عهده

— نعم هو يوحنا ابن الملك · ثم تلفّت الشريف الى كل الجهات وقال همساً : غير انه لسوء الحظ اشبه بابيه من جدّه فقد امتلأ قلبه ظلماً وقساوةً وشراً وهو في طور الحداثة فكيف به اذا شبّ على هذه المبادىء وصارت اليه مقاليد الامور ؟

ثم سأل الامير : ومن هذا الرجل الجالس الى طرف المائدة ؟ ان ملامحه الجذّابة لتعجبني واظنني شاهدته قبل الان ولكنني لا اذكر في اي مكان

اجاب الشريف : بلى فقد رأيته منذ خمس سنوات حاجباً في بلاط الملك غير انه من ذلك الحين قد ارتقى في سلم المراتب العالية وسيظل آخذاً في الارتقاء والتقدم حتى يفوق الجميع وهو الان من ارباب الشورى يعوّل عليه الملك في معضلات الامور ويدعى بوريس غودونوف وهو رجل حاذق كثير التبصر عالي الهمة حسن التدبير لا يجري عملاً الا بعد الامعان والتروّي . والحق يقال انه لم يشترك مع هؤلاء القوم بسفك الدماء ولا هو من رجال الحرس بل يجري في اعماله بمنتهى التأني والحذر فيسد اذنيه حتى لا يسمع ما يقال حوله ويغمض عينيه حتى لا يبصر ما يجري امامه وترى دم الابرياء يتفجر حوله وهو يرى كل ذلك صامتاً لانه لا يجسر ان يجهر بمقاومة ذلك لئلا يفقد ثقة الملك به ومودّته له ولا امل في الاصلاح . والخلاصة انه بسمو مداركه وسداد مسلكه قد اشرق نجمه متلألئاً في افق البلاط . . والى جانبه ذلك العريض الاكتاف الذي تراه يأكل بنهمٍ شديد دون ان يلتفت الى احد فهذا ماليوتا سكوراتوف صديق الملك وحبيبه ونديمه وجلاده وهو أشرّ القوم وادهاهم واخبثهم واحبهم الى اراقة الدماء وتدمير البلاد بل هو سبب الشقاء وعلة البلاء . . وهل عرفت ذلك الفتى الجميل الذي يسكب للملك الخمر وهو اشبه بفتاة منه بفتى ؟ فهذا ثيودور باسمانوف

ولم يكد نيكيتا ينظر الى وجه الفتى المشار اليه حتى ادرك انه هو الذي امر باطلاق الدب عليه في باحة القصر وكاد يُقضى عليه شهيد مداعبة وتخنث مثل هذا الغلام . فهزّ راسه وهو يقول همساً : وما عسى ان تكون حالتنا اذا كان بلاط الملك قد اصبح مرسحاً لمثل هوءلاء الغلمان الملاح ومقراً لسائر انواع الشرور والمفاسد والآثام . ثم أنّ انين الاسف وقال : هي مشيئة الله فمن يعارضها

ثم عاد الشريف الى كلامه فقال : اما الملك فقد اختص هذا الغلام بحبه المفرط حتى انه لا يقدر ان يعيش بدونه . . وانظر ايها الامير الى ذاك الرجل الذي تراه يتبسم لكل حركة . فهو الكسي باسمانوف والد ثيودور . . . وبقربه فاسيلي غريازنوي . وفي تلك الجهة الاب ليفكي رئيس دير العجائب فقد اهمل واجباته الدينية وانخرط مع هذه الزمرة منهمكاً في الملذّات والمسرّات غير خائف من الله

كان الشريف يتكلم واصفاً ندماء الملك والامير مصغٍ لحديثه يسمع ويعجب من هذه الحالة وهو يختلس النظرات من حين الى آخر الى جهة الملك وندمائه فابصر بينهم رجلاً طويل القامة له من العمر نحو الثلاثين تظهر علَى وجهه علائم الغم والاضطراب ولم يره نيكيتا قد اكل شيئاً بل كان يشرب من الخمور كأْساً بعد آخر

وهو تارةً يسند رأسه بيديه وطوراً ينتصب على المقعد وعيناه تقدحان شراراً . ولما كان الشريف لم يذكر عنه شيئاً سأله نيكيتا ان يعرّفه به فقال : عجباً او لا تعرفه ايها الامير ؟ فهو احد الامراء غير انه بانخراطه في سلك رجال الحرس قد فقد شرفه وذمته . فهذا هو الامير اثاسي فيازيمسكي ، وهو من يوم دخل الغرام قلبه أُغشي على بصره وعدم رشده حتى صار الملك يخشى عليه من الجنون فقد سباه الحبُّ وخطف عقله وبصره وافقده سائر عواطف الرقة وامثال الشرف ... ثم اراد الشريف ان يسهب للامير في الموضوع ولكنه صمت لان احد خدَم المائدة قد دنا منهما ووقف امام الامير نيكيتا وبيده صحفة من الاكل وقال : ايها الامير ان الملك العظيم قد اختصك بصحفة من مائدته

فنهض الامير للحال وتبعاً للترتيب الجاري في مثل هذه الحال انحنى للملك . حينئذٍ وقف كل الجالسين مع الامير الى مائدة واحدة وانحنوا له اشارةً الى انهم يهنئونه بنعمة الملك اما هو فشكر كلاًّ منهم بانحناء خاصّ . وفي اثناء ذلك عاد الخادم الى الملك وقال وهو مُنحنٍ : ايها الملك العظيم ان نيكيتا قد اخذ الصحفة بمنتهى الخضوع

الفصل الرابع والعشرون

﴿ كأس الخمر ﴾

لما فرغ الحضور من اكل الاوزّ خرج الخدم من الردهة ازواجاً ولم يلبثوا ان عادوا حاملين ثلاثمئة طاووس مشوي وتلا ذلك اصناف المعجنات والقطائف المحشوَّة لحماً وجبناً وكانت الخمور وسائر المشروبات تقدم في اثناء ذلك انواعاً شتى بحيث لم يكن احد من المدعوين يطلب شيئاً ولا يجده امامه ·

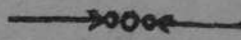
وكان في جملة الجلوس الى مائدة الامير نيكيتا شريف طاعن في السن وهو من الاسر العريقة وقد سمع الامير من جلسائه ان الملك ناقم عليه وهو يترقب فرصة ليذيقه كاس المنون · ففي اثناء الوليمة والقوم لاهون بمسرّاتهم وانسهم جاء ثيودور باسمانوف ساقي الملك وبيده كاس خمر فناولها للشريف المذكور وقال — ايها الشريف ان الملك العظيم قد بعث اليك بهذه الكاس · فنهض الشيخ وانحنى للملك ثم شرب الكاس · اما ثيودور فعاد الى الملك وقال : ان الشريف باسيل قد شرب الكاس بوافر الاحترام والخضوع · وعندئذٍ وقف جلساء الشريف وحيّوه بخفض الرؤوس ولما عزم هو على مبادلتهم التحية لم يقوَ على النهوض وقد عسر تنفسه واختلج جسمه واصطكت ركبتاه واحمرّت عيناه وامتقع لونه وسقط على الارض صريعاً · وكان الملك يراقبه كأنه

توقع هذه النتيجة . فلما سقط الشريف قال الملك : ان باسيل سكران فاحملوه خارجاً . فسكت جميع الحضور واجفل الاشراف وقد ارتعدت فرائصهم وارتخت اوصالهم واستولت عليهم الحيرة والجمود . اما الامير نيكيتا فتنهد تنهداً عميقاً وقد اخذه الدهش الشديد وهاله هذا الامر الفظيع وقال في نفسه : « ألا ينتظرني مثل هذا ؟ »

وفي اثناء ذلك حُملت جثة الشيخ الشريف الى الخارج وعاد القوم الى ما كانوا عليه كأنه لم يجرِ شيء او كأنَّ هذا الحادث امر اعتياديّ لا يُعبأ به ولم يضطرب له الاَّ الاشراف الذين ليسوا من فرقة رجال الحرس . ثم صدحت الابواق وقرعت الاجراس فخرج الخدم وبدّلوا اثوابهم باحسن منها وعادوا وقد حملوا الكراكيّ المشويّة والادياك المحشوّة والفراريج المقلية والاسماك والطيور والارانب والقنابر والزرزور وغير ذلك من الوان المأكولات البديعة التي يعجز القلم عن وصفها . وكانت الاصوات في خلال ذلك قد امتزجت وعلا الضحك ودبّت الخمرة في الرؤوس واصبح اكثر القوم سكارى . وكان الامير نيكيتا يقلّب نظره في وجوه الجميع وهو مستغرب هذه الحالة السافلة التي صار اليها بلاط الملك . وان هو لكذلك حانت التفاتة منه الى احدى زوايا الردهة فرأى شاباً في لباس رجال الحرس وقد أسند رأسه بيديه وهو غائص في تأملاته لا يشارك القوم في هرجهم . وما حدّق

الامير فيه طويلاً حتى عرف انهُ هو الشاب الذي نجاه من مخالب الدب . وكان هذا الشاب طويل القامة ابيض اللون ازرق العينين تنبئان عن نباهة وذكاء وقد تبين الامير في نفسه انكساراً وفي هيئته كمداً يحاول ان يخفيه فازدادت رغبته في التعرُّف به واستطلاع كنه احواله . فسأل عنه جلساءه الاشراف فلم يتمكن احدٌ من معرفة اسمه فهمَّ ان يسأل عنه احد الخدم المارّين بازائه فاستوقفه عن الكلام حركة بجانبه فالتفت واذا بساقي الملك يقول له : ايها الامير نيكيتا ان الملك العظيم قد بعث اليك بهذه الكأس

فذُعر الامير لذلك ولا سيما لانه رأى وراءه ثيودور باسمانوف يتبسم تبسم الازدراء . فنزلت ضبابة كثيفة علَى عينيه وايقن بالهلاك ولكنه تناول الكاس وحنى راسه للملك ثم احتساها جرعةً واحدة ووقف ينتظر المنية وقد نظر اليه الجميع مترقبين غروب شمس حياته . غير ان الامير لم يشعر الاَّ بدبيب الخمرة في عروقه واحسَّ بحرارتها المنعشة في كل بدنه وقد تورَّدت وجنتاه واشتدت اعصابه فاطمأنَّ روعه وابتهج في داخله وقال في نفسه « لعلَّ الملك قد صفح عني او انه لم يعلم بعد بصنيعي مع رجال حرسه »



الفصل الخامس والعشرون

﴿ماليوتا سكوراتوف﴾

مرَّ على الجلوس اربع ساعات متوالية وهم يتناولون الاطعمة الطيبة والمشروبات الفاخرة ومع هذا فلم تنتهِ الوليمة بل كان قد بقي منها بقدر ما مضى . ولما فرغ الجميع من الاكل رفع الخدَم عن الموائد الملح والفلفل والخل وجميع صحاف اللحوم والاسماك وخرجوا من الردهة بترتيبهم ولم يلبثوا ان عادوا وقد بدلوا اثوابهم بثياب جديدة من المخمل الابيض الموشى بالذهب وجاءوا هذه المرة وقد حملوا الى الردهة الاثمار والفواكه والحلويات اشكالاً تحير العقول وتشبع النظر وكان القوم قد امتلأوا واكتظت نفوسهم واستندوا الى الموائد امتلاء وعياء

اما الملك فلم يأكل او يشرب في اثناء الوليمة الاَّ قليلاً ولكنه كان يتكلم كثيراً مع ندمائه ويمازحهم ومثل ذلك فعل بوريس غودونوف فانه ظلَّ الى آخر الوليمة متيقظاً ولم تتغير هيئته قط فكان يشغل الملك والندماء باحاديث طلية ونوادر نفيسة وكان كلما نظر الى وجوه السكارى من الحضور يتبسم تبسماً لطيفاً اما يوحنا — ابن الملك وولي عهده — فقد شرب كثيراً واكل قليلاً وكان صامتاً يسمع احاديث القوم ويقاطعهم في بعض الاحيان او يبتدر بعضهم بكلمة جارحة في معرض المزح وقد اكثر من ذلك على

الخصوص مع ماليوتا سكوراتوف مع ان هذا الرجل لم يكن يحتمل مثل هذه الاهانات فكان كلما تحرّش به ابن الملك ينظر اليه شذراً كأنه يتوعدهُ باشرّ الاهوال

كان هذا الرجل ضخم الجثة كبير الراس وحشيّ الملامح وهو على ذلك شرس الاخلاق سيّء الظن على جانب عظيم من الطمع وحب الذات وقد مات ضميره فصار يستسهل للحصول على مبتغاه كل ضروب الفظائع والمحارم ولم يكن ليردعه عن ذلك رادع وهو منذ انخراطه في سلك رجال الحرس لا يكاد يمرّ به يوم الاَّ ويوقع بفرقة من الابرياء وهو في الظاهر يروم خدمة الملك ومصلحة المملكة وفي الباطن يروم ادراك وطر طالما حنت اليه نفسه . ولم يمضِ عليه في ذلك الاَّ مدة قصيرة حتى بدّل كل عواطف الرقة والشفقة وسائر الخلال الانسانية بالشراسة والتوحش فصار دأبه الفتك والاغتيال وركوب الفظائع والمنكرات وهو ابداً ظمآن الى ارتشاف الدماء يُسرّ بقبض الارواح كابالسة الجحيم . وقد اشتهر بخشه ولؤمه حتى صار مضرب المثل ترتعد رجال روسيا من ذكر اسمه وهو اتبع للملك من ظله فيراقب ما حوله بمنتهى الدقة ولا تفوته فائتة لانه يتنسم الاخبار من كل ريح وقد بثّ رجاله لكشف غوامض الامور والتوصل الى الاسرار الخفية

وكان له ابن وحيد يدعى مكسيم وهو فتىً جميل الصورة

دمث الاخلاق لم يحذُ حذو ابيه في التوحش والشر بل كان ينظر
الى اعماله الجهنمية بمنتهى الحزن والاسف وكان يرجو ان يتخلص
يوماً ما من جميع هذه المشاهد الفظيعة . وقد دخل هذا الفتى في
سلك رجال الحرس عملاً بارادة والده لانه وان كان قد ابغض
اباه لقساوته ولؤمه الا انه في الوقت نفسه كان يطيعه ويحترمه .
اما ماليوتا والده فكان يحبه ويرغب في ترقيته واعلاء شأنه توصلاً
الى نيل غايته ليس الاّ . وذلك ان هذا الرجل لم يكن عريق
الحسب واسع الجاه فصار همه الوحيد ان يجعل اسمه بين اسماء
اعاظم النبلاء ويكسب اسرته اسماً شهيراً وثروة طائلةً فكان ينتقم
من كل ذي ثروةٍ طمعاً في الاستيلاء على ثروته ويبتاع بذلك
بعض مراتب الشرف له ولابنه . ولم يلبث ان صار سفك الدماء
احب عمل لديه فلم يكن ليفتكر بشيء غير ذلك . وقد اورد التاريخ
في بعض تفاصيله ان ماليوتا سكوراتوف كان بعد قتل المحكوم
عليهم يذهب بنفسه ويقطع اجسامهم بحسامه ويطرح تلك القطع
للكلاب

هذا هو الرجل الذي تحرّش به ابن الملك قصد المداعبة
والمزاح ولم يعلم ان ماليوتا لا يصبر على الضيم بل يغتنم الفرص لينهش
اعداءه وينكل بهم . ومما زاد في حنقه انه في هذا النهار قُبيل
حضور الملك الى ردهة الطعام كان قد جاءه فانحنى لديه وذكر

له اخلاصه في الخدمة وعدّد امامه مآثره الطيبة وانه لم ينل مع كل ذلك شيئاً يذكر ولم يظفر في كل ما فعل بجانب من امانيه ورغائبه والتمس منه اخيراً ان يكافئه بقبعة الاشراف ترفيعاً له ولاسرته . فزجره الملك ولم يلبِّ مبتغاه . وها ان ابن الملك الان قد ذكره علناً بهذا الطلب وهنأه بالخيبة والفشل وهزأ به . فتغير وجه ماليوتا وقد تأججت في صدره نيران الحقد والضغينة ولمع في عينيه برق لانتقام ولكنه تمالك نفسه وكظم غيظه

الفصل السادس والعشرون

﴿ الامير اثناسي فيازيمسكي ﴾

وكان الملك قد لحظ الغيظ في وجه ماليوتاسكوراتوف فبادر الى تحويل مجرى الحديث وتحوّل بنظره الى الامير اثناسي فيازيمسكي فرآه مقطب الحاجبين عابس الوجه قليل الضحك لاهياً بافكاره لا ينظر الى احد ولا يسمع احداً فقال له مازحاً : ما لي اراك يا اثناسي صامتاً مطرقاً كأنك حاضر الجسد غائب العقل . أإلى هذا الحد بلغ منك الغرام حتى كاد يفقدك رشادك ؟ أو ثقلت عليك خدمة الملك في جملة حرسه حتى مللتَ الاقامة بيننا ؟

فانتبه الامير كمن هبَّ من حلم واراد الكلام فقاطعه يوحنا وليُّ العهد وقال للملك : ان الامير يا ابتِ ليس حارساً بل هو

يتنهد كاحدى الحسان فلو امرته ان يرتدي ثوباً نسائياً او يحلق لحيته مثل ثيودور باسمانوف او يكون مع جماعة المغنّين لكان اكثر طرباً مما هو الان ولكانت آلات الغناء أليق به من الحسام

فنظر الامير الى وليّ العهد بملء الازدراء ثم قال وهو يتلذع غضباً: لو لم تكن يا وليّ العهد في سن الحلم ولم تكن ابن الملك لدعوتك على هذا الكلام الى الخروج من هذا المكان حيث يمكننا ان نمتحن مَن من الاثنين يليق به حمل الحسام ومن آلات الغناء

فزجره الملك عند هذا الكلام وقال بغضب: لا تنسَ يا اثناسي انك في حضرة الملك

فاجاب الامير — عفواً يا سيدي الملك فان كنتُ مذنباً بشيء فليحلّ عليّ عقابك لان حياتي هي بين يديك اما ولي العهد فلن اسمح له بامتهاني

فقال الملك متلطفاً: لم يحن بعد وقت عقابك لانك في ريعان الشباب ولك في خدمتي الشان المحمود . اما الان فاسمع لاروي لك حكاية بديعة حكاها لي في ليلة أمس فيلكا الاعمى فاسمع وافهم المغزى قال: كان في احدى المدن شاب جميل الصورة اسمه اليكسي . فابصر في ذات يوم اميرة بديعة المحاسن فاحبها ثم اشتدّ هيامه بها حتى لم يعد يطيق صبراً اما هي فلم تمل اليه لانها كانت ذات بعل ولما رأى اليكسي ان جميع الوسائل التي استعملها قد ذهبت عبثاً

دعا اثني عشر رجلاً من اخلص اعوانه ورفاقه وهجم بهم على منزل الاميرة فاختطفها وهرب بها . فاعجبت الاميرة بشدة محبته و بسالته وقالت له : انك قد قمت بواجب المحبة وسبيتني بحد الحسام فانا لك ما حييت وانت حياتي ونوري وهنائي وسروري

كان الملك يتكلم والامير اثناسي يسمع بمنتهى الاصغاء وقد ابتسمت شفتاه وجال الفرح في عينيه . ولما فرغ الملك من هذه الحكاية قال : اعلم يا اثناسي باني سانطلق غداً او بعد الغد الى مدينة سوزدال لزيارة مقدسة فانطلق انت الى موسكو وزر الشريف مورزوف واسأله عن صحته وقل له انك مرسل من قبلي لتبلغه عفوي عنه ... وخذ معك من رجال الحرس جماعة كبيرة

فازداد الامير اثناسي طرباً وابرقت عيناه استبشاراً . وكان الامير نيكيتا في هذه اللحظة قد مدّ بصره الى الامير اثناسي فرأى وجهه قد طفح بغتة سروراً وهناء ولم يكن هو قد سمع شيئاً مما دار بينه وبين الملك ولو عرف نيكيتا السبب الذي اضحك الامير اثناسي وهزّه طرباً لوثب من ساعته واختطف من الجدار سيفاً حاداً فاطار رأس اثناسي عن بدنه . ولو فعل نيكيتا ذلك لكان هو ايضاً خسر حياته .. بيد ان آلات الطرب واجراس القصر وجلبة القوم قد صمّت اذنيه فلم يتمكن من معرفة سبب سرور الامير اثناسي فباز يمسكي

الفصل السابع والعشرون

﴿متى خومياك﴾

اخيراً وقف الملك فاهتزت جوانب الردهة وقام الجميع وصاروا يدنون منه وهو يوزّع عليهم بيده بعض الاثمار الجافة · وفي هذا الوقت انسلَّ الى ردهة الطعام احدُ رجال الحرس ولم يكن في جملة الحضور فتغلغل بين الجميع حتى دنا من ماليوتا سكوراتوف وهمس في اذنه كلاماً · فانتفض ماليوتا وقد تطاير الشرر من عينيه ولم يخف ذلك عَلَى الملك فسأله حقيقة الامر فصاح ماليوتا : خيانةٌ يا مولاي ! مكيدة عظيمة يدبرها بعض الاوغاد لاغتيال عظمتك

فلما سمع الملك ذلك شعر كانَّ سهماً اخترق قلبه اما الحضور فاستولى عليهم الصمت ووقفوا كالمأخوذين · فقال ماليوتا : لقد ارسلتُ بالامس بعض رجال الحرس ليتنسموا اخبار العاصمة و يتفقدوا احوال الاهلين فيها فاعترضهم في اثناء تطوافهم احد الشرفاء وهجم عليهم بالخيل والرجل واثخن فيهم وكاد يقتل خادمي متى خومياك وها هو واقف عند الباب يكاد يسقط عياءً من شدة ما احتمله من العذاب · فهل تأمر باستدعائه ؟

فأجال الملك طرفه في رجال الحرس فرأى علائم الغيظ وحب الانتقام بادية عَلَى الجميع فهزَّ راسه متوعداً وامر باستدعاء متى المذكور · ولم يكن الأكوري الزناد حتى دخل الردهة متى خومياك

معصوب الراس وهو يئن ويتوجع ولما دنا من الملك خرّ عند قدميه ملتمساً الاذن بالكلام . فبهت الجميع لهذا المشهد وقد جمدت العيون وتقلصت الشفاه . فوجه الملك خطابه الى متى قائلاً : من فعل بك هكذا ؟ تكلم بصراحة

فقال متى : رحماك يا سيدي الملك فانا لا اعرف اسم معذبي فانه ابى ان يذكر لي اسمه ولكني اقول انه كاد يختطف انفاسي . وذلك اننا في حال دخولنا الى قرية ميدفيد فكا هجم علينا احد الاشراف او الامراء ومعه كثيرٌ من خدمه واعوانه فسدّوا علينا الطرق واعملوا فينا الضرب وقد قتلوا نفراً منا واسروا الباقين واراد زعيمهم ان يشنقنا . وقد كان معنا اثنان من قطاع الطريق كنا اسرناهما لتأديبهما فأمر باطلاقهما

ثم سكت متى وأصلح العصابة على رأسه فبان من تحتها آثار الدم . فجعل الحضور ينظر كلٌّ منكم في الآخر مستغرباً هذا الحادث الذي لم يسمع بمثله . اما الملك فارتاب بكلام متى وقال : هذا لا يمكن ان يكون له نصيب من الصحة ولعلك تهذي يا فتى

فاجاب متى : حاشا ان اكون كاذباً يا مولاي وانا لم اصف لجلالتك الاّ بعض ما اصابنا من اولئك الاشقياء واني مستعدٌ ان أُقسم بين يديك واجعل رأسي كفيلاً لصدق كلامي

فقال الملك — قلتَ ان الشريف المجهول اراد ان يشنقكم

فلماذا لم يفعل ذلك ؟

اجاب — لا اعلم سبب عدوله ولكنه عوضاً عن ذلك امر رجاله فجلدونا شديداً حتى تفجّر الدم من ابداننا

فأجفل الحضور عند هذا الكلام وازدادوا انذهالاً اما الملك فتململ في كرسيه كمن لدغته عقرب ثم حدّق ببصره الى متى وقال: وكم رجلاً كنتم ؟

فقال : خمسين رجلاً وأنا

فقال الملك : وكم كان عددهم ؟

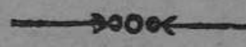
اجاب : نحو العشرين او الثلاثين

فقطب الملك حاجبيه وعبس في وجه متى ثم قال : فكيف اغتالوكم وهم اقل عدداً منكم ؟ فهلا غُلّت ايديكم او يبست سواعدكم ؟ ومَن هو هذا الشريف الذي يسطو على رجال الحرس في رائعة النهار ؟ ان هذا من اعجب العجب وهل زعم حضرة الشريف المشار اليه ان يقاوم سلطتي و يفتك برجال حرسي ؟ لعمري ان هذا من المضحكات . والان فاني آمرك بتسمية هذا الرجل والاّ فاستعدّ لعقوبتي لانك تكون حينئذٍ كاذباً

فقال متى : يعلم الله ايها الملك اني صادق وليس قولي مما يحتمل الشك والريب وها ان جميع رفاقي مستعدون لاداء الشهادة . —

قال متى ذلك وادار نظره في رجال الحرس كأنه يستغيث بهم

ليشهدوا له . وان هو لكذلك التقى نظره بنظر الامير نيكيتا . فصفق طرباً وقد اتقدت عيناه بنار الانتقام وقال الملك : اذا كنتَ يا مولاي في ريبة من كلامي وتريد ان تعرف الشخص الذي دهمنا ونكل بنا فمر هذا الشريف ان يذكر اسمه (واشار الى الامير نيكيتا) فتحوّلت جميع الانظار الى الامير نيكيتا وحدّق الملك به دون ان ينبس بكلمة . اما الامير فكان واقفاً وقد وضع يديه عَلَى ظهر كرسيه وجمد كأنه من حجر



الفصل الثامن والعشرون

﴿ المحاكمة ﴾

ولما سكنت كل حركة قال الملك : تقدم يا نيكيتا وقف للمحاكمة . فهل تعرف هذا الشاب ؟ (مشيراً الى متى خومياك)

فاجاب الامير : نعم اعرفه

فقال الملك : وهل هجمتَ عليه برجالك ؟

فاجاب الامير : ولكنه هو كان البادىء في الهجوم ايها الملك فانه مع رفاقه قد هجموا عَلَى قرية ميدفيدفكا . .

فقاطعه متى قائلاً : لا تثق بكلامه يا سيدي الملك بل سل ان شئت سائر رجال الحرَس الذين كانوا برفقتي تتضح لك الحقيقة مجرّدة عن كل تمويه

فنظر نيكيتا الى متى بازدراء وقال للملك : لا اكتم هجومي عَلَى هذا الانسان فقد هجمتُ عليه وأمرتُ بجلده وتأديبه مع سائر رفاقه

فقال الملك : وهل عرفتَ حين هجومك عليهم انهم رجال حرسي ؟

— كلاً

— وهل انبأوك بوظيفتهم حينما بادرت الى شنقهم ؟

— نعم انبأوني

— ولماذا تركتهم اذ ذاك ؟

— تركتهم لارفع امرهم الى القضاء

— ولماذا لم تدعهم وشأنهم بادىء بدء وترفع الشكوى عليهم لاولياء الامر

فوجم الامير عن الجواب . اما الملك فنظر اليه نظرة من يريد ان يستشف خبايا القلوب من خلال الوجوه ثم قال : لم يكن تركك اياهم بقصد ان تشكوهم للقضاء بل لانهم عرّفوك بحالهم ومع هذا فانتَ بعد اطلاعك عَلَى ذلك امرتَ رجالك بضربهم

فقال الامير : ايها الملك ...

فقاطعه الملك قائلاً : حسبك فقد عرفت كل شيء .. ثم وجّه خطابه الى اخصائه وندمائه فقال : اما وقد سمعتم هذا الاقرار

فقولوا لي — ماذا يستحق الامير نيكيتا جزاء ما جنته يداه ؟ تكلموا فاني راغبٌ في سماع حكم كلٍّ منكم

ثم أجال نظره في الجميع وهو يرجو ان يسمع منهم الحكم المبرم على الامير . وكان منظره مخيفاً وعيناه تنبئان بانه قد صمّم في قلبه على اعدام الامير والويل لمن ينحطّ حكمه عن ذلك . ولما لم يسمع من احدٍ كلمةً رفع صوته قائلاً : تكلموا ايها الناس وليبدِ كلٌّ منكم رأيه بخصوص معاقبة نيكيتا . فاي عقاب يستوجب ؟

اجاب وليّ العهد : انه يستوجب الموت

وقال ماليوتا سكوراتوف وفاسيلي غريازنوي والاب ليفكي وثيودور باسمانوف وابوه : نعم فانه قد استوجب الموت

فقال الملك : فليشرب اذاً كاس المنية لان من اخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ والآن خذوه الى موضع القطع وليحلّ عليه العقاب الذي استحقه

فانحنى الامير نيكيتا امام الملك وخرج ثَمَّ من الردهة صامتاً وقد احدق به نفرٌ ممن يناط بهم عادة مثل هذا الامر وتبعهم كثيرون ليشاهدوا المعاقبة . اما الملك فالتفت الى رجال الحرس وخاطبهم والجلال يرافق كلماته : كيف رأيتم حكمي ايها الاخوة ؟ أعادلٌ هو ؟

فارتفعت اصوات رجال الحرس الاقربين الى الملك : عادلٌ !

نعم هو عادل !

وتلتها اصوات الابعدين: هو العدل بعينه!

غير ان واحداً من الحضور قال بصوت جهوري : كلاَّ فانه غير عادل

وما سُمع هذا الكلام حتى ارتجف جميع رجال الحرس واخذوا يتساءلون : من قال هذا ؟ من قال ان حكم الملك غير عادل ؟ . . وكان الجميع قد اخذتهم الدهشة وبدت في وجوههم علامات الغضب الاَّ ماليوتا سكوراتوف الذي كان يبتهج لكل مصيبة فانه لم يتزحزح هذه المرة من مكانه وقد اصفرَّ وجهه اصفراراً اشبه باصفرار الموت . اما الملك فارتعد جسمه وصعد الدم الى وجهه وقال وقد ابرقت عيناه من الغيظ: من قال ان حكمي غير عادل ؟ فالذي قال هذا فلينفصل عن الجماعة لاراه

فقال له ماليوتا سكوراتوف وهو يرتعد خوفاً : يامولاي الملك ان بين عبيدك الان كثيرين قد لعبت الخمرة برؤوسهم فأفقدتهم عقولهم وصاروا ينطقون ما لا يفهمون . فلا تأمر يامولاي بالبحث عن هذا الصعلوك الذي لا يعي الان ما يقول ولا شك انه متى طارت سورة السكر من دماغه وعاد الى رشده فلا يصدّق ما قال

فنظر الملك الى ماليوتا شذراً وقال : كيف صرتَ وديعاً الان ياهذا افاراد ماليوتا ان يتكلم غير ان حادثاً فاجأه فسكت وهو

يغصُّ بريقه . وذلك ان ابنه مكسيم قد اخترق الجمع ووقف امام الملك
هذا هو الشاب الذي خلص الامير نيكيتا من مخالب الدب .
فلما رآه الملك ازداد ذهولاً وامتقاعاً فتفرّس فيه ملياً ثم قال : او
انتَ الذي اعترضت عَلَى حكمي ؟ فقل الان ماذا رأيت فيه من
الخلل والمغايرة ؟

فقال مكسيم برباطة جأش : انك ايها الملك قد حكمت عَلَى
الامير نيكيتا دون ان تسمع دعواه بتمامها ولم تسأله عن السبب الذي
حمله عَلَى معاقبة متى خومياك

فقال ماليوتا ابوه : لا تسمع له يا سيدي الملك فانه سكران
لا يعلم ماذا يقول . ثم قال لابنه : انصرف ايها الاحمق ولا تعد الى
هنا الا صاحياً

فقال ولي العهد : لقد وهم ماليوتا فان مكسيم لم يشرب مسكراً
قط وقد راقبته في اثناء الوليمة فلم اره تناول شيئاً

فنظر ماليوتا الى ولي العهد وهو يكاد يجنّ غيظاً وحنقاً اما
ابن الملك فلم يبال به . وكان الملك في اثناء ذلك يتأمل تارةً في
ماليوتا وحيناً في ابنه وهو يهزُّ رأسه وقد أخذ منه كلام مكسيم كل
مأخذ من العجب فقال متبسماً : نعم ان مكسيم لم يشرب شيئاً في
خلال الوليمة فلعله سئم صحبتنا ولا يريد ان تطول خدمته في فرقة
رجال الحرس

الفصل التاسع والعشرون

﴿ بين الموت والحياة ﴾

كان بوريس غودونوف في اثناء الحديث السابق الذكر لا يرفع نظره من الملك وكان قد درس منذ زمان طويل امارات وجهه فلم يكن يخفى عليه شيء منها . فاغتنم فرصة انشغال الملك بمحادثة ماليوتا وابنه وخرج من الردهة دون ان يشعر به احد

وكان ماليوتا لما سمع كلام الملك قد خرَّ عند قدميه وقال : رحماك يا مولاي فأنت اكرم من عفا واعدل من حكم فلا تخيب رجائي ولا تكسرْ قلبي بل ارحمني واعفُ عن ابني ولا تعاقبه على طيشه وتهوُّره . . ففي هذا الصباح جئتك يا سيدي ملتمساً ان تمنحني لقب الاشراف . فاين كان عقلي اذ ذاك لان ليس لمثلي هذه النعمة . فانسَ ايها الملك تحتي ومُرْ ان ينزع عني ردائي الذهبي واجعلني في احطّ درجات الهوان فقط اصفح لمكسيم زلته . فهو فتى جاهل احمق لا يدري ماذا يقول . واذا صممت على معاقبته فلتحلّ نقمتك عليَّ لاني تغافلت عنه حتى ان الشراب اعمى بصيرته . وانا مستعدٌ ان اقود نفسي الى محل النكال بدلاً من ابني

كان ماليوتا يتكلم بهذا وهو يرتعد ويرتجف وقد ارتسمت في وجهه علائم اليأس والقنوط اما الملك فنظر اليه نظرة طويلة ثم تبسم وقال : لا انت ولا ابنك تستوجبان العقاب فانَّ مكسيم

قد نطق بالصواب

فحار ماليوتا في امره وهو يظن ان الملك يزدري به ثم قال :
ماذا تقول يا مولاي ? بالله الاَّ ما افرجت كربتي بالعفو الصريح

فقال الملك بصوت مرتفع : خفف عنك يا هذا فان مكسيم لم يقل الاَّ الصواب والحق ولقد اسرعت في حكمي على الامير نيكيتا اذ لا يُعقل انه فعل ما فعل من غير سبب موجب . فانا اعرف هذا الامير قبل سفره الى بلاد ليتفا وكنتُ علَى الدوام احبه واثق بامانته لانه نعم الرجل . ثم التفت الى غر يازنوي وثيودور باسمانوف ووالده وقال وقد برق الغضب في عينيه : وقد جرى كل ذلك بسببكم ايها الانذال لانكم علَى الدوام توغرون صدري باغتيابكم ومفاسدكم وتنظرون الى الدم المسفوك بمسرة وارتياح . ولم تكفكم الفظائع السابقة حتى حملتموني الان علَى اعدام امير باسل لا تساوونه كلكم في الخدمة الخالصة وشرف الذات . والان ما بالكم وقفتم تنظرون اليَّ كالمعتوهين ? اسرعوا واوقفوا العقاب . ولكن لا . لا تذهبوا فقد قضي الامر ولات ساعة مندم . ولكنني ساقتص منكم جميعاً انتقاماً لدمه المهدور

وكان بوريس غودونوف قد عاد في هذه الدقيقة الى الردهة وسمع كلام الملك فتقدم اليه وقال : لا تقل قد قُضي الامر يا مولاي فان الامير نيكيتا حيٌّ للان . وذلك اني لما كنتُ اراقب امارات

وجهك من هنيهة رأيت سيماء العفو ظاهرة عليه فأسرعتُ الى حيث أُخذ الامير فرأيته قد علا محلّ الاعدام وكان الجلاّد قد شهر سيفه وعوّل على ان يهوي به عَلَى عنقه فاوقفته وامرته ان ينتظر بلاغاً آخر من جلالتك

فلما سمع الملك ذلك سُرّي عنه ما كان قد استولى عليه من الغم الشديد فاشرق وجهه سروراً وقال : نعما ما فعلت يا بوريس فهلمّ اليّ يا خادمي الامين لانك انت وحدك تعرف قلبي . نعم انت فقط تعرف اني اسفك الدم ليس لاجل التسلية بل لقمع كل مكيدة في المملكة فتقدم اليّ لاعانقك ايها الشهم الوفي

فدنا منه بوريس وانحنى امامه بكامل الوقار فقبله الملك في رأسه ثم التفت الى مكسيم وقال : ادنُ انت ايضاً مني يا مكسيم فاكافئك عَلَى سامي افكارك وشريف عواطفك . فجثا مكسيم الى الارض ثم لثم يد الملك وتأخر قليلاً . فقال له الملك : سأجري عليك مذ الان المرتبات الوافية وارفعك الى المقامات العلية واغمرك بالانعامات الطائلة وأجعلك في رتبة زعماء الحرس

فقال مكسيم — عفواً يا سيدي الملك فانا لا استحق شيئاً من انعاماتك . انما اسألك ان ترسلني الى بلاد ليتفا او التتر لاحارب اعداء المملكة

فذُعر الملك لهذا الكلام وقال له : اوَ ترفض مثل هذه

النعمة التي احببتُ ان انعم بها عليك ؟ او هل سئمت المعيشة فى البلاط حتى صرتَ تحنُّ الى خوض المعامع؟

— نعم ياسيدي

— وما سبب ذلك؟

فتداخل ماليوتا في الحديث وابتدر الملك قائلاً : ان السرور قد هزَّه يا مولاي حتى لعثمه فكاد يفقد عقله · فهو يريد ان يقول لك ان الواجب يقضي عليه بخدمتك فما عليك سوى الامر وما عليه سوى الطاعة ولو بسفك دمه · ولا سيما وقد غمرته بنعمة جديدة فاحبَّ ان يشكرك عليها فلم يحسن التعبير

فانكر ولي العهد ذلك بقوله : كلاَّ قد وهمت يا ماليوتا فان مكسيم لا يريد ان يعيش حسبما يفرض الملك بل يريد ان يتخلى عن كل وظيفة في البلاط ليكون حراً في غير هذه الدائرة

فقال الملك : نعم نعم فان مكسيم ارفع من ان يكون في خدمتنا ولعلهُ يرفض البقاء في فرقة رجال الحرس فهو يتطالّ الى غير هذه فسننظر في شأنه · فعضَّ ماليوتا شفته حتى ادماها وقال للملك — ان مكسيم هو احقر عبيدك يا مولاي ولا يضن بحياته في سبيل مرضاتك فهو ابداً رهين اشارتك وان يخطر في باله قط ان يُحرَم مشاهدتك ويكون في غير رضاك · — ثم التفت الى ابنه فقال : والآن انطلق الى البيت وقل لوالدتك ان

لا تنتظرني لان عليّ مهمات أخر في السجن . فانحنى مكسيم للملك وخرج

الفصل الثلاثون

﴿ العفو ﴾

وكان بعد ذلك ان الملك امر باستدعاء الامير نيكيتا . ولم يكن الا القليل حتى ادخله بعض رجال الحرس وهو موثق اليدين وعلامات اليأس مرتسمة على وجهه وقد دخل وراءهم الجلاد وبيده سيف مصلت وهو لا يعلم أيعفو الملك عن الامير ام يأمر بتغيير نوع معاقبته . فلما رأى الملك الامير على هذه الحالة امر بحل وثاقه ثم بش له وقال : فليهدأ روعك يا نيكيتا فقد اسرع رجالي في امر الحكم عليك شأنهم في اكثر الاحوال ولولا مروءة بوريس لكنت الان في العالم الآخر ولعدمنا الرجل الذي يقدر ان يطلعنا على ما اراد متى خومياك اجراءه . فهات الان ما عندك في هذا الشان واوضح لنا السبب الذي حملك اولاً على الهجوم عليه

فقال الامير : اما سبب ذلك فهو لانه هجم على القرية وبادر الى الفتك بالابرياء . ولم اكن الى ذلك العهد اعرف انه من رجالك او اعرف شيئاً عن رجال الحرس لاني كنت عائداً اذ ذاك من بلاد ليتفا فشاهدته قد اطبق ورفاقه على القرية واخذوا ينحرون

الناس ويجرون غير ذلك من الجرائم

فقال الملك : ولو عرفتهم انهم رجالي افكنت تهجم عليهم وتبادر الى معاقبتهم ؟

فاجاب الامير وهو ثابت الجأش : اجل يا مولاي لاني لا اصدّق ان رجال الملك يفعلون هذه المآثم بامر الملك

فنظر اليه الملك طويلاً ثم قال : بالصواب نطقتَ يا نيكيتا فاني لم انشىء فرقة رجال الحرس للتنكيل بالقوم الابرياء بل انتدبتهم ليحفظوا رعيتي من الذئاب الخاطفة حتى اذا ازف اليوم الرهيب وقفتُ امام الديان وقلت : هاءنذا والاولاد الذين اعطانيهم الرب . إن كلامك ايها الامير لهو عين الصواب بل هو دليل حدَّة الذهن وقوَّة الادراك . واعلم انه لم يعرفني حق المعرفة الاَّ انت وبوريس غودونوف فبورك فيكما . اما الآخرون فيزعمون اني ارتاح الى سفك الدماء غير عالمين بان ذلك يقلقني ويورثني اعظم الاحزان واشدّ الكروب . والان فاني اصفح عنك واهبك حياتك

ثم قال للجلاَّد : انصرف يا هذا فلسنا في حاجة اليك الان . . . ولكن لا . انتظر قليلاً ريثما نفرغ من محاكمة اخرى . قال هذا والتفت الى متى خومياك فالقى عليه نظرةً حادةً وقال مغضباً : ما الداعي لهجومك علَى قرية ميدفيدفكا وعبثك فيها ؟

فنظر متى اولاً الى الجلاّد ثم الى الامير نيكيتا وهو يرتعش

فرقاً وبعد ذلك خاطب الملك قائلاً : عفواً ياذا الجلال فان القرية المذكورة تخص الشريف موروزوف وهو احد المذنبين امام جلالتك ومع هذا فاننا لم نجرِ شيئاً يذكر الا بقصد التفكه وتنسم الاخبار

فلما علم يوحنا ان القرية لموروزوف سكن غضبه وقال لمتى : وانت ايضاً اذهب بسلام فقد عفوت عنك . ثم التفت الى الجلاد قائلاً : انصرف الان فلسنا في حاجةٍ اليك بعد

وكان الاشراف عند صدور الحكم على الامير نيكيتا قد انقبضوا وارتعدت فرائصهم فلما عفا الملك عنه ظهرت في وجوههم علامات الحبور والاستبشار ولم يملكوا انفسهم ان تبادلوا همساً بعض كلمات المسرة والتهنئة . فلم يخفَ ذلك على يوحنا بل أوّل سرورهم تأويلاً سيئاً وكتمها على ما خامر افكاره وبعد انصراف متى خومياك والجلاد حدجهم بنظرة حادة وقال : لا تزعموا ايها الاشراف اني شرعت اتساهل معكم واغتفر زلاتكم . كلا . فكل زلة منكم اعتبرها واعاقب عليها بمنتهى القساوة . . . وكأنه ندم على عفوه عن الامير نيكيتا وخشي ان يُنسب ذلك منه الى ضعف فقال له : واما أنت فاعلم يقيناً باني عفوت عنك اليوم نظراً لصدقك وامانتك السابقة غير انه اذا بدا منك في آتي الحين ذنب فلا تنتظر ان تنجو من يدي بل اعاقبك عليه مضاعفاً ولذلك يجب ان تكون من الان على تمام

الحذر وعليك الان ان تقسم لي يميناً بانك تظل عَلَى الدوام رهين اشارتي . فان اخطأت بشيء يتوجب عليك ان تنتظر المعاقبة التي ارومها ان دون تفتكر بالفرار من وجهي الى بلاد ايتفا او بلاد الخان اوالى محل آخر

فاجاب نيكيتا : ايها الملك ان حياتي بين يديك فلن افرّ منك الاَّ اليك وهذا فرض مقدس انا شديد المحافظة عليه منذ حداثتي لاني عبدك وصنيعتك وها اني اقسم لك بشرفي وشريعتي اني اتمم ذلك بمنتهى الدقة والضبط ولا اخالف لك رغبةً

فقال له الملك : انطلق الان بسلام واحذر ان تزلّ بك القدم الى ما يعقبك الندم . ثم خاطب الاشراف فقال اما وقد سمعتم كلام نيكيتا وقسمه فكونوا شهوداً لذلك و نصرفوا الان الى مآويكم ولا تنسوا ان عيني لا تزال تراقبكم واذني تسمع كل كلمة تتفوهون بها مهما اجتهدتم في التخفي — وبعدئذٍ التفت الى رجال الحرس قائلاً : اما انتم فلا يثقلنّ عليكم صفحي عن نيكيتا لاني احب العدل واكره الغدر ولا اقبل المحاباة

ولما فرغ الملك من كلامه صار القوم يحيون ويخرجون من الردهة متفرقين كلٌّ الى قراره وهم بين مشرّد البال وثملٍ من الخمرة . و بعد قليل ساد السكون في قرية اليكسندرفا وخيم الظلام على جميع جهاتها . اما الملك فانه أوى الى مخدعه في القصر واستغرق

في صلاة حارّة وهو جاثٍ على ركبتيه يسأل الله ان يلهمه الصواب ويجعل السلام سائداً في المملكة ويقمع منها كل ثورة وعصيان ويساوي بين الاقوياء والضعفاء ... وقد اطال صلاته حتى تصبب العرق من جبهته

الفصل الحادي والثلاثون

الوالد والولد

لما انصرف مكسيم من قصر الملك عاد الى منزل والديه ودخل مخدعه وهو مشرّد الفكر مفقود التسلية حزين النفس ولم يُرد ان يرقد في سريره بل لبث ينتظر والده كعلى مقالي الجمر . اما ماليوتا والده فقد ذهب بعد انصراف القوم الى السجن حيث بقي مدةً وهو يعذّب بعض المسجونين ليحملهم على الاقرار ويطلع منهم على بعض الاسرار . وبعد ان شفى غليله عاد الى منزله فاستقبله ابنه قائلاً اني بحاجة الى الكلام معك يا والدي فارجوك ان تتفضل وتسمح لي من وقتك ببعضه

فنظر اليه ماليوتا شذراً وقال : وعن اي شيء تريد ان تكلمني؟ هيا بنا

ولما دخلا المخدع قال مكسيم : قد عزمت على السفر غداً . فأستودعك الله يا ابتِ

فاجفل ماليوتا لهذا الخبر وقال — والى اين؟

— الى حيث تسوقني الاقدار وتقودني الامال

— ماذا دهاك يا ولدي حتى سئمتَ هذه الحياة السعيدة وعوّلت علَى السفر ؟ اولم يكفك انك اليوم اظهرت امام الملك كل تمرّد وقحة ؟ افلستَ تعلم من تكون انت ومن هو ؟ ومع هذا فقد عفا عنك ولم يعاقبك بذنبك

— نعم يا والدي فانا اعلم كل ذلك وأعلم ايضاً انه شكرني لصدقي وصواب اعتراضي ولكن لا بُدّ من السفر

— اني لفي غاية العجب من سخافة عقلك اولم تقدّر نعم الملك عليك وتصميمه على ترقيتك واعلاء شأنك ؟ فايُّ شيء دهاك بعد كل هذا ؟

— لاني لم اعد اطيق المعيشة معكم . فمنذ حداثتي وانا اسمع منك ومن الاب ليفكي ومن غيره من رجال الدين ان ارادة الملك هي ارادة الله وان لا جريمة اعظم من الافتكار ضد الملك . اما انا فكانت افكاري مغائرة لافكاركم ولم تعجبني قط اعمالكم واقوالكم غير اني لحداثة سني اذ ذاك كنت ازعم ان الحق قد يكون في جانبكم . اما اليوم فقد اتضحت لي الحقيقة وعرفت ان الملك وسائر اخصائه ورجاله لا يعرفون في جميع اجراءاتهم حقاً او عدلاً بل كلهم انغمسوا في البذاءة والظلم . فهذا الامير نيكيتا الذي دافع عن الابرياء وكبح عنهم

جماح الحراس الطغاة قد حُسب له ذلك جريمة كبرى وحُكم عليه بالموت وكاد يذهب فريسة الاستبداد والجور . فلما رأيت ذلك ايقنت انكم لا تسيرون الا في ديجور الظلام وان اعمالكم كلها شريرة وبذيئة . وعليه فلم يعد يسعني الصبر والاحتمال ولم اعد أرى راحة ولا سلوة بينكم

فلما سمع ماليوتا هذا الكلام جحظت عيناه وصاح بابنه : الان عرفتُ من اضلك وغرس فيك هذه المبادئ السقيمة فلاثأرنّ منه واذيقنّه مرّ العذاب

فخاف مكسيم على الامير نيكيتا من غدر والده ويكون هو السبب فيه فشقّ عليه ذلك جداً ولام نفسه على تعرّضه لذكر الامير في مثل هذا الشان فافتكر قليلاً ثم قال : اعوذه بالله منك لانه اشرف رجل رأته عيني وسمعت به اذني وحالما رأيته وقرأت في وجهه امائر المروءة والشهامة احببتُ من كل قلبي ان انضم اليه واتهالك في حبه واكون له خادماً بيد ان عينيّ لا تجسران ان ترتفعا اليه ما دمت مرتدياً هذا الثوب (المختص برجال الحرس)

فصمت ماليوتا هنيهة جالت في اثنائها افكار كثيرة في رأسه فعزم على ان يلطف حديثه ويتملق ابنه باللين والتحبب لانه رأى ان القساوة في مثل هذه الحال لا تجديه نفعاً فنظر اليه وهو يتظاهر بالمحبة والحنو وأخذ ثمّ يلاطفه باجمل الكلام ليستميله اليه ويحوّل

عزمه فقال : لا تقل هكذا يا حبيبي فلن اسمح لك بمغادرتي وانت وحيدي وفلذة كبدي ولا سيما لانك لم تتعوَّد قط الاهانة والمشاق فابقَ يا حياتي هنا لان الملك سيرقيك فيشرق نجم سعادتك في البلاط وتكون عَلَى احسن ما تحب يحسدك كل الاقران ويتمنون خدمتك ورضاك

فوقع مكسيم على قدمي والده وقال : لا اريد . لا اريد البقاء هنا يا والدي بل اود الهرب والابتعاد عنكم وليس لي طاقة ان اسمع عَلَى الدوام عويلاً ونحيباً واشاهد المجازر والمذابح العدوانية وارى والدي : : :

وهنا توقف مكسيم عن الكلام فامره ابوه بالافصاح فقال : وارى والدي جلاَّداً سفاكاً دأبه الفتك والاغتيال

فتبسم ماليوتا وقال : واي عار في ذلك ? او لا تعلم اني سيف الملك وعضده وقد خدمته كل هذه المدة احسن الخدم وضربت عَلَى ايدي الاشراف العصاة الذين كانوا يتآمرون ضده ولا ازال ابحث عن كل عاص متمرّد لاذيقه الموت بحيث لا تمضي مدة طويلة حتى تتطهر البلاد من كل من ينوي شراً او يفكر بمكيدة

فأنَّ مكسيم عند ذلك حزناً وقال : اصمت يا والدي ولا تشجوني لانك لا تتكلم بالحق . فمن من اولئك المنكودي الحظ الذين قتلتهم كان يتآمر على الملك ? من منهم بلبل البلاد وزرع

الفتنة فيها ؟ لا احد بل انت انما تغتال اولئك الاشراف بقصد اهلاكهم وقلع اثارهم جميعاً ولولاك لكان الملك اكثر رحمةً وشفقة . فلا تغضب الله بهذه الدسائس المتواصلة والاعمال الجهنمية ولا تكن خالي القلب مجرداً من كل عاطفة »

فتفرّس ماليوتا في ابنه طويلاً ثم قال : لم افهم بعد هذه الغوامض التي تسردها عليّ فما الذي يهمك من امر اولئك الاشراف ويدفعك الى المحاماة عنهم ؟ فدع القضاء يقتصّ منهم ولا يهمك الاّ نفسك . وهل تريد ان تظلّ حياتك كلها وانت دونهم ؟ وباي شيء انت منحطّ عنهم ؟ فهل برأهم الله من غير التراب الذي برأك منه ؟ واما اذا كان المال هو علة ترفعهم فعما قليل تصير كاحسنهم ثروة وجاهاً لان كل من يصدر عليه حكم الاعدام ينالنا من ثروته النصيب الاوفر . وقل لي الان : الأجل من انا اسعى وادأب ؟ اليس لاجلك يا ولدي ؟ فكم احتملتُ من المصائب والمشقات وكم عانيت من الاسهار والاتعاب وليس لي من امنية الاّ ان اراك بعد بريهة وجيزة في اعلَى درجات المجد والغنى . ومع هذا كله افلست والدك الحبيب ؟ او ليست طاعتي واجبةً عليك ؟ او لا تشعر نحوي بعواطف المحبة والبنوّة ؟

فتنهد مكسيم عن كبدٍ حرّى واجاب — كلاّ فلست اشعر

بشيء . فارتعش جسم ماليوتا كأنه قد مسه مجرى كهربائي وكانت كلمات ابنه كعقرب لدغت صدره ولكنه امسك غيظه وقال —
وماذا يقول الملك اذا عرف عن رحيلك؟

اجاب مكسيم : اني راحلٌ فراراً منه لاني اعرف ان الله يأمر بمحبته . اما انا فبما اني اشاهد كل يوم من سيء اعماله وانغماسه في الفحش والملاهي ما ترتعد له الفرائص ويذوب الجماد فلا استطيع ان انظر على الدوام الى تلك الفظائع والمنكرات وبالتالي لا استطيع ان احبه ما دمت قريباً منه فاذا بعدتُ عنه ولم اعد اشاهد كيف يُسفك الدم الزكي ربما اعود فاحبه والآن فقد يتيسر لي ان اخدمه واخدم البلاد في غير هذه الدائرة وبغير هذه الاثواب

— وكيف تحيا والدتك اذا هجرتها ؟ لا شك انها تموت غماً وكمداً

— ان الله رحيم فلن يغفل عنها وانا ارجو ان تغفر لي وتصفح عني لاني مغادرها اضطراراً

فعبس ماليوتا وقدحت عيناه شراراً لانه تيقن ان جميع الوسائل اللطيفة لا تفيده شيئاً فقام وطفق يتمشى في الغرفة ذهاباً واياباً ثم وقف امام ابنه وقد جحظت مقلتاه واتقدت حدقتاه ونظر اليه نظر الوحش المفترس وصاح به مهدداً : لقد خاطبتك باللين والتؤدة فلم ترتدع بل تماديت في القحة والبذاءة والآن فاني

اتهددك بكل ويل اذا لم تجب الى طاعتي وتمتثل امري · فهذا السفر الذي صممت عليه لا اسمح لك به على الاطلاق لانك انما تقود نفسك الى مهواة الشقاء وتضيع سعادة مستقبلك في سبيل الحماقة والطيش · فان سافرت ولم تبال بكلامي فلا تطمع ان تفرّ من نقمتي انت وجميع من تريد الانضمام اليهم فضلاً عن اني احرمك بركتي الابوية · هذا كلامي الاخير في هذا الشان · اما الان فقم الى سريرك ونم وعسى ان تزول من دماغك هذه الافكار السخيفة وها انا منطلق الى الملك لاسلمه مفاتيح السجن وارجو ان اراك غداً على غاية ما اشتهي · واما هذا الامير نيكيتا الذي علقت به فسأظفر به يوماً واسحقه سحقاً

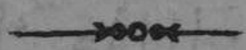
الفصل الثاني والثلاثون.

سفر مكسيم

ثم خرج ماليوتا من منزله قاصداً قصر الملك وكانت النجوم قد تلبدّت بالغيوم وقصف الرعد ولمع البرق · اما مكسيم فلبث بعد خروج والده حيران لا يدري ماذا يفعل وقد تراكمت عليه الاحزان وتشرّدت افكاره · اخيراً وطن نفسه على الرحيل في تلك الليلة فخرج من مخدعه ودنا من مخدع والدته فجثا على الارض عند باب المخدع وشخص ببصره الى السماء وقال في نفسه : انك يا الهي

تعرف قلبي ونيتي فانا الان مغادرٌ هذا المنزل ضد ارادة والدي لانه لم يعد في طاقتي الصبر والاحتمال فاغفر لي يا ربي لاني تعديت شريعتك ولم اطع والدي . واما انتِ يا والدتي الحنونة فسامحيني وتجاوزي عن ذنبي لاني تاركٌ هذا المنزل بدون رضاك وبركتك وعالمٌ ان قلبك سيتصدّع الماً لهذا لانك لن تريني بعد ولكني التمس منكِ ان تغفري لي وتزوديني بركتك وادعيتكِ الحارّة . ثم انحنى مكسيم فقبّل عتبة المخدع وعاد الى غرفته فجهز نفسه وتمنطق بسيفه وانحدر الى الاسطبل . وكان المطر اذ ذاك قد انهمر بغزارة كانه ساخط على جميع العالم البشري فوقف مكسيم مصغياً فلم يسمع شيئاً ثم دخل الاسطبل وكان السوّاس نياماً فاقتاد جواده ولما اسرجه واراد ان يركب سمع بالقرب منه صوت حترشة فالتفت واذا بكلبه « بويان » قد خرج من وجاره فدنا منه واخذ يبصبص له بذنبه ويلحس يده كأنه علم بمفارقته فخرج لوادعه . فلمسه مكسيم بيده قليلاً ثم امتطى صهوة الجواد وخرج من منزل والديه ولما بعد قليلاً اوقف جواده واجال نظره في المنزل وهو يتنهد وعيناه سابحتان في الدموع ثم القى عليه نظر الوداع الاخير ولوى عنان جواده وسار تحت ستر الظلام غير عالم بما خبأه له الغيب . ولكنه ما سار قليلاً حتى سمع هريراً شديداً فالتفت واذا كلبه بويان يعدو وراءه طافراً مجبوراً لانه قدر ان يفلت من

جنزيره و يلحق بسيده الذي رباه واعتنى به مدة طويلة . فلما رآه مكسيم انس به وواصل سيره وهو لايدري الى اين تقوده الاقدار



الفصل الثالث والثلثون

مربية الملك

في اثناء محادثة ماليوتا مع ابنه كان الملك يوحنا في مخدعه مستحراً في الصلاة والابتهال وهو يستغفر ربه عما ارتكبه من الاثام: وفيما هو مستغرق في الصلاة سمع وقع اقدام ثقيلة بجانب مخدعه فالتفت فرأى مربيته أنوفر يفنا واقفة في الباب وقداستندت على عصاها وهي ترنو اليه بملء الاشفاق والحنو

كانت هذه المرأة طاعنة في السن تبلغ المئة من العمر وقد كلل رأسها المشيب وحنت ظهرها الايام فضعف بصرها وثقل سمعها وتجعد وجهها وكانت قد عركتها الحوادث وسبكتها التجارب حتى قتلت الدهر خبراً وعرفت الايام بطناً وظهراً وكان الملك يوحنا قد وُلد على يديها وعلى يديها باركه ابوه قبيل وفاته . وهي موصوفة بحصافة العقل واصالة الراي وكان كثيرون من رجال البلاط يخافون انذارها ويحاذرون اغاظتها بشيء لانها كانت تكره كل اذية وتنفر من كل استبداد . اما يوحنا فكان في كثير من الاحيان يصغي اليها

و يخاف غضبها و يعتبرها كوالدة . فلما رآها الان واقفة في باب مخدعه تنظر اليه ولا تتكلم واصل صلاته دون ان يحفل بها . اما هي فقالت له بصوت ٍ ابح : قد طالت صلاتك يا يوحنا فلعلك تستغفر الله عما جنيته اليوم من الذنوب . فصلِ صلِّ يا ولدي فالله رحيم يقبل ندامة خائفيه . اما انت فتستغفره ليلاً وتتصدّى نهاراً لكل ضروب المنكرات وهكذا فانّ لك كل يوم عدة جرائم . فلو تبتَ لله وعزمت ان لا تعود بعد الى مثل هذه الفظائع لكان الله غفر لك الذنوب العتيقة وانار بصيرتك ونقّى قلبك اما الان فمهما بالغتَ في التضرع والابتهال فلن يسمع نداءك لانك لا تندم على اعمالك البذيئة ولا تتوب عنها توبة حقيقية

فنظر اليها الملك شذراً وقال : حسبك من مثل هذا الكلام يا أنوفر يقينا لانك لا تدرين ما تقولين . فهزّت العجوز رأسها وقالت : ان كنت لا ادري ما اقول فما هذه الجناية الكبرى التي فعلتها اليوم في اثناء الوليمة ولماذا قتلتَ الشريف الشيخ بالسم واردتَ ان تعقب ذلك بجريمة افظع ؟ وهل تزعم اني لم أطلع على كل ما جرى منك بالتفصيل ؟ أفلا تخاف يوم الموقف الرهيب ؟ ألا تعلم ان ذنوبك كلها ستربط بعنقك في ذلك اليوم وان ثقلها قد بلغ الان الوف الوف القناطير فماذا يحلّ بك اذا جرّتك هذه الذنوب الى قعر الهاوية ووثب الشياطين اليك للعذاب الدائم ؟ . .

فوجم الملك عن الكلام وظهرت عليه علامات القلق والخوف لانه تصوّر الدينونة الرهيبة وتمثلت لديه اعماله البذيئة وجرائمه التي لا تحصى · وكان في مدة حياته كثيراً ما يتصور مثل هذه الحالة الهائلة بيدَ انه كان لا يلبث ان يحوّل ذهنه عنها زاعماً انها من تجارب الشيطان فيصم اذنيه عن صوت ضميره ويعود الى فظائعه ومآثمه اكثر من ذي قبل · اما الان فقد حسب كلام مربيته نبوءة حقيقية لا تجربة من ابليس ولذلك امتقع لونه واقشعرّ بدنه واصطكت اسنانه وارتجف كأنّ حمى شديدة اصابته · فلما شاهدته انوفر يفنا على هذه الحالة خافت عليه سوءاً فتلطفت معه في الحديث قائلة : لا تجزع الان يا سيدي بل ثق بالله وتوكل عليه وتب له التوبة الحقيقية واستغفره عن كل زلاتك ولا تعد تخطىء فيما بعد فيتولاك بعفوه ورضاه ويسدّد خطواتك الى اقوم السبل واصلحها وها انذا لا اكفّ من الصلاة لاجلك ليغفر لك الله و يرحمك

فنظر اليها الملك طويلاً ثم قال : اشكر لك عنايتك يا انوفر يفنا فاذهبي الان بسلام لاني اشعر بزوال الحمى

اما العجوز فلم يعجبها هذا الكلام واعتبرته احتقاراً لها فقالت: اراك قد مللت كلامي ولم تطل اناتك عليّ فكيف ترجوان يصبر الله عليك و يرحمك ؟ ومع هذا فاني اراك ترتعد كأن الحمى قد زادت عليك · فان رمت ان اصطنع لك شراباً مسكناً فعلت في الحال

و يكفيك جرعة واحدة منه لازالة هذه الحمى عنك لاني ماهرة جداً في تركيب هذا الدواء ولما كنت اعمله للمغفور لهما والديك كانا يتناولانه بطيب نفس فينتعشان ويشعران للحال بانخفاض درجة الحرارة وزوال الالم

وما كادت العجوز تفرغ من كلامها حتى سمع يوحنا طرقاً في النافذة فاجفل وتقلص وجهه فقالت له مربيته : لاتخف ياسيدي فهذا المطر آخذ الان بالانهمار وهذا صوت وقوعه على النافذة . ولم تكد تفرغ من كلامها حتى ابرقت السماء وهزم الرعد وكان يوحنا في كل مرة يرتعد و يرتجف . فاستتلت العجوز قائلةً : ارى القشعريرة تتفاقم عليك يا سيدي فمر ان اناولك جرعة من الدواء

فقال لها الملك : لا لزوم لشيء فاني معافى

فقالت العجوز : هذا غاية رجائي ان تكون معافىً غير اني ارى الامر بالعكس فها ان وجهك قد تقلص وجميع اعضائك تنتفض كأن بك صداعاً او دواراً شديداً فاذا لم ترد دواء فقم وارقد في الفراش ولا تنم على هذه الاخشاب لان مثل ذلك لا يليق بالملوك بل بالنساك والزهاد وانت ملك ولست ناسكاً

فلم يجبها يوحنا بشيء لان افكاره كانت منصرفة الى غير هذا الموضوع وان هو كذلك اذ سمع وقع اقدام في الدهليز المؤدي الى مخدعه فاشتد خوفه وقال لمربيته : انظري بالله الى هذا الدهليز

فاني اسمع وقع اقدام

فقالت له : ومن ترى يأتينا في مثل هذا الهزيع من الليل ؟ فلعلك واهم يا سيدي

— كلا ليس ذاك وهماً فها ان الصوت يقترب الينا

ففتحت انوفر يفنا باب المخدع والتفتت الى ما وراء الباب فلم تلبث ان رأت ماليوتا قد وصل . اما الملك فلم يملك نفسه ان سأل : من القادم ؟

فقالت له مربيته وهي تنظر اليه مغضبة : هذا ماليوتا سكوراتوف الشرير فتباً له لانه ازعجك بمجيئه الان

اما الملك فلما عرف ان القادم هو حبيبه ماليوتا ابرقت اسرّة وجهه وقال وهو يهتز فرحاً : اهذا انت يا ماليوتا ؟ فاهلاً وسهلاً بك ادخل وقل لنا اين كنت الان

فدخل ماليوتا وحيا الملك بكامل الاحترام وقال : كنت يا مولاي في السجن حيث تعهدت المجرمين واتيت الان لاسلمك المفاتيح

فنظرت اليه انوفر يفنا نظرة احتقار وغضب ثم قالت : هذا جلّ اعمالك ايها الوحش المفترس ان تتفقد السجون وتعذب المسجونين وتشي بالناس وتكره الملك على ركوب المعاصي والموبقات فلا درّ درّك ايها الشيطان الرجيم لانك تركت سائر الصفات

الانسانية وارتديت كلك بالمآثم والجرائم فسيشويك اخوتك الشياطين في نار مستعرة و يكون منقلبك عظيماً وتعلم كيف يكون جزاء الظالمين

وفي هذه اللحظة لمع البرق واشتدّ هزيم الرعد بحيث ان ماليوتا نفسه ارتجف وامتقع لونه . اما الملك فما رأى بجانبه ماليوتا حتى سرّي عنه ما تراكم عليه من الحزن والهم فتشجع وقال له : لا تصغ لها يا ماليوتا لانها خرفة لا تعلم ما تقول اما انت فامض في اعمالك حسب اوامري ولا تسمع مثل هذا الكلام السقيم . ثم التفت الى مربيته قائلاً : والان حسبك ايتها الحمقاء فانصرفي ودعينا وحدنا

فلما سمعت أنوفريفنا هذا الكلام هاج منها هائج الغضب وقالت — تدعوني خرفة وحمقاء ولا تخاف غضب الله؟ بيد ان الله عادل ينتقم من كل جبار عنيد فاستعدّ اذاً انت وكل اخصائك مثل غريازنوي وباسمانوف وفيازيمسكي وخاصة هذا اللعين — استعدوا كلكم لانتقام الله العادل لانكم لا تريدون ان تسيروا في صراط الحق والعدل فستسيرون الى الهاوية حيث يكون عذابكم عظيماً

قالت هذا وخرجت وهي تتمتم وترتجف من شدة الغضب . اما الملك وماليوتا فلما سمعا كلامها امتقعت وجوههما وارتعدت فرائصهما واطرقا مدة صامتين كانهما يفكران في امر خطير . و بعد مرور بضع دقائق سأل الملك ماليوتا عن المجرمين واقرارهم فاخبره

ماليوتا بكل ما حضره . وبعد ان تحادثا حصة من الزمن في مواضيع شتى غلب على الملك النعاس فصرف عنه ماليوتا ثم قام الى سريره فرقد

الفصل الرابع والثلاثون

﴿ الليل ﴾

لم يمضِ على الملك الأ قليل من الزمن حتى افاق مذعوراً من حلمٍ مزعج سلب راحته واثار هواجسه ثم لم يلبث ان تراءى له شبح من بعض جوانب المخدع فارتجف واستولى عليه رعب شديد وكاد يغشى عليه من شدة الهلع غير انه شدد عزمه ونظر اليه فاذا هو خيال الشريف الشيخ الذي اهلكه مسموماً في اثناء الوليمة فازداد خوفاً ورعباً ولاسيما لما رآه يتقدم نحوه بقدم ثابتة كانه القضاء المبرم ثم وقف امامه وهو لا يرفع نظره منه . فاقشعرّ الملك وجمد دمه و يبست اعضاؤه وكاد يفقد صوابه فاراد ان يصرخ فتلعثم لسانه وشعر بدويّ هائل في اذنيه . ثم رأى الشريف قد انحنى امامه وسمعه يقول له : يبقيك الله يا يوحنا و يزيد في سلطانك فقد قتلتني ظلماً وجوراً وها انذا قد جئت الان احييك خاضعاً صاغراً

وكان لهذه الكلمات صدى شديد رنّ في اعماق نفس الملك فطار قلبه شعاعاً وزفر زفرة حارّة ولم يعرف هل صدرت هذه

الكلمات عن خيال ام عن افكاره الخصوصية ام هذا ضميره قام يحاربه ويحاسبه عن جرائمه؟ ... اما عيناه فكانتا تشاهدان نفس الشريف الذي قتله في الردهة على مائدة الطعام . وفيما هو على هذه الحالة من الذهول والحيرة انتصب امامه شبح آخر فتفرس فيه فاذا هو اداشيف الذي قتله منذ اربع سنين وقد دنا منه الان وهو يقول : عش مديداً يا يوحنا فها الذي قتلته ظلماً واستبداداً قد جاءك الان خاضعاً داعياً ... ثم تبع اداشيف الشريفة ماريا التي نكل بها يوحنا وقتل ابناءها الخمسة وقد تراءت له الان مع بنيها وكل منهم يقول للملك : يبقيك الله يوحنا ويزيد في سلطانك ... وبعدهم ظهر الامير كورلياتيف والامير ابولينسكي وشيرميتوف وغيرهم كثيرون من كبراء الامة ونبلائها الذين اوقع بهم الملك في اوقات مختلفة وكلهم انحنوا امامه وحيوه التحية المذكورة . ثم ظهر جمهور من الرهبان والشيوخ والراهبات وكلهم باللباس الاسود وقد اصفرت وجوههم وتلطخت اثوابهم ببقع الدم فجثوا امام الملك وقالوا : يبقيك الله يا يوحنا ويزيد في سلطانك لانك قتلتنا جميعاً ظلماً وبغياً . وتلاهم الجنود الذين قاتلوا مع الملك في حرب كازان وابلوا فيها البلاء الحسن وكانت نتيجة اخلاصهم وتفانيهم في خدمة البلاد انهم أعدموا بأمر الملك بعد ان كابدوا اصناف العذاب والتنكيل . ثم ظهر في المخدع جمهور غفير من العذارى وقد حلت

شعورهن ومزقت ثيابهن والى جانبهن جمهور آخر من النساء حاملات على ايديهن اطفالهن وجميعهن باكيات نائحات يرددن مع اطفالهن هذا الدعاء : يبقيك الله يا يوحنا ويزيد في سلطانك وجبروتك فقد انفذت فينا مخالب جورك وعدوانك ولم ترقّ لضعفنا او تشفق عَلَى انكسارنا وذلنا ...

وهكذا امتلأ المخدع من الاشباح والخيالات بحيث لم يستطع الملك ان يعرف اهذا وهم ام حقيقة وقد اقشعرّ بدنه واصطكت اسنانه وارتعشت فرائصه وقفّ شعره وجحظت عيناه ولبث مدةً كأنه شخص حجري . ثم انطلق لسانه فصاح صياح الرعب قائلاً : اذا كنتم ايها الاشباح شياطين وقد جئتم لتعذيبي بقوّة عدوّ البشر فانصرفوا عني باسم الله الحي واذا كنتم حقيقة انفس الذين قتلتهم فانتظروا عدل الله في اليوم الاخير فيحاكمني واياكم

وما قال هذا حتى رأى الاشباح قد احاطت به من كل جانب وهي تصيح وتولول وكان المطر في تلك الآونة قد هطل بغزارة وعصفت الريح عصفاً شديداً فخيل للملك انه يسمع اصوات الابواق وهاتفاً يقول : هلمّ يا يوحنا الى الدينونة . فارتجف الملك واستطير فؤاده روعاً وصاح صيحة عظيمة دوى لها المكان وقد سمعها اهل البطانة وكانوا نياماً في اسرّتهم فهبوا مذعورين وتراكضوا الى مخدع الملك فسمعوه يقول : افيقوا كلكم فقد ازف اليوم الاخير

ودنت ساعة الدينونة فهلموا جميعاً الى الكنيسة

فدهش رجال الملك مما رأوا وسمعوا ولما لم يسعهم الاَّ الانصياع بادروا الى الاجراس فقرعوها . فنهض رجال الحرس من مراقدهم وارتدوا ثيابهم وتسارعوا الى الكنيسة وهم يتعجبون . وكان قوم منهم لم يرقدوا بعد لانهم دُعوا بعد الوليمة الى منزل الامير اثناسي ڤياز يمسكي فظلوا عنده الى ذلك الوقت يشربون ويطربون . فلما سمعوا قرع الاجراس حتى هبوا الى اثوابهم الرهبانية فارتدوها وجاءوا الى الكنيسة وهم يتهادون في مشيهم من السكر وقد ارتفع منهم صراخ يصمّ الآذان وعلت غوغاؤُهم . وكان الملك سائراً امام حاشيته وهو يقرع صدره ويقول: يا الله ارحمني انا الخاطئ ونيح انفس الموتى الذين قتلتهم ظلماً . ولما وصل الى فناء الكنيسة لم تعد رجلاه تقويان عَلَى حمله فهوى بجسمهِ الى الارض . فبادر اليه بعض الحرّاس وانهضوه ودخلوا بهِ الى الكنيسة . فاستقبلتهُ عند الباب مربيتهُ او نوفريفنا وقالت له : سكّن روعك ياسيدي ولا تقنط من رحمة الله

ولم يمضِ الاَّ القليل حتى غصت الكنيسة برجال الحرس . وكان السجناء قد سمعوا الاجراس واصوات المرتلين في الكنيسة فتأكدوا ان الملك يصلي فصاروا هم ايضاً يبتهلون الى الله ان يجعل في قلبهِ الرحمة والشفقة ويسهل لهم طريقة الخلاص منهُ ومن معذّبهم ماليوتا ولو بموتهم . وكان الاولاد الصغار في منازل القرية قد استيقظوا ايضاً على صوت الاجراس خائفين باكين وكانت والداتهم يفزّعنهم باسم ماليوتا لاسكاتهم . فكان الطفل اذا سمع هذا الاسم الهائل يكفّ حالاً عن البكاء ويخلد الى السكينة ممسكاً بوالدته وهو يضطرب ويرتجف

الفصل الخامس والثلاثون

﴿ الوشاية ﴾

لما انبثق الصباح عاد ماليوتا الى منزله فافتقد ابنهُ فلم يجده · فطار رشده وتأكد ان مكسيم قد هجره وانهُ لن يراه بعد · وقد وقع هذا الحادث عنده اشدّ وقع وأرسل للحال يبحث عنه في جميع اطراف القرية · فلم يقف له على اثر · اما السوّاس الذين لم يشعروا برحيل مكسيم فقد زجهم في السجن ليعاقبهم اشدّ عقاب · ثم امتطى جواده وسار بنفسهِ يتفقد جميع الطرقات والمسالك وقد كاد يجنّ غيظاً ولم يدرِ أيخبر الملك بفرار مكسيم او يكتم ذلك عنهُ · وفيما هو في هذه الحالة من الحيرة والغضب سمع وقع حوافر خيل وراءه فالتفت واذا بهِ يرى وليّ العهد يصحبهُ ثيودور باسمانوف وجماعة من رجال الحرس عائدين من نزهة الصباح وقد ابتسمت ثغورهم وعلت اصواتهم · وكان ولي العهد قد ابصر ماليوتا وعرف سبب كآبته وهمه · فوخز جواده وطار به جهة ماليوتا · ولما حاذاه قال له هازئاً — أحييك بكل احترام ايها الشريف ماليوتا واخبرك باننا التقينا الآن برجالك وهم يفتشون عن مكسيم فماذا حدث ؟ او لعلك ارسلتهُ الى موسكو ليحضر لك قبعة الاشراف · · · — قال هذا وهو يقهقهُ ضاحكاً

وكان ماليوتا حالما ابصر ولي العهد قد ترجل ووقف مكشوف الرأس احتراماً لابن الملك وقد اخفى في صدره احرّ من نار الجحيم · ولما اقترب منهُ ثيودور باسمانوف حياه ايضاً باسماً مستهزئاً · ولبث ماليوتا واقفاً حتى بعد ولي العهد بموكبه فمرّت على وجهه سحابة غيظ وانتقام لوّنتهُ بألوان الحرباء ثم عاد الى جواده فامتطاه وهو يحرق الارّم وقد لمع في عينيه برق الانتقام من ولي العهد وباسمانوف ورجع بعد ذلك الى قصر الملك وقد اخفق مسعاه وعظم عليه امر فرار ابنه وضاقت الدنيا في وجهه

وكان الملك اذ ذاك جالساً في مخدعه كئيباً حزيناً وقد اثرت فيهِ حوادث

الليل المنصرم تأثيراً بليغاً فاكفهرَّ وجههُ وساءت اخلاقهُ . غير ان ذلك لم يؤدي بهِ الى التوبة لانهُ نسب تلك الرؤى والغرائب لفعل الشيطان زاعماً انهُ قام يحاربهُ لينصر عليه اعداءه . ولذلك صمم على متابعة جرائمه اكثر من ذي قبل ليتسنى له الفوز بجميع مضاديه حتى لايبقى في المملكة من يضمر له سوءا او يدبر له مكيدة . وقد صار الان يرتاب في كل انسان يراه او يسمعهُ ويؤَّول كلامهُ وحركاته تآويل شتى ولو كان اقرب ذويه واعز اخصائه . وفيما هو على هذه الحالة المزعجة دخل عليه ماليوتا فحياه وقد كتم امره واخفى ما به . وبعد محادثة قصيرة في شؤون مختلفة قال ماليوتا : انك ايها الملك قد امرتني بالتدقيق في استنطاق المسجونين حباً بالاطلاع على غيرهم من الخونة الغادرين . وقد تمكنت من معرفة كل شيء سوى امر واحد وهو الغاية الاولى التي نرمي اليها في سائر ابحاثنا وتحرّياتنا . وذلك لانهم ابوا ان يصرّحوا باسم عدوّك الاكبر — اساس جميع هذه الدسائس والمكايد . ولا اعلم اذا كان ذلك لخوفهم منهُ او لسبب آخر

فلما سمع الملك ذلك قامت عيناه وجمد

فقال ماليوتا وقد خفض صوتهُ — اجل يامولاي فهي الحقيقة لا بدّ ان تظهر لكل ذي عينين . فكم اجريتَ من العقوبات بقصد تطهير البلاد من كل خيانة ودسيسة ومع هذا فان عدد الخونة واصحاب الفتن يزداد كل يوم ولا يتأتى لك قرضهم جميعاً مالم تفكر بوسيلة اخرى اضمن واكثر عائدةً

فدهش الملك وظلّ صامتاً استماعاً لبقية الحديث . اما ماليوتا فاستطرد كلامهُ قائلاً — اما السبب الاكبر لذلك فهو انك تقطع من الخيانة اغصانها واوراقها ولا تمسّ جذعها بل تبقيه ليزداد مع الايام تأصلاً وقوةً

فلم يفهم الملك ماقصده ماليوتا ولكنه حملق فيهِ وامرهُ بالايضاح العاجل .

فقال ماليوتا — تذكر يامولاي ايام كنتَ مريضاً وعلى شفا الخطر كيف ان الاشراف لم يبالوا بك بل كانوا بفروغ صبر يتوقعون موتك لينصبوا بدلاً منك اخاك فلاديمر . ولكن الله لم يستجب لنياتهم الخبيثة بل منّ عليك وعلى عبيدك الامناء بالشفاء التام . وهكذا رُدَّ كيدهم الى نحرهم

فاجفل الملك عند هذا الكلام وقال في نفسهِ « فاذاً هذا هو مغزى الرؤى والخيالات التي تراءت لي ليلاً فانَّ عدوَّ البشر اراد ان يغشي على بصري لئلاَّ اعلم شيئًا عن دسائس اخي فلن تتمَّ له امنية » ثم خاطب ماليوتا قائلاً بغضب — قل ما تعرفه عن اخي ولا تخفِ عني شيئًا

فاجاب ماليوتا وقد ايقن في قلبهِ بالنجاح — كلاَّ ياسيدي الملك فليس اخوك فلاديمر موضوع كلامي لانه لا يضمر لك سوءًا والاشراف الان لا ينظرون اليهِ ولا يعتمدون عليهِ في قضاء شيء من نواياهم الخبيثة واوطارهم الفاسدة

قال — فمن هو اذًا موضوع كلامك الان غير فلاديمر ؟

قال — انت تعلم يامولاي ان اخاك قد كاد يجاري الاشراف في افكارهم الاَّ انهُ تبصر في العواقب ولم يعد يعيرهم اذنًا صاغية · اما هم فلم يتحولوا عن عزمهم بل انتدبوا شخصاً آخر لهذهِ المهمة وربما خامرتهم افكارهم ان يملكوه بدلاً منك

فلما سمع الملك ذلك ابرق وارعد وصاح بماليوتا — ومن هو هذا الشخص الذي نووا ان يملكوه ؟ قل بالعجل

فخشي ماليوتا غضب الملك وقال وهو يرتجف — ليس كل شيء يقال يامولاي ولا سيما في مثل هذا الموقف الحرج

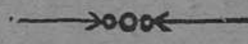
فحملق فيه الملك وقام عن كرسيه مغضباً فامسك بخناقه وامره بالتصريح وهو يتهدَّده بالويل ان لم يبين ما في نفسه

فقال ماليوتا — ولكني اسألك يامولاي ان تعفو عنهُ لانه حديث السن لا يفهم الى اين تقوده قدماه وما ذنبهُ الاَّ انه يصغي للاشراف ويجاريهم في هذه الآراء السقيمة

فارتعد الملك وقد امتقع لونه وجعل يضرب في بيداء الافكار لعله يهتدي الى معرفة الشخص الذي نواه ماليوتا · اما هذا فعلم ان ساعة التصريح قد دنت لان التهييج قد بلغ من الملك مبلغاً عظيماً فقال — لا تتعب نفسك بلا جدوى ياسيدي ولا تبحث عن الخيانة في خارج قصرك فان عدوك هو اقرب الجميع اليك

وهو يشرب و ياكل معك من كاس واحدة ومن صفحة واحدة ولباسه من لباسك

فلما سمع الملك ذلك انتفض كعصفور بلله القطر وقد راعه الامر جداً فلبث حيناً لا يدري ماذا يقول او ماذا يفعل وقد صار منظره مثال الرهبة والذعر



الفصل السادس والثلاثون

العزم الشرير

في هذه اللحظة سُمع من فناء القصر اصوات طرب وغناء تلتها ضجة ولغط. وذلك ان ولي العهد كان قدوصل مع رجاله الى القصر فشاهد في فنائه جمهوراً من تجار الاقاليم البعيدة عن العاصمة وقد حضروا الان ليقدموا للملك الخبز والملح رمزاً الى صحة عهدهم وصدق عبوديتهم وليشكوا له مساوىء رجال الحرس واضطهادهم لهم. فلما ابصروا ولي العهد ارتفعت اصواتهم بالدعاء وعلا بينهم الضوضاء ثم جثو جميعاً على الارض. فسألهم ولي العهد عن شأنهم فاجابه زعماؤهم — قد جئنا يا مولانا لنرفع لجلالة الملك شكوانا من رجال الحرس لانهم يعاملوننا بمنتهى الفظاظة والقسوة وقد نهبوا خيراتنا وسبوا نساءنا واولادنا

فنظر اليهم ولي العهد شذراً وقال — انصرفوا الى بلادكم فسأكلم والدي بشأنكم

فأجابوه بدموع الشكر — اقرّ الله عينك يامولانا ومتعك بطول العمر ودوام السعادة

وكان ولي العهد لم يزل في صهوة جواده و بازائه ثيودور باسمانوف وامامه التجار جاثون وقد دنا منه اكبرهم حاملاً بين يديهِ صحفة الخبز والملح

وكان ماليوتا لما سمع اصوات التجار في حال دخول ولي العهد قد اطل من النافذة فسمع ورأى كل ماجرى. فلما ابصر زعيم التجار يقدم لولي العهد الخبز والملح كما مر قال للملك همساً — انظر ياسيدي فاني لا اكاد اصدق عيني فكأن

الناس قد بدأُوا يهنئونه بسرير المملكة منذ الان ولعلّ ثيودور باسمانوف الواقف الان بجانبه هو اكبر الطاغين له

فما وقع بصر الملك عَلَى ذلك المشهد حتى اهتزت اعصابه غضباً وتطاير الشرر من عينيه وفقد وجهه كل هيئة بشرية بحيث صار ماليوتا ينتفض من شدّة الخوف والهلع · وبعد هنيهة ابتسم الملك وقال لماليوتا — هل يمكنني ان اعتمد عليك في امر مهم ؟

قال — لبيك يامولاي فمرني بما تشاء

قال — أفتقدر انت ان تستاصل جرثومة الفساد والخيانة من المملكة ؟

فاخفى ماليوتا في صدره سروراً عظيماً وقال — اني اقدر ان اجري كل شيء حباً بخدمتك وطاعتك

فقال الملك — فانا أكل اليك الان هذا الامر العظيم واعدك بما تشاء اذا توصلتَ الى اهلاك ولي العهد عَلَى وجهٍ لايشعر به احد بحيث يبقى الامر مكتوماً عن كل انسان

قال — هذا مما لاشك فيهِ ياسيدي وانت تعلم اني اجازف بحياتي في سبيل خدمتك ومرضاتك

قال — فبادر اذاً للعمل من هذه الساعة لاني لااريد التسويف · فهو اليوم سيذهب الى الصيد والقنص في جهة « غياض الجاهلية » فيجب ان تغتاله هناك وتتركه قتيلاً مهشماً وتطرح جثته بين الادغال بحيث اذا رآه احد لايشك في انهُ قد سقط عن ظهر جواده فقضي نحبه

فانحنى ماليوتا امام الملك وحيا مودعاً · وما صدّق ان خرج من لدنه حتى تنفس طويلاً كمن سرّي عنهُ · ولبث الملك بعد انصرافه واقفاً في مكانه لايتحرّك · ثم دنا من الايقونات المعلقة على جدار مخدعه فجثا امامها وطفق يصلي · اما ماليوتا فحالما خرج من القصر استدعى متى خومياك وانفرد بهِ ساعةً يتحادثان بامر خطير · وكان متى هذا اشرس جميع رجال الحرس وأدهاهم واكثرهم عيثاً وفساداً · وكان ماليوتا يحبه ويكل اليه كبار المعضلات الجنائية فلا يلبث ان يحلها في اسرع وقت

وعَلَى احسن وجه دون ان يخشى الاخطار او يحسب للعواقب حساباً . فاذا اراد ماليوتا احراق ضيعة او سبي امرأة او نهب بيت او قتل رجل او غير ذلك من الفظائع لم يكن يعتمد في كل ذلك الاَّ عَلَى متى اولاً . فكان هذا يتلقى تلك الاوامر بوجه طافح سروراً ويقضيها ثم عَلَى غاية مايريده سيده

وبعد هذه المحادثة السرّية ببضع ساعات كان ولي العهد وجمٌّ غفير من رجال الحرس منتشرين في ضواحي موسكو متفرّقين في كل جهة مثنى وثلاث ورباع وجميعهم لاهون بالصيد والقنص . فلم يكن يسمع غير نباح كلابهم ودويّ طلقات بنادقهم . ولم يكن احد مهتماً الاَّ بنفسه دون ان يلتفت الى رفاقه . ففي هذا الوقت انفرد عن الجماعة ماليوتا ومتى خومياك وقصدا مكاناً في الغابة واخذا يراقبان ولي العهد بمنتهى التيقظ حتى اذا رأياه وقد انفرد عن القوم وتوغل في البرية بادرا اليهِ واخذا يسايرانهِ ويسيران في خدمته وهما يحببان اليه المسير بين الاشجار والابتعاد عن الجماعة الى اقصى مكان حيث يكثر الطير ويحلو الصيد . فانقاد لرأيهما وهو لا يحسب للخطر حساباً . ولما رأيا انفسهما بمأمنٍ من كل رقيب انقضا عليهِ وبأسرع من البرق انزلاه عن جواده فامسك متى بذراعيه ووضع ماليوتا في فيه منديلاً منعهُ عن الكلام ثم اوثقا يديه الى جانبيه وجعلا عَلَى رأسه قبعة كبيرة ليستراه عن العيون وعادا فاركباه واوثقاه في سرج جواده وسارا به في طريق الحرش وهو بينهما طائع منقاد كالنعجة الى الذبح . ولم يسيرا الاَّ قليلاً حتى انضمَّ اليهما عشرون فارساً من رجال الحرس وقد تقلدوا الاسلحة الكاملة وساروا يتبعونهما وهم صامتون

اما بقية رجال الحرس فظلوا منهمكين بالصيد دون ان يشعر احد منهم بغياب ولي العهد لان الجميع كانوا منبثين في اماكن مختلفة سحيقة الاطراف كثيرة الادغال

وسار ماليوتا برجاله سيراً حثيثاً وهم لا يلوون عَلَى شيءٍ وقد دنوا من غياض الجاهلية وهي تبعد عن قرية الكسندروفا ثلاثين كيلو متراً بنيف يحيط بها حرش عظيم جداً . وكان السواد الاعظم من الروسيين يزعمون ان هذه الغياض هي

مأموى جماعة من الابالسة والشياطين فلم يكن احد منهم ليجسر على الدنو منها الا اذا كان برفقته جمهور من الناس . وقد شاع بينهم عن هذه الغياض حكايات وخرافات كثيرة واشتهر عنها بانها مألف الجان والمردة والعفاريت والارواح وغير ذلك مما جعلها في عيون القوم مرهبة مرعبة . فالى هذه الغياض قاد ماليوتا ابن الملك يوحنا الرابع بقصد اغتياله انتقاماً منهُ وشفاء لغليله

وفي ذلك الوقت كان قوم آخرون من غير رجال الحرس مجتمعين في بقعة فسيحة بين اشجار الحرش العظيم المحدق بالغياض المذكورة وليس لهم اقل اطلاع على شيء مما قصد اجراؤه بالقرب منهم

الفصل السابع والثلاثون

بيرستن ورفاقه

كان اولئك الناس منتشرين في تلك البقعة بين اشجار البلوط والسنديان بعضهم جلوساً والبعض الآخر وقوفاً وقد تسلحوا باسلحة مختلفة وارتدوا ملابس شتى من الصوف والكتان وبعضهم لبس المخمل الموشى بالذهب . وكانوا منقسمين جماعات جماعات . وقد انشغل بعضهم بإعداد الاطعمة . وتشاغل آخرون بالمحادثة والمصارعة واللعب . وآخرون تألبوا حول رجل منهم طاعن في السن وقد استند بينهم الى جذع شجرة كبيرة وجعل يطرفهم بضروب الاخبار والاحاديث والحكايات الغريبة وهم يسمعونه بمنتهى الاصغاء واللذة . وفيما هم كذلك جاء من جهة الطريق ثلاثة شبان يقودهم فتى من القوم واوقفهم امام الشيخ واشار له اشارة فهمها . فتوقف عن سرد حكاياته والقى على الشبان المذكورين نظراً حاداً ثم سألهم عن شأنهم . اما هم فنظروا اليه ثم التفتوا الى جميع الجهات ولم ينبسوا ببنت شفة . فقال لهم الفتى الذي جاء بهم : ان العم كورشون يسألكم عن حالكم ومن اين انتم وماذا تريدون فاخبروه بكل شيء لان هذا هو قانون عصابتنا

فاجاب احدهم — انا من جهات موسكو

فسأله كورشون — ولماذا هجرت بلدك وجئت الينا ؟

اجاب — لان رجال الحرس تعدّوا عليّ فحرقوا منزلي ونهبوا مقتنياتي

ثم سأل كورشون الشاب الثاني — وانت ايضاً انبئنا بسبب انضمامك الينا

فقال — جئت ابحث عن اهلٍ لي

فضحك القوم حتى استلقوا وقال له بعضهم — واي اهل لك هنا في هذا الحرش ؟

اجاب — ان رجال الحرس قد قتلوا والدتي وجدتي واخواتي واخوتي فلم يبق لي احدٌ في العالم . فقلت لعلّ في الانضمام الى عصابتكم بعض الفرج . وهكذا اقبلت اليكم لاكون اخاً لكم وتكونوا اخوةً لي

فقال له بعض الجلوس — اهلاً بك وسهلاً فانت مذ الان اخونا . لك ما لنا وعليك ما علينا . ولعلّ الله يقدّرنا عَلَى الاخذ بثارك وثار اكثرنا من اولئك الانذال . لاننا جميعنا في هذا المعنى اخوة وما فينا الا من اصابتهُ داهية من مثل ما اصابك . وقد صممنا جميعاً عَلَى طلب الانتقام من اولئك العتاة الغاشمين .

ثم صاحوا بصوت واحد قائلين — لتمحَ فرقة لرجال الحرس عن وجه الارض وليمت اعوانهم ومريدوهم

ثم التفت كورشون الى الشاب الثالث — وكان كبير الجثة مفتول العضل قويّ الساعد الاّ ان هيئتهُ تدلُّ على منتهى السذاجة والبله — واستفهمه عن حاله فاجابه وهو يحرك جبينه : انا من جهات كولومنا

فسأله كورشون — وما هو سبب انخراطك في سلكنا ؟

فاجاب — لان رجال الحرس اختطفوا عروسي

قال — وكيف اختطفوها ؟

قال — جاءوا واختطفوها

قال — وبعدئذٍ ماذا جرى ؟

قال — لم يجرِ شيء سوى انهم اختطفوها

قال — فلماذا لم تدركهم وتخلصها منهم وانتَ على ما يظهر من الجبابرة

الاشدّاء ؟

قال — لم اتمكن من ذلك لانهم اخذوها وساروا بها كلمح البرق . اما انا فاحتدمتُ غيظاً وتوعدتهم بالانتقام

فقهقه الحضور لهذا الكلام وقال بعضهم — ان مصابك خفيف يا صاح . فاذا سُلبت عروسك فلا يصعب عليك ان تجد سواها

فسكت الشاب وهو يهزّ رأسهُ . وكان يتبسم تارة ويقطب وجههُ اخرى . فاراد بعض القوم ان يمازحوه . فدنوا منهُ واخذوا يتدافعونهُ من جانب الى جانب وهو صامت ينظر الى وجوههم ولا يدري ايغضب ام يصبر . اما هم فاذ رأَوه على هذه الحالة ازدادوا ضحكاً عليه وعبثاً به . فنظر اليهم شذراً وقال — كفوا لئلا تندموا . فلم يبالوا به بل استمرّوا يعبثون به ويلكمونهُ اكثر من ذي قبل وهم يرجون ان يغضبوه . وقد اراد هو ان يغضب لكنه عاد فصبر لانه لم يجد بعد سبباً كافياً يثير غضبه . فاقبل عليه القوم وطفقوا يسخرون بهِ ويتدافعونه ويضحكون عليه قائلين — ما بالك لا تغضب ايها الابله ؟

فوقف الشاب وانتفخ وقد حدجهم بنظرة غضب وقال — لم اعد احتمل فظاظتكم فاذا مسني احد منكم الان بشيءٍ فليحتمل

فدنا منهُ واحد ودفعهُ دفعةً قوية وهو يقول — ارِنا بأْسك الان

فابرق الشاب وارعد ثم حسر عن ساعديه وتفل في كفيهِ وطفق يضرب القوم بيديه ضربات شديدة بحيث وقع كثيرون منهم عَلَى الارض وارکن الباقون الى الفرار عنه . اما هو فلحقهم وواصل ضرباته العنيفة وهم يصيحون به ويشتمونهُ وهو لا يرجع عنهم . ولما شفى غليله منهم وقف اخيراً وهو يضحك ويعرك جبينه . وكان في اثناء هيجانه قد قلب عن النار بعض قدور الطعام وكسر بعض الآنية . ولما سكن الهياج احدق به القوم وقد دهشوا لشجاعتهِ وشدة عزمه . فقال له بعضهم لو انك استشطت غضباً حالما اختطف الحرّاس عروسك لكنت استخلصتها للحال وطردتهم ولو كانوا الوفاً . والان قل لنا ما اسمك ايها الفتى الباسل ؟

فقال وهو يعرك جبينه ويضحك — اسمي توما

وفي هذه اللحظة جاء احد اولئك القوم وكان في جهة اخرى وقال — ان الزعيم يريد ان يحدثنا عن معيشته السابقة في جهات نهر فولغا فمن اراد ان لايفوته شيء من ذلك فليسرع . وحالما سمع الجميع هذا الكلام تركوا كل شيء وتراكضوا الى جهة الزعيم وتجمعوا حوله كالحلقة وهم يتشوقون الى مثل هذه الاحاديث ولا سيما ماكان منها وصفاً لشجاعة او لقتال

اما الزعيم فكان جالساً في ظل شجرة باسقة الاغصان وقد لبس درعاً ومن فوقه صدرة موشاة بالذهب . وكان على رأسه خوذة حديدية وفي احدى يديه فأس ضخمة . وهو عريض الاكتاف متوسط القامة قوي البنية . ومن تفرس فيه جيداً عرف انه بيرستن صاحبنا القديم الذي التقى به الامير نيكيتا في قرية ميد ڤيدڤكا وكان موثقاً مع الشيخ كورشون فحلهما وكان له معهما ماذكر في حينه . وبيرستن هذا هو زعيم هؤلاء اللصوص وكانوا في كثير من الاوقات يحتشدون في تلك البقعة ليسلبوا المارة في الطريق بجانب الغياض ويكمنوا لرجال الحرس حتى اذا رأوا بعضهم انقضوا عليهم واذاقوهم شديد العذاب

ولما اجتمع اللصوص حول زعيمهم هش لهم وبش وطفق يسرد عليهم نوادر كثيرة مما اتفق له وهو في جهات نهر فولغا . فحدثهم عن رجل جبار اسمه يرماك وهو زعيم عصابة قوية من اللصوص المنبثين في تلك الجهات . وقص عليهم من غرائب هذا الجبار مالا يكاد يصدق . كقوله مثلاً انه كان يسطو وحده على قافلة برمتها فيسلبها اموالها ويفرقها شذر مذر . وانه مرة اوقف في وسط النهر مركباً تجارياً وسلب منه ما اراد . واشياء اخرى كثيرة غريبة فعل هذا الجبار حتى اشتهر اسمه في تلك الاصقاع وصار مضرب المثل في الشجاعة والبسالة

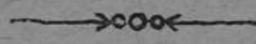
وفيما كان بيرستن يحدث رفاقه بمثل ذلك بادر اليه احد رجاله وقال — بينما كنت منذ هنيهة في بعض اطراف الحرش اراقب الطريق شاهدت عشرين فارساً تلوح عليهم سمات الغنى والنعمة وكلهم بالسلاح البديع والالبسة الفاخرة

فقال له بيرستين — والى اين وجهتهم ؟

فأجاب — رأيتهم قد عرجوا الى غياض الجاهلية فطرت اليك لاخبرك بامرهم

فالتفت حينئذٍ بيرستن الى رجاله وقال — انقسموا فرقتين وليتبعني عشرون رجلاً منكم واما الباقون فيجب ان يكمن منهم عشرون آخرون بقيادة كورشون في بعض ادغال الحرش حتى اذا بدت مني اشارة اليهم او رأوا اننا لم نقدر ان نظفر بالفرسان المذكورين او طال الانتظار فلينجدونا

ولم يكن الأ لحظة حتى انفرد من اللصوص اربعون رجلاً انقسموا فرقتين سارت احداهما وراء بيرستن قاصدة غياض الجاهلية وبقيت الاخرى لدى كورشون . وكان في جملة هذه الفرقة توما الشجاع الذي اشتهر امره بين اللصوص حال دخوله في سلكهم . وكان الجميع قد تقلدوا سيوفهم الاَّ توما فانهُ انتقى من الحرش هراوة ضخمة القاها عَلَى كتفه وسار وراء الجماعة وهو يتمايل من جانب الى آخر



الفصل الثامن والثلاثون

الامير نيكيتا وبوريس غودونوف

بينما كانت الحوادث المار ذكرها تجري . وماليوتا وخومياك يقودان ولي العهد الى غياض الجاهلية . كان الامير نيكيتا في منزل بوريس غودونوف وقد جلسا الى مائدة عليها الوان الطعام والشراب وهما يتحادثان ويتباثَّان الافكار والعواطف . ومضت عليهما ساعات لم يشعرا بمرورها . واخيراً ساقهما الحديث الى ان قال الامير — ماذا حدث للملك في هذه الليلة حتى انه استدعى جميع رجال الحرس للصلاة في مثل هذا الوقت . فهل ذلك عادة عندكم ؟

فهزَّ بوريس كتفيه وقال — ان ملكنا العظيم ولو كان صارماً في معاقبة اعدائهِ والمجرمين من رعاياه عَلَى انه في الوقت نفسه يحزن كثيراً لمثل هذه العقوبات . ولذا فانه يصلي عن انفس هؤلاء الناس كل ليلة . وفي اكثر الاحيان يستدعي رجال الحرس ولا سيما الرهبان منهم للصلوات الليلية

فقال الامير — ارى ايها الصديق ان كل شيء في البلاط قد تغير عما كان سابقاً حتى ان الملك نفسهُ قد تغيرت احواله وتبدلت اخلاقهُ وصار كل شيء في

بلادنا ينذر بالدمار والبوار . فمن هم هؤلاء رجال الحرس الذين اختارهم الملك ؟ ان ذلك من المضحكات المبكيات لانهم جميعاً ذئاب خاطفة ووحوش ضارية وليسوا رجال ملك او رهبان دير . وها قد صار لي يومان فقط في هذه الجهات فسمعتُ وابصرتُ من فظائعهم وكبائرهم ماتقشعرُّ له الابدان ويندى له وجه الانسانية خجلاً . فماذا اعترى الملك حتى اختار هولاء العتاة الاشقياء وادناهم من بلاطه واطلق ايديهم في العيث والفساد ؟ واني ليذهلني امرك ياصاح . فانك شهم موصوف بالاباءة وعزة النفس وحب الامة . فلما ذا لم تنهَ الملك عن مثل هذه الامور وتبين له سوء المصير من جنود الحرس؟ بل كيف تستطيع ان تخمد صوت ضميرك وتتغاضى عن مثل هذه الاعمال البربرية ؟

فتبسم بوريس وقال — لاينبغي للمرء ايًا كان ان يتعدّى حدود خدمته وواجباتهِ . فالملك حرٌّ في اعماله وتصرّفاته . حرٌّ ان يدني منهُ من يشاء ويقصي عنهُ من يشاء . ومن انا حتى اجعل نفسي رقيباً على اعماله واتطاول الى مالا يعقبني الاّ المذلة والهوان ؟ واما فرقة رجال الحرس فمهما يكن من امرها فهي انما نشأت وكبرت بامر الملك واختياره . وزد عَلَى ذلك ان المملكة كلها للملك فما يتخذه لنفسه فهو له وما يبقيهِ للرعية فهو لها من كرمه واحسانه

فقال الامير — لله درُّك ما اكثر تحذرك . ولكن هولاء الحرّاس قاموا ينهبون البلاد ويجتاحون العباد بتوحش لم يسبق له نظير . حتى ان التتر لما تسلطوا عَلَى البلاد دهراً طويلاً لم يجروا فيها شيئاً بالنسبة الى مايجريه هولاء الخونة المفسدون . وهم مع هذا لا يوخذون بجريمة ولا ينزل بهم عقاب . فما هذه الاعمال الجهنمية ؟ وعَلَى كل فالواجبات تقضي عَلَى من كان مثلك حائزاً عَلَى رضى الملك ان ينبههُ ويطلعه عَلَى الاقل عَلَى هذه الاهوال والشدائد

قال — ان شرور العالم لا تحصى ايها الامير وليس جنود الحرّس هم وحدهم سبب هذه الشرور . وهب اني نبهت الملك الى بعض ما يجريه هؤلاء الرجال فماذا تكون النتيجة ترى ؟ لا شك ان الجميع يقومون في وجهي و يقاومونني باشدّ قواهم فلا يلبث الملك ان يغضب عليّ

قال — هذا لا يهمك حينئذٍ لانك تكون قد فعلتَ الواجب وقمتَ بعمل مبرور حسب ذمتك وشرفك . لانهُ حرام ان نرى الابرياء يمزّقون بانياب الاشرار المخاتلين ولا نمدّ يداً لانقاذهم

قال — اني اودُّ من صميم القلب ان اقول الحق على الدوام ولكني انتهز الفرص الملائمة واجري في ذلك بكل حذرٍ وتأنٍ كما حدث في قضيتك ليلة امس . وزد عَلَى ذلك فالقائد الفرد اذا كان في حومة القتال وحده بدون جيش فماذا ينتظر ان يعمل؟ فلو رايتَ ايها الامير اربعين لصاً قد هجموا عَلَى بريءٍ فماذا كنتَ تصنع ؟

قال — امتشق للحال حسامي وابادر لاغاثة البريء ولو فقدت في سبيل ذلك نفسي . لان المروءة تقضي عَلَي كل انسان بالاخذ بثأر البريء المظلوم

فنظر اليه بوريس مندهشاً وقال — أوَ تجود بروحك في مثل هذا السبيل؟ ولكنك مهما استبسلتَ وجاهدتَ فلن يتأتى لك ان تخلص البريء وربما قتلتَ من اللصوص خمسةً او عشرةً ولكن اخيراً يذهب جهادك عبثاً لان الباقين منهم لا بدّ ان يظفروا بك عاجلاً او آجلاً ويمزّقوا ضحيتهم إرباً إرباً ثم يلحقونك به

قال — عَلَى المرء ان يسعى في سبيل الواجب وليس عليه ان تتمّ المقاصد . وخيرٌ للمرء ان يموت في سبيل الواجب من ان يكون في ذروة المجد يرى الفظائع والجرائم وهو وادع مستريح يخشى ان يساعد المظلومين ويدفع عنهم شرّ الظالم

وبعد صمت قليل كان كلٌّ من الصاحبين يناجي في اثنائه افكاره لم يشعرا الا بفارس قد جاء الى المنزل بسرعة البرق . فأطلاّ من نافذة الردهة حيث كانا جالسين واذا بميخيتش خادم الامير نيكيتا قد دخل الى فناء المنزل وهو يحثُّ جواده والعرق يتصبب من جبهته كالمطر . فادرك الامير ان خبراً سيئاً او في غاية الاهمية استقدمهُ اليه عَلَى تلك الحالة . اما ميخيتش فحالما رأى سيده مطلاًّ من النافذة صاح بأعلى صوتهِ قائلاً — انتَ يا مولاي جالس هنا تاكل وتشرب ولا تعرف ما هو جار من عظائم الامور . فقد شاهدتُ الان وانا عائد في طريق ريازان وموسكو ماليوتا سكوراتوف ومثى خومياك وبينهما فارس موثق اليدين

مسدود الفم وهما يسوقانه بمنتهى السرعة وفي نيتهما الفتك به . وهذا الفارس المسكين هو ولي العهد نفسه وقد عرفته بالرغم عن اجتهادهما في اخفائه

فلما سمع الامير نيكيتا ذلك شعر ان الارض تميد تحت قدميه . فالتفت الى بوريس غودونوف وقال وهو يرتجف من شدة الانفعال — ماذا ننتظر بعد ؟ ثم هرول بسرعة البرق الى الدار فاختطف مقود الجواد من خادمه وركبه وسار . فاراد ميخيتش ان يتوقفه بقوله — لا تركبهُ ياسيدي لانهُ بلا سرج ولا يصلح لركوبك فانتظر ريثما احضر لك جواداً آخر يليق بشانك ولا سيما لانك ذاهب الان الى القصر . بيدَ ان الامير لم يسمعه بل سار ينهب الارض لا يلوي على شيء وهو يودّ ان يطير طيراناً . ولم تكن وجهتهُ الى قصر الملك كما زعم خادمهُ بل ذهب في طريق موسكو وريازان وراء ماليوتا سكوراتوف وقد نسي انهُ اعزل من السلاح . ولكنهُ لم يلتفت الى شيء وقد آلى على نفسه ان يفدي ولي العهد بروحه ولا يدع الاشقياء يمسونه بشيء . وكان بوريس ينظر اليه من بعيد وهو يعجب من كرم طباعه وطيب فطرتهِ . وقد رأى نفسه هذه المرة صغيراً حقيراً بالنسبة اليه . فازداد اعتباراً له وميلاً اليه وشعر لاول مرة بحلاوة الجهاد في مثل هذا السبيل القويم وحسد الامير نيكيتا على ما اختصهُ به الله من المزايا السامية والخلال الشريفة حتى صار كانه مجمع الكمالات . وظلّ بوريس حصةً كبيرة من الزمن وهو واقف في مكانه تتنازعهُ عوامل شتى وتأملات مختلفة

الفصل التاسع والثلاثون

(المعركة)

وفيما كان الامير نيكيتا على الحالة التي مرّ ذكرها كان ماليوتا جادّاً في السير وهو كلما سار شيئاً يتلفت الى جميع الجهات كانهُ يتوقع محذوراً او يخشى رقيباً . اما رجاله الحرّاس فلم يكن احدٌ منهم يعرف شيئاً عن هذا المجرم الذي يقودونه . ولكنهم كانوا مندهشين من مبالغة ماليوتا في اخفائهِ ومن طول هذه المسافة التي

فُرض عليهم اجتيازها للفتك به · ولو دروا ان الفارس الموثق في ظهر جواده بين ماليوتا ومتى خومياك هو ولي العهد لتقهقروا مذعورين خوفاً وهلعاً · غير انهم لم يهتموا لمعرفته اذ لم يكن يهمهم شيء سوى سفك الدماء وتتميم اوامر زعمائهم واوليائهم

ولم يكد ماليوتا يصل الى غياض الجاهلية حتى سمع وقع حوافر خيل بعيدة · فاجفل وسأل متى — يخيل لي اني اسمع وقع حوافر خيل مسرعة وراءنا فمن ترى يكون هذا ؟ فاصغى متى قليلاً ثم قال — لاتخشَ شيئاً ياسيدي وانما هذا صدى وقع حوافر خيولنا · فقال ماليوتا — اسرع اذاً لئلاً يندم الملك فيرسل يستدعينا قبل انجاز عملنا وانفاذ ما أُمرنا

ولم يكن الاَّ القليل حتى تغلغل القوم بين اشجار الحرش وسلكوا الطريق المؤدية الى الغياض · فوقف ماليوتا هنيهة وقال لمتى — يخال لي اني اسمع وقع حوافر جواد يطارد وراءنا وصوتاً ينادينا · فقال متى — انعم بالاً ياسيدي فليس لاحد ان يدركنا وانما هذا الذي تسمعه هو صدى اصواتنا

غير ان ماليوتا لم يسر بعد ذلك الاَّ قليلاً حتى سمع صوتاً جهورياً يقول — قف يا ماليوتا مكانك · فذعر ماليوتا والتفت ليرى صاحب الصوت واذا بالامير نيكيتا قد ادركهُ وقبل ان يفاتحه بشيء هجم عليهِ كالاسد الضاري و بقوة ساعده ضربهُ بيده علَى وجهه فجندلهُ عن ظهر جواده ثم ترجل فقبض علَى عنقه وجلد بهِ الارض فكاد يحطم عظامهُ ثم استخلص منهُ حسامهُ واراد ان يجهز عليهِ لولا ان متى خومياك قد هجم لنصرة سيده واشتبك مع الامير بعراك شديد · اما رجال الحرس فوقفوا في بادىء الامر مبهوتين كأَن صاعقة نزلت عليهم فهدَّت قواهم وحلت قوائمهم · ولكنهم ما عتموا ان تألبوا وهجموا علَى الامير هجمة واحدة بقصد امساكهِ او قتلهِ ولولا اشتباك اغصان الاشجار لفتكوا بهِ حالاً · وكان الامير قد جندل بعضاً منهم وعزم ان يكافح في سبيل إنقاذ ولي العهد ما دام فيه عرق ينبض وقد تحقق خطر موقفه وايقن انهُ هالك لامحالة

وان هو لكذلك اذ سمع بغتة صفيراً قوياً ثم رأى رجالاً مشاة قد اطبقوا علَى

جنود الحرس مثل الصواعق خرجت من سحائبها فدارت رحى الضرب ولمعت نصال السيوف . فابتهج الامير وشكر الله في قلبهِ وايقن بفوزه . اما هؤُلاء الرجال الذين دبرتهم يد العناية لنصرته فهم العشرون لصاً الذين قادهم بيرستن كما علمت انفاً . وفيما كان العراك مشتبكاً بين اللصوص ورجال الحرس سمع صفير آخر . ثم هجم كورشون برجاله . فاشتدت سواعد اللصوص واقسموا ان يفتكوا بجميع جنود الحرس . وكان توما احد اللصوص قد ابلى في هذه المعركة البلاء الحسن فانهُ كان يجول بهراوته بين الجميع يهوي بها عَلَى الاعداء والاصحاب فيسقطون اكداساً وهو يجيل بصره بين رجال الحرس كانه ينشد ضالةً له . ثم مالبث ان لمعت عيناه وبرقت اسارير وجهه اذ ابصر امامهُ متى خومياك فعرف انه هو الرجل الذي اختطف عروسه . فحمل توما من ساعتهِ عليه ورفع هراوتهُ وضربهُ بها فاصابت الهراوة جواده فسقط ميتاً . فهجم توما عَلَى خصمه ورماه الى الارض وجلس عَلَى صدره وجعل يضغط عليهِ ويعصره وهو يقول — الان تتعلم جيداً كيف تسبي العرائس

وانجلت ثم الواقعة عن سقوط جميع رجال الحرس . وسقط ايضاً عددٌ ليس بيسير من قتلى اللصوص . غير ان ماليوتا كان قد نجا بنفسه وانهزم خلسة

وكان الامير نيكيتا حالما اشتبك القتال انه بادر الى ولي العهد فقاد جواده الى ظل احدى الاشجار . فحلَّ وثقهُ وانزله عن الجواد ونزع من فمه المنديل الذي كان داخله واقام بازائه يحرسهُ . فلما انتهت الموقعة اخذ اللصوص يسرقون الموتى اشياءهم ويمسكون خيولهم الشاردة . اما بيرستن فكان قد عرف الامير بحال وصوله . فلما تم القتال بادر اليه وحياه كصديق مشتاق وهناه بالفوز المبين . فشكره الامير عَلَى بسالته ومروءته وصافحه بلهفة ثم التفت الى ولي العهد قائلاً — احمد الله عَلَى نجاتك يامولاي من ايدي البغاة الظالمين واعدُّ نفسي سعيداً لاني تمكنتُ من خدمتك في مثل هذه الحال . وقد كان بودّي لو ظفرنا بماليوتا اللعين لكنا قطعناه واطعمنا لحمه للكلاب . غير انهُ لن ينجو من العقاب فان جلالة والدك الملك متى اطلع عَلَى هذه الخيانة لابدّ ان يذيقه اصناف البلاء والتنكيل . والشكر

الجزيل لهذا الرجل الباسل (مشيراً الى بيرستن) الذي وصل لنجدتنا ونحن في اشد الحاجة الى مثله

ولما درى بيرستن ان الفتى الذي أُتيح له انقاذه هو ولي العهد بالنفس وقف مبهوتاً يتأمل في حاله ويعجب مما جرى . ثم جثا امامه الى الارض معرباً عن اخلاصه وعبوديته . وكان هذا الخبر قد انتشر بين جميع اللصوص فتركوا القتلى واسرعوا وجثوا امام ولي العهد بملء الاحترام والخضوع . اما هو فبش لهم وقال — اشكر ما اظهرتموه ايها الشجعان من المروءة والاقدام . نعم اني لا اعرفكم ولم أرَ واحداً منكم ولكني عَلَى كل حال — اشكركم غاية الشكر . فقال بيرستن اننا بعملنا هذا ايها المولى لا نستحق شكرك وثناءك لاننا مقيدون بخدمتك . ولو عرفت ان الذي يقوده ماليوتا هو سموّك لكنتُ جئت بمئتي رجل واكثر فلم يكن لذاك الشرير ان ينجو من ايدينا . ولكن لا بأس فسينال ان شاء الله جزاء غدره . واما الان فلدينا خادمه الخصوصي وهو من معارفي السابقين . قال هذا ونادى توما وامره ان يقود متى خومياك . وكان توما لم يزل قاعداً عَلَى صدره يعركه ويعصره . فلما سمع امر الزعيم قام عن خصمه ودنا منهُ بضعة لصوص ليقودوه . وما كادوا يتفرّسون فيه حتي اغربوا في الضحك وهم يقولون : ليس هذا متى خومياك بل هو من رجالنا . هذا خلو بكو . فحملق توما ببصره وهزّ كتفيه وقال لخلو بكو — كيف جرى هذا ؟ ولماذا لم تتكلم حينما كنت فوقك ؟ فنظر اليه خلو بكو وقال وقد صبغ الدم وجنتيهِ — انى لي ذلك وانت كالدب سقطت عليّ وبكل قوتك ضغطت عَلَى صدري وحنجرتي حتى كدت تطحن عظامي طحناً فتباً لك من ابله غليظ . فقال توما — اما انا فكنت اظنك واحداً من رجال الحرس لاني لما ضربتهُ بهراوتي وسقط عَلَى الارض هجمت عليه وفعلت ما فعلت . فنظر اليه خلو بكو شذراً وقال — ولكن ضربتك ايها الاحمق قد اصابتنا كلينا وبدلاً من ان تهجم عَلَى خصمك هجمت عليّ وانسلّ هو هارباً ولم اعد اراه . فقهقهَ الحضور لدى سماع ذلك . ولم يملك ولي العهد نفسهُ من الضحك . فقال بيرستن — يظهر ان التوفيق قد خدم متى خومياك ايضاً كما خدم سيده . فلا بدّ له من مشهد آخر . ثم قال

لولي العهد — والان التمس منك ياسيدي ان تأذن لنا بخفارتك الى جادة الطريق . قال هذا وقدم للامير نيكيتا جواداً مسرجاً وامر رفاقه بالمسير . وكان بعضهم قد ركبوا ماظفروا به من خيول رجال الحرس وساروا يخفرون ولي العهد . ولما صاروا على مقربة من قرية الكسندروفا وقف بيرستن . ورأى ولي العهد توقفهُ فقال — مابالك ياهذا ؟ فاجاب — اظننا اكتفينا من مرافقتك ياسيدي فدعنا نسير في سبيلنا فقد آن لنا ان نعود الى اماكننا وليس عليك من حرج الان . فاستوقفه ولي العهد وقال — اراك مرتدياً لباس الاشراف فقل لي من انت ؟ فتبسم بيرستن وقال — لست شريفاً ياسيدي وانما نحن في هـذه الاحراش والغابات نلبس ماتسوقه لنا الاقدار . فنظر اليه ولي العهد شذراً وقال — ولكن ذلك لا يسوغ لكم ولا بوجه وانت تعلم جزاء مثل هذه الافعال . بيد اني مقابلةً لصنيعك الجميل معي في هذا النهار اصفح عنك واغتفر جميع زلاتك السابقة واذا رافقتني الى القرية واظهرت توبةً خالصة عن كل عمل لصوصي فاني استعطف عليك والدي واحمله على ان يعفو عنك ويجعلك في جملة رجاله . فقال له بيرستن — اشكر احسانك يامولاي . اما الان فيستحيل عليَّ الظهور امام جلالة الملك لان ذنوبي اكثر من ان تعد فضلاً عن انَّ لي رفاقاً كثيرين يعزُّ علي فراقهم فاستودعك الله . قال هذا وانقلب راجعاً يتبعه رجاله . ولم يلبثوا ان اخفتهم اشجار الحرش . فاستغرب ولي العهد امر هذا الرجل وقد اصابته منهُ دهشةٌ عظيمة . ثم واصل سيره وليس معه الاَّ الامير نيكيتا . وما سارا قليلاً حتى لقيهما بوريس غودونوف ومعه شرذمة من الفرسان

اما ماليوتا فلم ينله شيء من العقاب الذي كان يستحقه جزاء غدره ووشايته . بل لبث في عزٍ ونعيم يزداد تقدُّماً ورفعةً و يترنح بخمرة فوزه وانتصاره على اعدائه ومبغضيه وقد اقسم على ان ينتقم من الامير نيكيتا ويذيقهُ الوان العذاب . وظلَّ الملك يميل اليه ويركن الى اقواله ومفاسده ويعتبره خادمه النصيح الوحيد . واما الحادثة التي جرت لولي العهد فقد انتشرت بين جميع طبقات الشعب الروسي ونظمها بعضهم في حكايات شعرية حفظ بعضها الى الان . وفيها يرد ذكر الامير نيكيتا

موصوفاً باشرف الصفات وابدع المزايا بعكس ماليوتا فانه نعت فيها بكل شر وقبح

الفصل الاربعون

﴿ هواجس موروزوف ﴾

بينما كانت هذه الحوادث تجري في اماكنها كان الشريف موروزوف جالساً في ردهة قصره تظهر عليه علامات الانقباض وشرود الفكر · وقد مر عليه اربعة ايام وهو خالٍ بنفسه كثير الافكار قليل الكلام لا يعلم احدٌ ما يطوي وراء اضلاعه من الهموم · وقد انفرد في هذا النهار على عادته · فجلس الى مائدة عليها كتاب كبير مذهب آملاً ان يدفع عن نفسه بقراءته بعض الكآبة والحزن · فاخذ يقلب صفحات الكتاب وهو لا يقدر ان يقرأ شيئاً لتشتت افكاره · فلبث جالساً وعيناه شاخصتان وافكاره سابحة وقد مضت عليه في تلك الحال ساعات طويلة وهو لاهٍ بهواجسه يفتكر تارةً بزوجته هيلانة وطوراً بالامير نيكيتا وحيناً بالامير اثناسي فياز يمسكي ثم يعود فيفتكر بزوجته فيتنهد ويقطّب حاجبيه

ولا بدَّ ان يكون القارىء قد ادرك سبب حزن الشريف دروجينا موروزوف · فانهُ حينما زارهُ الامير نيكيتا بعد عودتهِ من بلاد ليتفا (كما مرَّ ذلك في محلهِ) رأى الشريف ان زوجتهُ هيلانة كثيرة الارتباك شديدة القلق فظنَّ انها شاهدت الامير اثناسي فخافت وقلقت · ولكنه بعد ان شيع ضيفهُ الامير نيكيتا عاد الى مخدعهِ وهو مضطرب الافكار حزين النفس فلم يجد في نفسه ميلاً الى الرقاد · فخرج الى الحديقة آملاً بترويح نفسهِ ودفع اضطراب افكاره · غير انهُ ما سار الاَّ قليلاً حتى بدا له في طرف الحديقة شبح ابيض · فذُعر الشيخ وجمد في مكانه · ولم يلبث ان سمع صوت امرأته فازداد ارتعاشاً لعلمه انها راقدة منذ زمان · فحدَّد بصره فرأى من وراء السياج فارساً وقد دنت اليه هيلانة تكلمهُ · فشعر كأَنَّ صاعقة انقضَّت على رأسهِ ولم يدرِ ماذا يفعل فأَعار اذناً صاغية فلم يسمع الاَّ حفيف النسائم فوقف مبهوتاً وقد جحظت عيناه واعتُقل لسانه فكان كتمثال حجري لا يتحرك حتى ان تنفسهُ كاد ينقطع ليمنع حركة جسمه · وكان

تارةً يظنّ ان هذا الفارس هو الامير اثناسي ڤياز يمسكي وقد تمكن اخيراً من استغواء امرأتهِ وطوراً ينفي ذلك قائلاً في نفسهِ : كلاَّ ان هيلانة لن تميل اليه وهو سبب خوفها وذعرها . فلعله الامير نيكيتا الذي احببتهُ واعتبرتهُ ولداً لي غير اني لا اظنهُ يخون حالاً صاحبهُ وصديق والده و يقابل زوجته تلك المقابلة المنافية للشرف والادب . . فربما كان ذلك احد رجال الحرس او عاشقاً آخر لا اعرفهُ . . فتبّاً للنساء ما اكثر تقلبهنّ واوفر خداعهنّ . . وهل بلغ من هيلانة ان تخونني وتغدر بي هذا الغدر وانا لم أُسيء اليها قط بل عاملتها كل هذه المدة بغاية العناية والانعطاف . فبأي شرع يجوز لها ان تكافىء احساني بمثل هذه الاساءة التي لا تغتفر ؟ . . ولما افتكر بهذا تقدم ليتحقق الامر فرأى الفارس قد انقلب راجعاً عن السياج وراح يعدو بسرعة اما هيلانة فعادت من موقفها ومرّت بجانبه دون ان تراه . فتنهد الشريف وانبعث من صدره نَفَس كالنار ثم عاد الى غرفته وقضى بقية ليلهِ يتخطر في الغرفة ذهاباً واياباً وقد ضاقت الدنيا في وجهه

وفي اليوم التالي تظاهر الشريف موروزوف بانهُ لا يعلم شيئاً من سرّ امرأته وظل يعاملها بالحسنى كسابق عوائدهِ غير انهُ كان مشرّد الفكر مفقود التسلية حزين النفس فتنغص عيشهُ وكثرت هواجسهُ وازدادت مراقبتهُ لامراته وهو يرجو ان يكتشف سرّها و يعرف محبها

ومرّت عليهِ اربعة ايام وهو يزداد اكتئاباً وانقباضاً . وفي اليوم الرابع من هذه الحادثة عاد الامير نيكيتا من قرية اليكسندروڤا الى موسكو فبادر حالاً لزيارة الشريف موروزوف . فاستقبله هذا بالبشاشة والترحاب وهنأه بعفو الملك ورضاه دون ان يبدو علَي وجهه شيء مما كان يجول في صدره . اما هيلانة فلم تخرج لمقابلة الامير لانها كانت منحرفة الصحة فلزمت مخدعها . و بعدان مكث الامير عند الشريف بعض الوقت استأذن وانصرف الى منزله

الفصل الحادي والاربعون

من قِبل الملك

ولبث الشريف موروزوف بعد انصراف الامير جالساً في ردهة قصره تتجاذبهُ تيارات الافكار ٠ وإن هو لكذلك اذ دخل عليه احد خدامه وقال والبغتة بادية عَلَي وجههِ : ان جماعة من رجال الملك يقتربون الينا وفي طليعتهم الامير اثناسي ڤياز يمسكي فهل تامر باستقبالهم ؟

فوثب الشريف من مكانهِ كمن مسهُ سلك كهربائي وقال — وما عسى ان يريد الامير اثناسي من منزلي ؟ فلعله قاصد غير هذا المكان ٠ فاذهب وقف مع رفاقك عند الباب فاذا رأَيتموهم يريدون الدخول الى هنا امنعوهم وقولوا لهم ان مولانا لا يريد ان يرى احداً من رجال الحرَس في بيتهِ

فوجم الخادم ولبث في مكانهِ خائفاً ٠ فصاح بـهِ موروزوف وامرهُ ان يعود ادراجه ويتمم ما اشار به ٠ فقال الخادم — وكيف أَجسر ان اقول لهم هذا ؟ انهم يقطعونني إرباً ٠ وما فرغ من كلامه حتى دخل خادم اخر وقال — يا سيدي ان الامير اثناسي ڤياز يمسكي قاصدٌ قصرك وقد وصل الان احد اتباعه وقال : ان الامير آتٍ اليك من قِبل الملك

فنهض الشريف للحال وامر الخدَم ان يفتحوا الابواب و يستعدوا لاستقبال رُسل الملك ٠ اما هو فتناول صحفة ذهب عليها شيء من الخبز والملح وخرج لملاقاة الضيوف

وكان الامير اثناسي راكباً عَلَى جواد مطهَّم وقد ارتدى ثوباً من الاطلس الابيض يتدلى من عنقه جوهرة كريمة وعَلَى راسه قبعة من القطيفة البيضآء فيها ريشة الماسية تتمايل لدى كل حركة ٠ وكان هذا الامير طويل القامة وضيء الطلعة ممتلىء الجسم اسود الشعر تتدفق من وجهه الجميل علائم النضارة وقوة الشباب ٠ وكان معهُ عشرون فارساً من رجال الحرس وكلهم مرتدون افخر الملابس ٠ وكان يسير وراءه السوَّاس يقودون حسب عادة ذلك الزمان في بلاد

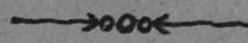
الروس ستة من جياد الخيل بالعدّة الكاملة وامامهُ احد حجَّابهِ يبوّق تنبيهاً للناس
ولما اقترب هذا الموكب من قصر الشريف موروزوف خرج هذا لملاقاته يتبعهُ ذووه وخدامه . وعند ما التقى الفريقان ترجل الامير ورجال الحرس فحياهم موروزوف قائلاً : ايها الامير بما انك آتٍ اليّ من قِبل الملك فانا أبادر لملاقاتك بالخبز والملح وادعوك وذويك ان تشرّفوني على الرحب والسعة

فاجابهُ الامير — ايها الشريف دروجينا موروزوف ان مولانا المعظم الملك يوحنا الرابع قد ارسلني لابلغك عفوه عنك وسلامهُ عليك فأنت منذ الان امام جلالته في مقامك السامي ومكانتك الرفيعة

سمع الشريف موروزوف هذا الخطاب وهو جاثٍ عَلَى ركبتيهِ بتمام الوقار كأنهُ يسمع الملك نفسهُ . فلما فرغ الامير من الكلام نهض الشريف وقال بصوت منخفض يرتجف من التأثر — اطال الله بقاء جلالة مولانا الملك المعظم وسكب عليه جزيل آلائهِ ومتعهُ بدوام النصر . اما انتَ ايها الامير فاهلاً وسهلاً بك وبذويك . أُدخلوا عَلَى الرحب والسعة واسمحوا لي ان انطلق الان الى الكنيسة لاشكر الله عَلَى هذه النعمة

قال هذا وأدخل الضيوف الى ردهة الاستقبال وامر خدامهُ ان يقوموا بواجب الخدمة وارسل واحداً منهم الى منزل الامير نيكيتا يدعوه لزيارته ومشاركته اياه في سروره . ثم انطلق الى الكنيسة المنزلية حيث شكر الله ودعا للملك

اما الامير نيكيتا فحالما بلغه هذا الخبر ابتهج وبادر فركب جواده وجاء بموكب شائق يخفره ذووه وخدامه . لان من عوائد ذلك الزمان — في بلاد الروس — ان لا يسير الامير او النبيل في احوال مهمة او حفلةٍ ما الاَّ متبوعاً بذويه ورجاله



الفصل الثاني والاربعون

المأدبة

لما فرغ الشريف موروزوف من صلاته جاء فتزين ومشط لحيتهُ وبدّل

ثيابهُ . فلبس ثوباً من القطيفة البنفسجية ووضع عَلَى راسهِ قبعة بديعة من جلد سمّور . ثم دخل عَلَى ضيوفه فحياهم بغاية البشاشة والترحاب . فنهضوا جميعاً وقابلوه بمثل تحيته وجلسوا بعد ذلك الى مائدة كبيرة صففت عليها آنيـة المشروبات والمنعشات وابتدأت المادبة . وكان السرور عاماً طافحاً عَلَى الوجوه والجميع يتناولون مما امامهم من اشهى الشراب والحديث في خلال ذلك آخذ من القوم كل مأخذ . فلم ينتبه موروزوف ولا احدٌ من ذويه لقعقعـة اسلحة رجال الحرس التي كانوا يخفونها تحت اثوابهم . بل كان المسكين مهتماً بضيوفهِ يحادثهم و يلاطفهم

وكان القوم قد شربوا انخاباً كثيرةً . فشربوا نخب الملك والملكة وسائر الاسرة المالكة . ثم شربوا نخب كبار رجال الاكليروس فالامير اثناسي فالامير نيكيتا فالشريف موروزوف . واخيراً شربوا انخاب كل فرد من باقي الحضور . ولما فرغوا من الانخاب قام الامير اثناسي وقال — بقي نخب ربّة المنزل فهيا بنـا نشربهُ بمنتهى السرور

فأجفل موروزوف وعاودتهُ في تلك اللحظة هواجسهُ وايقن بان حبيب امرأته لا بدَّ ان يكون حاضراً معهم فصمم عَلَى اكتشافهِ . فقال وقد تظاهر بالسرور — اشكركم ايها الاحباء لانكم تريدون ان تشربوا نخب زوجتي ولكنني ارجوكم ان يكون ذلك بحضرتها . ثم اردف كلامه فقال لاحد الخدَم — قل لمولاتك ان تأتي حالاً الى هنا لتقوم بواجب الضيافة

فأبرقت اسرَّة الامير اثناسي ورجاله واظهروا استحساناً عظيماً . و بعد بضع دقائق دخلت هيلانهُ تتبعها وصيفتان من وصائفها وكان بيدها صينية ذهب عليها كأس واحدة . فنهض جميع الحضور اجلالاً لها ولبثوا حيناً وهم مبهوتون يتفرسون في ذلك الجمال الملكي وكلٌ منهم يتمنى ان يحظى منها بكلمة . وللحال دنا منها احد السقاة وملأ الكأس التي عَلَى الصينية من فاخر الشراب . فشربت قليـلاً ثم طافت عَلَى جميع الضيوف والساقي يترع الكأس كلما فرغت وهي تقدمها لكلٍ منهم بخفض الراس . وكان كل واحد من الحضور يتناول الكاس بنوبتهِ ويشرب نخب السيدة هيلانة

وكان موروزوف يراقب كل حركة تبدو من زوجته ومن كل واحد من الضيوف حتى اذا فرغت من عملها قال — والان يحسن بنا ايها الاصحاب ان نتمم عادة الاجداد القديمة فأسالكم اعتباراً لمنزلي ودليلاً على صفاء مودتكم ان تقبّلوا امرأتي . ثم سأل هيلانة ان تقف في وسط الردهة ففعلت وهي منخفضة الطرف وبغاية القلق والاضطراب

فقال الشريف للامير اثناسي — تقدَّم ايها الامير اولاً

فقال الامير والسرور يرنح معطفيه — اما اذا رغبتَ ايها الشريف في اجراء هذه العادة حسب اصولها القديمة فينبغي لك ان تتقدَّم انتَ اولاً لانك سيد المنزل

فقال موروزوف — اصبتَ . ثم دنا من زوجته فانحنى امامها الى الارض وقبلها فأحسَّ بحرارة شفتيها كأنهما متقدتان بالنار . اما هو فكانت شفتاه باردتين كالجليد

وبعد الشريف تقدم الامير اثناسي . واذ ابصرتهُ هيلانة اطرقت بعينيها الى الارض ولبثت جامدة كأنها صنم من حجر . وكان الشريف يراقب في اثناء ذلك وجهها فلما رآها لم تتغير ولم ترتبك انتفى من ذهنه كل ريب بالامير اثناسي وقال في نفسه : ليس هو المحب المجهول

اما الامير فلما اقترب من هيلانة انحنى امامها الى الارض ثم قبلها قبلةً طويلة لم تحتملها هيلانة فاحجمت الى الوراء وبان عليها الاضطراب والاشمئزاز . فجزم موروزوف بان اثناسي بعيد جداً عن قلب امرأته وانها لا تطيقهُ قط

ثم تقدَّم من ربة المنزل بعض رجال الحرس فكانوا واحداً واحداً يجثون امامها ويقبلونها وموروزوف لا يفتر عن المراقبة . وكأن هيلانة علمت بما يخامر زوجها من الافكار وقد رأتهُ يتفرَّس فيها وفي كل مَن يدنو منها بغاية الانتباه والمراقبة فخافت إن قبلها الامير نيكيتا ان لا تستطيع ضبط نفسها فينكشف امرها ولذلك تظاهرت بالمرض وسألت زوجها ان يأذن لها بالانصراف بدعوى انها لم تعد تقوى عَلَى الوقوف . فقال لها موروزوف وقد ادرك غايتها وايقن ان غريمه

حاضرٌ لا محالة وان امرأته انما تخشى مقابلته — انتظري ريثما يفرغ الجميع فلا بدَّ من تتميم العادة كالواجب . ثم خاطب ضيوفه بقوله تقدَّموا تقدَّموا ولا تبالوا بكلامها فانها حديثة بعد ولا تعرف شيئاً من العوائد القديمة . قال هذا واخذ يتساءل في نفسه : اين الامير نيكيتا ؟ تُرى لماذا لا يتقدّم ؟ .. ولبث يفحص بنظره جميع الضيوف

اما الامير نيكيتا فكان واقفاً عَلَى حدة وقد تراكمت عليهِ التصوُّرات لانهُ عرف غاية الشريف وقرأ في وجه هيلانة الخوف والارتباك نخاف إن هو تقدَّم اليها أن يزيد ارتباكها فيفتضح امرها وان تأخر يجعل في نفس زوجها ريبة به . فلو تمكن ان يقول لها في هذا الموقف كلمةً فقط لأزال عنها كل ارتباك واعاد اليها قواها المفقودة . ولكن انَّى له ذلك وعينا زوجها لا تفارقانها . اخيرًا شدَّد عزمه ودنا منها فانحنى امامها وهو لا يدري أيجعل نظره يلتقي بنظرها ام لا . واما هيلانة فعند اقتراب الامير منها اثَّرت فيها عواطف الحب فالقت نظرها الى الارض وفاض الدم الى وجهها فزادهُ رونقاً وجمالاً . ورأى موروزوف اضطرابها فلم يخفَ عليه شيء ...

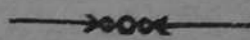
ان هيلانة قد خدعت زوجها لانها اقترنت به دون ان تعلمهُ انها تحب آخر . ولو عرَفت ان زوجها قد شاهدها لدى مقابلتها للامير نيكيتا عند سياج الحديقة ليلاً لاعترفت له بكل شيء . نعم ان حبها للامير هو آية العفاف والطهر غير انهُ لا يليق بها ولا يجوز لها ولا بوجه ان تخفي عن زوجها شيئاً وتخون عهد الزواج المقدس .. فلما دنا الان منها نيكيتا والتقت شفتاه بشفتيها ارتعدت وخارت قواها وصرخت : « رُحماك يا الهي » وكادت تسقط عَلَى الارض لو لم يبادر زوجها الى مساعدتها . ولما ثاب اليها روعها تقدم الباقون فقبلوها ..

وكان موروزوف قد برقت امامه الحقيقة وايقن ان الامير نيكيتا هو حبيب امرأته وانهُ هو الذي قابلها تلك المقابلة الليلية . فمرَّت ضبابة غيظ عَلَى وجهه ثم انقشعت الى حين فعاد الى طربه وسروره وهو يخفي في باطنهِ كمداً عظيماً

ولما فرغ الجميع من التقبيل حيَّت هيلانة وخرجت من الردهة تسندها

وصيفتاها. اما الضيوف فعادوا الى مجالسهم يطربون ويلهون والخمرة تتدفق من الكؤوس فتدور سورتها في الرؤوس حتى اهتز المكان باهتزاز الابدان وعلا بين الجماعة اللغط واشتبك الجدال . وفي خلال ذلك اسرَّ واحد من رجال الحرس الى الامير اثناسي قائلاً — اظن ان الساعة قد دنت فهل تامر بالعمل ? فاجابهُ الامير — صَهْ الان لئلاَّ يسمعك الشيخ (يريد موروزوف) . فقال الحارس بصوت مرتفع — وهبهُ سمع فانهُ لا يدري ماذا نقول . فانتهرهُ الامير قائلاً — اصمت يا هذا وانتظر اشارتي . فقال الحارس — لقد حان الوقت فلا لزوم للاصطبار . ثم وقف يريد ان يعطي العلامة المعهودة بينهما فامسكهُ الامير وأجلسهُ في مكانه بقوة وهو يقول له همساً وعيناه تتقدان غضباً — مكانك ! اجمد مكانك والاَّ اغمدت خنجراً في قلبك . فوقف الحارس وقال بصوتٍ عالٍ وهو لا يعي من شدة السكر — فاذاً انت تريد القتال ? فخذ حسامك وهيا بنا امام هؤلآء الشهود . ثم جعل يقهقه ويشتم

كل هذا والامير نيكيتا يراقب ويسمع وهو كأنهُ في حلم . اما موروزوف فرأى هذه الحركة ولكنهُ لم يسمع شيئاً من الكلام فقام وقال — ايها الضيوف الاعزاء لقد تناصف الليل ولعله يكون قد ادرككم النعاس فاذا اردتم تفضلوا وخذوا نصيباً من الراحة وقد أُعدَّ لكل منكم سرير خاص . فنهض الجميع وشكروا للشريف عنايتهُ ولطفه ثم تفرَّقوا للنوم . ولما اراد الامير نيكيتا ان يخرج استوقفهُ موروزوف قائلاً همساً — لي اليك بعض الحاجة فانتظرني هنا قليلاً . قال هذا وخرج مع الضيوف ثم بادر الى مخدع زوجته



الفصل الثالث والاربعون

استنطاق هيلانة

في اثناآء المأدبة جرى حول منزل الشريف موروزوف بعض حوادث مهمة لم ينتبه اليها احد من خَدَم المنزل . وذلك ان قوماً آخرين من رجال الحرس

كانوا يتواردون زرافات ووحداناًفيكمنون حول المنزل وكلهم مدججون بالسلاح الكامل٠ وما مضى هزيع من الليل حتى اصبح منزل الشريف محاطاً من جميع الجهات بجنود الحرس٠ وكان في خلال المادبة ان خرج من ردهة الطعام حاجب الامير اثناسي متظاهراً بانه يريد ان يسقي جواد الامير٠ ولما وصل الى الاسطبل تلفت الى جميع الجهات٠ ولما لم يرَ احداً يراقبهُ دنا من احد ابواب المنزل وصفر صفيراً خصوصياً فبادر اليه احد الكامنين خارجاً٠ فساله الحاجب—هل تمَّ اجتماعكم؟ فاجابه الحارس من وراء الباب — نعم٠ قال—وكم صار عددكم؟قال—خمسين٠ قال—فاذاً انتظروا العلامة٠ قال—ومتى تعطى هذه العلامة ؟ فقداعيانا الانتظار واشتاقت انفسنا للعمل٠ قال— ذلك منوط بالامير نفسه ولكن حذارِ يامتى ان تنسى ان الامير ينهاكم عن الاحراق والنهب٠ فقهقه متى وقال — لايهمني امرهُ او نهيه لانهُ ليس بسيدي٠ قال — اصبت ولكن سيدك ماليوتا امرك ان تكون هذه الليلة مقيداً بطاعة الامير وخدمتهِ٠ قال— نعم وانا مستعد ان اقوم بخدمته احسن قيام فاساعده عَلَى اختطاف السيدة وبعد ذلك فانا حرٌّ مطلق انصرّف في هذا المنزل الفخيم بل القصر العظيم كما اشاء وليس لاحد ان يناقشني الحساب٠ قال— ولكن الامير لايمزح٠ قال—وانا لايهمني رضي الامير ام غضب وانما يهمني ان في هذا المنزل من الخيرات والغنى ما يشفي غليلي ويملأُ نفسي

وبينا كان هذا الحديث جارياً بين حاجب الامير اثناسي ومتي خومياك كانت السيدة هيلانة في مخدعها تمزّق صدرها التنهدات وتحرق وجنتيها العبرات وقد شردت افكارها وتولاها الياس والقنوط٠ فجلست في سريرها وهي تندب حظها وتلطم وجهها وقد وقع عندهاحادث المادبة اشدّ وقع وصارت تنظر الى المستقبل من وراء غيوم الغموم وتعتقد ان حياتها اصبحت ممزوجة بسموم الهموم٠ ثم مرَّ عَلَى مخيلتها ذكرى حبها للامير نيكيتاوانها لما لم يعدفي امكانها ان تنتظر عودته من ميدان الحرب لجأت الى الشريف موروزوف فكان ابرَّ بها من كل انسان٠ ثم تذكرت قسمها له في الكنيسة بان تظل ثابتة عَلَى حبه لاتنكث عهود الصيانة ولا تجحف بحقوق الزوجية٠ بيدَ انها الان وقد عاد الامير نيكيتا فلم تعد تدري

كيف العمل . ثم غلبتها العبرة فاستخرطت في البكاء ..

وان هي لكذلك اذ دخل عليها الشريف موروزوف وهيئة الغضب بادية على وجهه . فرعبها منظره وذُعرت . اما هو فوقف يفحصها بنظره الحاد ثم قال — اخبريني الان ياهيلانة عن سبب ارتباكك واضطرابك في اثناء المادبة

فارتجفت هيلانة لدى سماعها هذا الكلام وعبثت بها الحيرة والاضطراب وقد فارقها العزم وخانها الجلد . فنظرت الى زوجها بعينين ملأَهما الخوف وهمت ان تجثو تحت اقدامه وتطلعه عَلَي الحقيقة بكمالها . ولكن خفقان قلبها ابكم لسانها فأخلدت الى السكوت وهي تزعم ان زوجها ربما لم يسيء الظن بالامير نيكيتا فخافت عليه

اما الشريف فلما رآها صامتة اعاد عليها سواله وهو لم يغير شيئاً من هيئته ولهجته

فقالت وهي ترتعد — لاني كنتُ مريضة

قال — اجل غير ان مرضكِ لم يكن الاَّ عن انفعالات نفسية

فارتعدت فرائص هيلانة ولم تحر جواباً . واستطرد موروزوف حديثه قائلاً — لما كنتُ هذا الصباح جالساً اطالع في الكتاب المقدس عثرتُ عَلَي بعض ماورد فيهِ عن النساء الخائنات اللاتي يستوجبن عقاباً اليماً على غدرهنَّ فانَّ مَثل من يتخذ واحدةً منهنَّ مَثلُ من يمسك عقرباً

فلما سمعت هيلانة ذلك ارتجفت اعضاؤُها وتخاذلت ركبتاها وقالت — لا تسئ الظن بي ياسيدي فانا بجملتي لك محافظة عَلَي قسمي الذي اقسمتهُ امام الله ان اطيعك واكرمك واحبك

فاجابها بصوت يتهدَّج خشونة — لاتكذبي ياهيلانة لانك بذلك انما ترتكبين إثماً آخر . فانتِ لم تكوني امينةً لي قط بل خنتني وعبثت بشرفي وصدعتِ قلبي ولما اقترنتِ بي واقسمت لي عَلَي الامانة والاخلاص فلمَ لم تقولي لي انكِ تحبين آخر ؟

فشرقت هيلانة بدموعها ولم تقوَ على الكلام

فقال موروزوف وهو يزداد هياجاً وغضباً — فلما ذا اخفيت عني وقتئذٍ انك

تحبينه ؟

فوقفت هيلانة كالصنم وهي لاتبدي حراكاً وقد شعرت ان الارض تموج تحت قدميها · وعاد الشريف الى تتمة حديثه فقال — ولا اظنك تجهلين حالتك السيئة حينما رأيتك في الكنيسة قبل عقد زواجنا وقد كادوا يرغمونك الى الاقتران بالامير اثناسي ڤيازيمسكي فانتشلتكِ من مصيبتكِ وضممتك اليَّ عَلَيّ امل ان تكوني لي امينة · ولم ادرِ اني اتخذتُ لنفسي افعى تنهش لحمي وتلسع قلبي · اجل انكِ وعدتني بالاخلاص والامانة وفي الوقت نفسه كنت تخفين عني حبك لغيري · فلماذا لم تعترفي لي اذ ذاك بضميرك؟ افيسرُّك ان تتحصني باسمي وتنكثي عهدي؟ افما كان الاجدر بك ان تبتعدي عن العالم وتنقطعي الى احد الاديار من ان تخدعي شيبتي وتكدّري صفو حياتي ؟

فجثت هيلانة على الارض وقالت — لم يخطر في بالي شيء مما تتكلم به لانهُ كان آنئذٍ في بلاد ليثفا

فشعر الشريف للحال بضبابة كثيفة قد مرَّت امام عينيه وكأن خنجراً وخزه في صدره ولكنهُ حبس انفعالاته وقال بصوت مرتجف — ومع هذا فانك بعد عودتهِ قابلته في تلك الليلة عند سياج الحديقة حيث جدّدتما العهود بمعزل عن كل رقيب ولم تعلما اني شاهدتكما واطلعت عَلَيّ غدركما · فهذا هو جزاء احساني اليك وولائي له واعتباري اياه بمنزلة الابن الحبيب · وبما انهُ قد تم الان كل شيء فليس لكما الاَّ اليم العذاب وشرُّ العقاب

قال هذا وقد بلغ منهُ الغيظ مبلغه فتناول من الجدار سيفاً كان معلقاً للزينة فاستلَّهُ وتوجه نحو الباب ونار الانتقام تتقد في عينيه · فاسرعت هيلانة لامساكه وهي تقول — ماذا تريد ان تعمل ياسيدي ؟

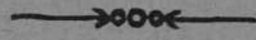
فتبسم موروزوف عن كمد شديد وقال — لا تخافي عَلَى نفسك فاني لا اريد ان اعاملك بسوء وانما اريد ...

وللحال وثبت هيلانة من مكانها فامسكت به وهي تقول — خف غضب الله ياسيدي فليس عليه ذنب وانما انا المذنبة فاقتلني وارحني من هذا العذاب

فدفعها موروزوف عنه ووثب نحو الباب . وما كاد يفتحهُ حتى سمع في الدار ما استوجب انتباههُ . فاصغى واذا به يسمع ضوضاءً شديداً وقد علت الاصوات وتبعها صوت طلق كهزيم الرعد فاحجم الى الوراء وهو كالمأخوذ . اما هيلانة فظنت ان زوجها قد امر بقتل الامير نيكيتا فذُعرت وصاحت — اقتلني اقتلني لاني لا اريد ان احيا بعده . اقتلني لاني خدعتك وغدرتُ بك واما الابرياء فلا تمسهم بشيءٍ

فالتفت موروزوف اليها وهو في غاية الحيرة والدهشة ثم هزَّ رأسه واراد ان يخرج ليتحقق ماحدث فسمع صوتاً يقول — احذر رجال الحرس ايها الشريف موروزوف فانهم هاجمون عليك ويريدون سبي زوجتك

وكان ذلك صوت الامير نيكيتا . فما سمعتهُ هيلانة حتى ابرقت عيناها وسرّي عنها ووثبت نحو الباب كانها تريد ان تراه . فدفعها موروزوف واسرع في اثرها واقفل الباب من الداخل



الفصل الرابع والاربعون

الذئاب الخاطفة

ثم سمع موروزوف وهو داخل المخدع وقع اقدام تتراكض وقعقعة اسلحة وضجة قوية تلاها طعنات متوالية وصياح متواصل فخيل له ان معركة هائلة تجري في داره وهو لا يقدر ان يعرف من امرها شيئاً . وما لبث ان شعر باقتراب القوم الى المخدع وتلا ذلك ازدحامهم حول الباب كانهم يريدون كسره . وفيما هو يتأمل كل ذلك سمع صوت الامير اثناسي ڤيازمسكي يقول له من وراء الباب — افتح ايها الشريف لئلاَّ اقوض منزلك كله

فقال موروزوف وهو يكاد يفقد عقله لشدَّة تأثره — لا اصدّق ايها الامير انك تنوي ماذكرت فلعل الشراب قد اثر في دماغك حتى صرت تفعل مالا تدريه . ولكن لا حرج عليك فانت ضيفي . فالافضل ان تعود الى سريرك وغداً تنسى ولاشك ماصدر منك الان

فقال الامير وقد هزَّ الباب بيديهِ — افتح ودع عنك هذه الاوهام

فقال الشريف — اني اعجب من إقدامك يا اثناسي عَلَى مثل هذه الفظاعة. فاعلم انك امير ولست لصاً. فلا تطمح بصرك الى ما لا يفيدك الاَّ السبة والعار

فقال الامير — ولكني من رجال الحرس وليس فيَّ شيء من الشرف. واعلم اني قد همتُ بزوجتك فلا بدَّ من الحصول عليها مهما اجريت في سبيل ذلك من العظائم

وبعد ذلك دُفع الباب دفعات هائلة فكسر قطعاً وهجم الامير اثناسي الى داخل المخدع وقد امتشق حسامه والدم يسيل عَلَى ثيابه. فالظاهر انهُ لم يصل الى مخدع هيلانة الاَّ بعد معركة عنيفة. فلما رآه موروزوف على تلك الحالة صوَّب غدارة كانت بيده الى صدره واطلق النار ولكن خانتهُ يده فلم يصب الامير باذىً بل هجم من ساعتهِ عَلَى الشريف وتبعه بعض ذويه فاصيب موروزوف بضربةٍ من حسام احدهم افقدته شعوره. اما الامير فهجم من فوره عَلَى هيلانة. وما كاد يمسها بيديهِ الملطختين بالدماء حتى طار صوابها فصاحت بصوت كانه قطع احشاءها وسقطت الى الارض لاتعي شيئاً. فاحتملها الامير بين ذراعيهِ وخرج مسرعاً من المخدع فامتطى جواده وراح ينهب الارض عائداً من حيث اتى وهيلانة امامه فاقدة الشعور. اما رجال الحرس فقد ركب بعضهم وساروا وراء الامير وبقي الاكثرون في منزل الشريف موروزوف يحرقون و ينهبون وقد جمعوا من المال والآنية الذهبية والفضية والالبسة الثمينة والحلى والمجوهرات وغير ذلك مما لا يقدَّر ووقفوا حول تلك الخيرات ووجوههم طافحة سروراً ومتى خومياك يروح ويجيء وهو يقول — انها والله لغنيمة باردة

فقال له احد رفاقه — رأيت الان بعض خدم هذا المنزل قد حملوا سيدهم الشيخ موروزوف وعبروا بهِ النهر افنلحقهم ؟

فاجابهُ متى — دعهم وشانهم لان ذلك لايهمنا

ثم قال آخر — وماذا تريد ان نفعل بالامير نيكيتا ؟

فاجابهُ — كنتُ اودُّ ان اروي خنجري من دمه ولكن الافضل ان نسوقهُ الى قرية الكسندروفا لينال هناك جزاء ماجنته يداه افلم تروا كيف انهُ

ضرب الامير اثناسي بحسامه حتى كاد يخطف انفاسه ثم قتل من رجالنا سبعة ؟

قالوا — نعم نعم رأينا كل ذلك

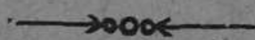
قال — افتكونون شهوداً عليهِ ؟

قالوا — بلا شك فلا لزوم للسؤال

قال — اذاً لاتؤذوه بل ابقوه موثقاً بالاغلال ولا تغفلوا عن مراقبته ومتى سقناه الى القرية وشاهده سيدي ماليوتا فانه يطير فرحاً ويشكرنا على هذه الهدية النفيسة لانه لايزال يترقب الانتقام من هذا الامير لاسباب مهمة لاتعلمونها

ولبث رجال الحرس يضرمون النار في جوانب المنزل وينهبون كل ماوصلت اليهِ ايديهم من التحف والاثاث حتى لم يعد في امكان خيولهم ان تحمل زيادة . . وهكذا سقط ذلك القصر الشاهق وراح طعاماً للنار . فويلٌ للظالمين الاشرار من الديان الجبار

اما سكان تلك البقعة من معارف الشريف موروزوف وجيرانه فقد رأوا ماحلَّ بقصر الشريف من الحريق والدمار فبكوا اسفاً وحزناً ولكنهم لم يجترئوا ان يتصدوا لمقاومة رجال الحرس بل بادروا فاوصدوا ابواب منازلهم وفرائصهم ترتعد فرقاً وقلوبهم ترتجف خوفاً وهلعاً وهم يتضرَّعون الى الله ان يرحمهم ويردَّ عنهم كيد الظالمين



الفصل الخامس والاربعون

كم ظبيةٍ تنجو وصيادٍ يقع

اما الامير اثناسي فياز يمسكي فظلَّ يعدو مسرعاً وهو لايلوي على شيء وقد سبق رجاله بعدة فراسخ وفي نيتهِ ان يصل الى ضيعة قريبة حيث كان بانتظاره بعض اعوانه اقامهم هو هناك ليستلموا هيلانة ويحملوها الى جهات ريازان . ولكنه ماسار قليلاً بعد ذلك حتى رأى انهُ قد ضلَّ الطريق وسار في جهة اخرى . وقد شعر ان جراحه التي لم يهتم بها في اثناء هياجه لا تزال تقطر دماً واحسَّ منها بآلام شديدة فاوقف جواده وقال لهيلانة — ان رجالي ايتها السيدة قد تأخروا

كثيراً .فلا بدّ من الانتظار

وكانت هيلانة لاتزال الى ذلك الوقت فاقدة الشعور غير انها لما وقف الجواد فتحت عينيها فرات عن بعد حريقاً هائلاً ثم ابصرت الحرش والطريق ثم شعرت انها ملقاة عَلَى ظهر جواد تمسكها يدان قويتان . فجعلت تنبه دماغها لتتذكر وقائع الليل فتذكرت المادبة وحفلة التقبيل وما لبثت ان عرفت الامير اثناسي وسمعت صوته . ولو زلزلت الارض تحت اقدامها لما ارتعدت وارتجفت اكثر من تلك الدقيقة الهائلة . ثم صاحت من الخوف واغمضت عينيها

فنظر اليها الامير وقال لها وهو يتبسم — عجباً يا هيلانة فما الذي يُخيفك مني وانا احبكِ حباً يفوق العبادة لان كل قوى قلبي ونفسي قد اجتمعت عَلَى حبكِ وتحرّكت بكِ وحدكِ فلا تنفري مني وقد صرت في حوزتي فستكونين معي اسعد من ملكةٍ تحسد وستقضين حياتكِ في تمام الراحة والسرور . فأزيلي من صدركِ ما كنتِ تضمرينه لي من النفور والكراهة وكوني سعيدة

فاجهدت هيلانة نفسها وقالت له وهي ترتعد من شدة الاضطراب : اذا لم يكن فيك ذمة ايها الرجل فاذكر عَلَى الاقل انك امير وعار عليك ان تفقد شرفك وتلتحف بهذه الوصمة التي لاتمحى

قال — اني فقدت كل شرف وكل حياءٍ وقد بعت كل شيء حباً بالحصول عليك يافاتنتي فنظرة منك تشرح صدري وتملكني ناصية الكون وتنيلني اوج السعادة

قالت — خف غضب الله ويوم الموقف الرهيب ولا تهلك نفسك

قال — لقد مضى الوقت ايتها المفدّاة فنفسي هالكة لامحالة . لان من يكافىء الخبز والملح بمثل مكافأتي فلا يرجونّ خلاص نفسه . والخلاصة فانا في هذه الليلة قد فقدت نفسي وشرفي ولم يعد لي مطمع في الرجاء والرحمة . وثقي باني لاار يد سعادة الفردوس بجانب رضاكِ والحصول عليكِ فانت بغيتي الوحيدة في العالم كله وسأموت عَلَى هواكِ

قال هـذا وقد شعر بانحلال قواه لان الدم لم يزل يتدفق من جراحه وهو لايدري ماذا يعمل . اخيراً اظلمت عيناه وكاد يغيب عن الوجود . فتجلد وعاد

الى الكلام فقال — اني اشعر الآن ان ساعتي قد دنت فقد نزف دمي ولا سبيل الى ايقافه . وقصارى ما ارجوه منك يا هيلانة ان تجيبني ولو في هذه الدقائق الاخيرة فقط حتى لا اسلم نفسي للشيطان عبثًا . فاشفقي عليَّ يا فاتنة قلبي وقاتلة نفسي . واراد بعد ذلك ان يضمها الى صدره فخانته قواه ووقع اللجام من يده فسقط على الارض واستوت هيلانة على ظهر الجواد وارادت ان توقفه فجمح بها وراح ينهب الارض وهي لا تقوى على ردعه فتمسكت بشعره واستسلمت لارادة الله . اما الجواد فعدا بها في تلك الغابات . ولم تكن هيلانة ترى غير الاشجار وظلالها . ثم صارت تسمع صوتاً بعيداً لم تلبث ان عرفت انه صوت حجر طاحون في تلك الجهات . ثم رأت ضوءًا ضئيلاً والجواد يسرع الى جهته . وبعد قليل وقف الجواد بغتة فشعرت هيلانة ان ضبابة كثيفة قد غشيت عينيها فسقطت الى الارض على بقعة من الحشيش الاخضر

الفصل السادس والاربعون

الطحان

ولما فتحت هيلانة عينيها رأت نفسها على بساط من الكلاء الناعم تحت الاشجار الوارفة الظلال بين الروائح العطرية وخرير المياه فظنت لاول وهلة انها في حديقتها ومن حولها وصائفها يضفرن شعرها في ذلك اليوم الذي أبصرت فيه الامير نيكيتا عائداً من بلاد ليتقاه فرفعت رأسها لتناديهنَّ ولكنها بدلاً من ان ترى وجوههنَّ الغضة ابصرت شبحاً بلحية بيضاء كالثلج قد انحنى فوقها وهو يتأمل وجهها ويقول : عجباً ماذا ارى ? فهذا جواد الامير اثناسي ڤياز يمسكي اما هذه السيدة فمن تكون ? ولا غروَ ان حملها الجواد الى هنا لانهُ قد تعوَّد المكان

اما هيلانة فما رأت الشيخ وسمعت صوتهُ حتى ذُعرت وظنته احد آلهة الحرش ولما ملكت روعها وقفت على قدميه وقالت : ابتهل اليك ايها الشيخ الجليل ان تغيثني وتخبئني عندك ان كان في قلبك موضع للرأفة

ولم يكن هذا الشيخ سوى الطحان الذي عرفه القارىء من بعض الفصول

السابقة . فلما سمع كلام هيلانة ورأى ماهي فيهِ من الكآبة والحزن اخذته عليها الشفقة وعزم عَلَى اغاثتها . وقد خطر له للحال انها ربما تكون زوجة الشريف موروزوف التي هام بها الامير اثناسي وكان يختلف اليهِ في كثير من الاوقات ويطلب مساعدته للحصول عليها لانها لم تكن تميل اليهِ . فلعلها الان بعد حادثة مهمة قد فرَّت من الامير عَلَى جواده الخاص . ولما خطر له كل ذلك هشَّ لهيلانة وبشَّ وقال لها — ليكن الله معكِ ايتها السيدة فلا تحزني وثقي باني سأحميكِ وأُواريك عن كل انسان غير ان الامير اثناسي شديد المراس فاذا عرف اني وجدتك واخفيتكِ فما جزائي منهُ الاَّ القتل

فتفرست فيه هيلانة وقالت له وهي متعجبة من امره — افتعلم اذاً من انا؟

قال — كيف لااعلم وانتِ السيدة هيلانة قرينة الشريف دروجينا موروزوف فلا يخفى عليَّ شيءٌ من احوال الخالق ولئن كنتُ في هذه العزلة . لاني لاافتر عن النظر الى ابراج السماء ومراقبة مطالع الكواكب وهكذا اعرف حوادث الغيب وغوامض الاسرار

قالت — اذا كنت تعرف كل شيء فلا يخفى عليك اذاً ان لاخوف عليك من الامير اثناسي فانهُ ملقى ً الان في بعض اطراف الحرش مضرَّجاً بدمائهِ . اما انا فغير خائفة منهُ وانما خوفي من رجاله وذويهِ فاسألك ان تشفق علي وتنجيني

فاجفل الطحان عند سماعه ذلك وقال — وما ذا حدث له ؟ ولكني اعلم ان الامير اثناسي لن يموت بضرب الحسام فقد كتب له انه سيلاقي حتفهُ بغير ذلك وعليهِ فانهُ سيقوم معافىً ويبادر الى البحث عنكِ في كل مكان فكيف تكون حالي معه اذ ذاك ؟

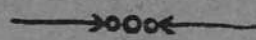
فمدَّت هيلانة يديها الى عنقها فانتزعت جوهرةً بديعةً كانت معلقةً فيه فناولتها للطحان قائلة — خذها والطف بي ووارِني كيف شئتَ بشرط ان لاتخبر احداً من البشر بوجودي عندك ولا تدع مخلوقاً سواك يرى وجهي . واذا احسنت العمل فسينالك غير هذه المكافأة

فابرقت عينا الطحان عند مارأى الجوهرة فتناولها وجعل يقلبها بين يديهِ عَلَى

ضوء القمر ثم التفت الى هيلانة بوجه يطفح بشراً وسعادةً وقال — طيبي نفساً وقرّي عيناً فاني اعدك ببذل الجهد في مواراتك ولا اضن في سبيل ذلك ولو بحياتي فلا تجزعي وعلى الله الاتكال

ولم يكد الشيخ يفرغ من كلامه حتى سمع في الحرش وقع اقدام فاجفلت هيلانة وقالت اخفني ايها الطحان اكراماً لله فها هم آتون الى هنا

فقام الطحان لساعته وقال لها — لا تخشي بأساً ياسيدتي . ثم قادها بيده الى غرفة في الطاحون فاجلسها وراء بعض العدول وخرج من الغرفة فأقفل الباب عليها من الخارج وبادر الى الجواد فاقتاده الى جهة اخرى وراء الطاحون وعاد الى حيث كان مع هيلانة فسمع وقع حوافر واصواتاً تقترب الى جهته فاسرع الى مرقده واطفأ مصباحهُ



الفصل السابع والاربعون

رجال الامير اثناسي

وما كاد الطحان يختفي حتى ظهر في تلك البقعة رجال الامير اثناسي وقد حمل بعضهم الامير على حرج اي شبه نعش . ولما انتهوا الى الطاحون وقفوا فوضعوا الحرج على الارض وترجل الباقون . فقال احدهم — انا اؤكد ان الجواد قد قصد هذا المكان لاني رأيت آثاره

وقال آخر — سنبحث عنهُ بعد ان ننظر في حالة الامير فهل انقطع الدم ؟

فقال آخر — كلا فانهُ لا يزال يسيل من جراحه كمن قربة فاذا لم يتمكن الطحان من قطعه فالمصاب جسيم

وقال غيره — فعلينا اذاً بالطحان

فتقدم بعضهم الى باب الطاحون وصاروا يقرعون بعنفٍ شديد . فتناوم الطحان ولم يجب . اما هم فاخذوا يشتمون ويتوعدون ويرفسون الباب بكل قواهم . وما لبثوا ان سمعوا سعالاً متقطعاً ثم ابصروا رأس الطحان قد برز من احدى النوافذ وقال — من انتم ياقوم وما غرضكم في مثل هذا الوقت ؟

فاجابهُ بعضهم بغضب شديد — اخرج ايها الساحر سريعاً وبادر الى ايقاف الدم من جراح الامير اثناسي فانهُ قد اصيب بضربة حسام شديدة كادت تقضي عليه وقد احضرناه اليك مثخناً بالجراح ومغشياً عليه من شدة النزيف

فقال الطحان وهو يتظاهر بانهُ لم يسمع اسم الامير — واي امير تعنون ؟

قالوا — تباً لك من احمق . فالامر يقتضي عجلةً كلية وهو يتساءَل ولا يتحرَّك . اكسروا الباب ايها الاخوان واسحبوا الى هنا هذا الشيطان الرجيم

قال — عَلَى رسلكم يا احبائي فها انذا خارج اليكم ولا لزوم لكسر الباب

قالوا — هلم اذاً بالعجل فاقلُ ابطاءٍ ربما يذهب بحياة الامير

وما كادوا يتمون كلامهم حتى خرج الطحان من مرقده وهو يقول — لا تسخطوا عليَّ يا سادتي فاني كنتُ مستغرقاً في النوم وقد ضعف في هذه الايام سمعي فلم اسمع نداءكم ولما قرعتم الباب خفتُ خوفاً لا مزيد عليه اذ ظننتكم لصوصاً فانهم كثيرون في هذه الجهات و . . .

فقاطعهُ احد الرجال قائلاً — حسبك هدراً وانظر الان لعلك تقدر ان تقطع الدم فانهُ يتدفق بكثرة

فتقدم الطحان وتأمل جراح الامير وهو يقول — ومن ضربهُ هذه الضربة الشديدة ؟ فانها لولا رحمة الله لكانت القاضية

فتأفف القوم وقالوا — افتقدر ان توقف نزيف الدم ايها الشيخ ؟

قال — بمنتهى الصعوبة لان الحسام كان مسحوراً

فاجفل الحراس وقال واحد منهم — الان تحققت ظنوني . افلم اقل لكم ان الحسام مسحور والاَّ لما استطاع الامير نيكيتا ان يقتل سبعة اشخاص ولولا العناية لألحق بهم الامير

فاجاب آخر وقال — لا شك في ذلك فمن اين له ان يفعل كل ذلك لو لم يكن حسامهُ مسحوراً ؟

وكان الطحان يسمع ويتدبر هذا الكلام ثم قال — ولو لم يكن الحسام مسحوراً لكنت عَلَى الفور قطعتُ الدم ولكني الان اخشى سوء العاقبة

قالوا — وما الذي تخشاه ايها الساحر ؟

قال — اخشى ان ينعقد لساني فاصير اخرس

فقال واحد من رجال الحرس لاحد رفاقه — هات كيس المال الذي اصابنا من ثروة موروزوف لنضمن لهذا الدجال حلَّ عقدة لسانه . قال هذا وتناول الكيس فاخذ منه قبضة من القطع الذهبية والقاها في يد الطحان قائلاً — واذا انقذت الامير واوقفت الدم فاعطيك قبضة اخرى والاَّ فاخطف روحك

فابرقت اسرَّة الطحان عند نظره الى الذهب وقال — بورك فيك ياسيدي فسأبذل مجهودي لانقاذ الامير من خطر الموت ولو كان في ذلك حتفي انما ارجوكم ان تتنحوا عني قليلاً لانهُ لا يتمُّ لي شيء امام احد . ولما بعدوا عنه دنا من الجريح فقلب النظر فيهِ ثم ضمد جراحهُ وربطها وتلا بعض قراءات يعرفها فانقطع الدم تماماً . اما الامير فتنهد ولم يفتح عينيهِ . فقال الطحان لرجال الحرس — تعالوا الان ياسادتي وانظروا فقد اوقفتُ النزيف وزال الخطر باذن الله . غير ان ذلك سيؤذيني لا محالة وقد بدأت من الان اشعر بيبوسة في لساني

فتقدم رجال الحرس وتفرَّسوا في الامير فرأوا ان الدم قد انقطع والامير ملقىً بلا حراك ووجهه شديد الاصفرار كانه احد سكان القبور . فاخذ كبير رجال الحرس قبضةً اخرى من المال ونفح بها الطحان وقال — خذ ما وعدناك بهِ وستنال اعظم من ذلك اذا برىء الامير تماماً . اما الان فقل لنا الم ترَ جواده قد جاء الى هنا وفي صهوتهِ سيدة ؟ فقد عرفنا ان الجواد انما عدا الى هذه الجهة من آثاره عَلَى الطريق

فحملق الطحان بعينيه وهزَّ كتفيه كانه لم يفهم شيئًا مما قيل له وقد خطر في باله في تلك اللحظة الامور التالية : « لو كان الامير اثناسي معافىً فمن الحماقة ان اخفي عنه هيلانة ولكنه الان عَلَى فراش الخطر ومن يضمن لي حياتهُ ؟ اما الشريف موروزوف فلن يتركني بدون صلة جسيمة اذا اخفيتُ زوجتهُ عن طالبيها . ويظهر ان الامير نيكيتا هائم ايضاً بهذه الحسناء والاَّ لما جاهد في سبيلها ذلك الجهاد الكبير حتى انهُ قتل سبعة حراسٍ وكاد يلحق بهم الامير اثناسي

فاذا عرف ايضاً الامير نيكيتا خدمتي له في هذا الشان فانهُ يغمرني باجزل الهبات»

ولما خطرت في باله هذه التصورات اقسم لرجال الحرس انهُ لم يرَ الجواد ولم يرَ سيدة قط . اما هم فلم يصدّقوه في بادىء الامر ولما حلف لهم الايمان المغلظة صدقوه وقالوا — افتح اذاً غرفةً من غرف الطاحون لنضجع الامير فيها الى الصباح

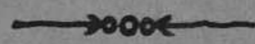
قال — عَلَى الرحب والسعة ياسادتي ولكن ليس عندي علف لخيولكم ولا شراب وطعام لكم وانا اكاد هنا اتضوّر جوعاً . على انكم اذا سرتم بضع دقائق من هنا الى جهة الجنوب فتجدون فندقاً واسعاً يضمن كل انواع الراحة المطلوبة للامير ولكم

وكان الامير لم يزل بدون حراك فتقدم اليه بعض رجاله فحملوه عَلَى الحرج وركب الباقون وساروا جهة الفندق ووقف الطحان يشيعهم بنظره حتى اذا تواروا عاد ففتح الطاحون وبادر الى الغرفة التي اختبأت فيها هيلانة فهناها بنجاتها وسلامتها ثم احضر ماتيسر لديهِ من الطعام والشراب فدعاها والحّ عليها ان تأكل شيئاً فامتنعت . فجلس هو امامها يشرب ويقصّ عليها حديثهُ مع رجال الحرس بخصوص الامير اثناسي ڤياز يمسكي وكيف انه لم يقبلهم عنده للمبيت بل صرفهم الى الفندق خوفاً عليها . ثم شرب نخب الامير نيكيتا وحدثها كيف انه كان سبب نجاتها من الامير اثناسي لانه ضربه بحدّ حسامه ضربات كادت تودي بحياته كما اودت بحياة سبعة رجال من الحرّاس . ففهمت هيلانة ان الطحان مطلع عَلَى حبها للامير نيكيتا وايقنت انهُ ساحر وقد اوجست منه خوفاً عظيماً . اما هو فطمأنها وشرب نخبها ونخب الشريف موروزوف وظلّ يشرب ويحدثها احاديث مختلفة حتى دبت الخمرة في رأسهِ فانطرح عَلَى الارض ونام

ولبثت هيلانة في مكانها وقد تولاّها الجمود وغاصت في تأملاتها وهي تناجي الاشباح التي كانت تتمثل امام مخيلتها وتعيد في ذاكرتها حوادث هذه الليلة وما جرت عليها من الويلات . فتمثلت زوجها الشيخ مضرّجاً بدمائه ينظر اليها بعين الغضب والتوبيخ ويقول «انتِ ياهيلانة سبب شقائي وعلة مصائبي كلها ولو كنتِ امينةً في حقي لاحتملتُ احزاني بالصبر والتؤدة . غير انكِ قد جرّعتِني بخيانتك

سمّا هو امرُّ من الموت» .. ولما تصوَّرت هيلانة ذلك ارتجفت واجهشت في البكاء . وبعد قليل تجلت امام بصرها صورة الامير نيكيتا وتخيلته ممتشقاً حسامه وهو يجول به فيطعن الاعداء ويوردهم حتوفهم . وهو انما فعل كل ذلك في سبيل الدفاع عنها لانه يحبها ولا يبخل بتضحية حياته وما يملك على مذبح عبادتها . ولما خيل لها ذلك اشرق وجهها وتنهدت ولكنها ما عتمت ان اضطربت وقالت في نفسها «آه فقد سحق الشقاء قلبي وكسرت المصائب نفسي ولستُ اري لي راحماً ولا مجيراً . فما الذي ارتجيه من وجودي وما هي آمالي بعد الان ... لا لا ان زوجي لا يتركني ونيكيتا لا يتخلى عني ولكن هذا هو العذاب بعينه ... آه يا موروزوف ماذا حلَّ بك ؟ وانت يا نيكيتا هل تعلم ما انا فيه من التعس والشقاء .. وما ذا يصيبني اذا حلَّ بك شيءٌ من المكروه بسببي؟ آه ما اتعس حظي واشقى حياتي ...»

وظلت هيلانة تندب سوء حظها وهي مقرَّحة العينين ملتهبة القلب حتى انبثق نور الصباح وهي لم تذق غمضاً



الفصل الثامن والاربعون

ميخيتش

وفي ثاني الايام من دمار منزل الشريف موروزوف شوهد في طريق الحرش فارس كبير السن يسير بين تلك الاشجار سيراً حثيثاً وهو من وقت الى اخر يوقف جواده فينصت قليلاً ثم لا يلبث ان يسير وقد شخص بصره وتولاَّه حزن عظيم . ولم يكن هذا الفارس سوى صاحبنا القديم ميخيتش خادم الامير نيكيتا . فانهُ لما رأى ان رجال الحرس قد اوثقوا سيده وقادوه الى قرية الكسندروفا وليس لديه حيلة في انقاذه من هذه الورطة عزم على ان يستجير بالطحان لعله لا يعدم بواسطته وسيلةً تدفع عن سيده المكروه . وقد خطر في باله حديث احد اللصين اللذين انقذهما الامير من ايدي رجال الحرس في قرية ميد فيد فكا حينما كان عائداً من بلاد ليتفا كما مرَّ ذلك في حينهِ . فقد قال له ذلك اللص «اذا احتاج الامير مساعدتنا في شيء فاسأل الطحان عنا ينبئك بمكاننا» . ولما خطر له ذلك

زال عنه بعض الانقباض فركب جواده وراح ينهب الارض وهو يودُّ ان يطير الى الطحان لئلاَّ يفوت الوقت ويقضى الامر . وما زال جاداً في السير حتى انتهى الى الطاحون فترجَّل وربط جواده الى جذع شجرة هناك ودنا من الباب فقرعه ووقف ينتظر . ولما طال به الوقوف اخذ يقرع بعنف وهو ينادي الطحان بملء فيه . فلم يجده ذلك نفعاً . فجعل يلعن ويشتم ويتوعد باحراق الباب . وان هو لكذلك اذ سمع سعالاً خفيفاً ولم يلبث ان راى راس الطحان قد برز له من كوَّة صغيرة فوق الباب . فتبسم ميخيتش وحياه بلطف . فردَّ عليه الطحان التحية وسأله عن غرضه فقال — اما عرفتني ايها الصاحب ؟ فقد بتُّ عندك ليلةً مع سيدي حينما كنا عائدين الى موسكو

فتفرس فيه الطحان هنيهةً وقال — كيف لا اعرفك وقد كنت آنئذٍ مع سيدك الامير فقادكما اليَّ بعض الاصحاب . فما غرضك الان ؟

قال — لي اليك ياسيدي الطحان حاجة مهمة فارجوك ان تنزل اليَّ او تفتح الباب فأدخل وأُفضي اليك بغرضي

قال — لبيك فهاءَ ذا نازل اليك . وبعد قليل فتح الباب وخرج الطحان فاقفله وراءه بكل عناية ثم جلس وميخيتش في ظل بعض الاشجار وسأله عن غرضه فقال — لقد حلَّ بنا ياسيدي مصاب جلل تهون المنية في جانبه وذلك ان رجال الحرس قد القوا القبض عَلَى سيدي الامير وقادوه الى قرية الكسندروفا ولعلهم اودعوه هناك السجن وهو لم يقترف ذنباً ولا ارتكب وزراً بل لانهُ دافع عن الحق وقام بنصرة الشريف موروزوف وزوجته فان اولئك الانذال البغاة قد هجموا على منزل الشريف يريدون اختطاف زوجته

فاظهر الطحان دهشةً عظيمة من هذا الحديث وقال — اجل ان سيدك الامير نيكيتا لفي منتهى الحزن في سجنه وموروزوف في اشدّ الكرب والاضطراب لاختطاف زوجته والامير اثناسي فيازيمسكي في اعظم المحن والعناء جزاء فعلته

فذهل ميخيتش وقال — ومن الذي اعلمك بكل ذلك ؟ فانا لم اقل لك شيئاً

فاجاب الطحان باسماً — وهل تظن اني اجهل كل ذلك ؟ فاعلم ياصاح ان الطبيعة لاتبخل عليَّ هنا بشيء من اسرارها فاني ولئن كنتُ معتزلاً الناس فانا مطلع عَلَى امورهم واحوالهم ولا يفوتني شيء من اسرارهم وخفاياهم

فاطرق ميخيتش وهو يتأمل في هذا الرجل العجيب ويعتقد فيه قوةً خارقةً ثم رفع راسهُ وقال — وبما أنك تعرف الغوامض واسرار الغيب فاسالك ان لاتبخل عليَّ بوسيلة اتمكن بها من الافراج عن سيدي . ولقد قال لي ذلك الرجل الذي قادنا تلك الليلة الى هنا وعرَّفنا بك: « اذا احتاج سيدك يوماً الى مساعدتنا فأتِ الطحان واساله عن بيرستن وهو يرشدك الي » . وعليهِ فالتمس من فضلك ياسيدي الطحان ان تبادر الى اغاثتي وتدلني عَلَى بيرستن المشار اليه فلعله بواسطتك يفرج كربتي وينيلني بغيتي . واذا تم لنا الحظ وانقذ مولاي الامير من سجنه فلن انسى معروفك وفضلك واما سيدي فسيغمرك ولا شك باوفر الهبات واجزل النعم

فهزَّ الطحان راسه ونظر الى الارض وجعل يتمتم ويلفظ اقوالاً مختلطة ثم يرفع راسه فيلتفت الي جميع الجهات ويعود فيتمتم ويبدي من الاشارات والاقوال مادهش له ميخيتش وقد اخذه الذهول الشديد ولبث ينظر الى الطحان وهو يتوقع منهُ حلاً لهذا المشكل او راياً صالحاً فيهِ بعض الفائدة . ولما طال انتظاره سأله عن رايه فقال الطحان — لايسعني ان اخبرك شيئاً فسيكون لك ماتريد ان شآء الله . اما الان فقم وسر في هذه الطريق التي تتخلل هذا الحرش العظيم واياك ان تنحرف يمنةً او يسرةً بل تابع سيرك الى الامام . وبعد مسير خمسة فراسخ ترى امامك بين الادغال كوخاً كبيراً ليس فيهِ احد فانتظر هناك حتى اذا هجم الليل يقبل اليك جمهور من الاصحاب فاسالهم حاجتك وانا هنا اسال الله ان يوفق مسعاك . وعند عودتك عرّج عَلَى الطاحون لان لي اليك حاجة مهمة فقد وقعت سيدة الاطيار في الفخ فتأخذها الى صاحبها وتقاسمني الفدية

ولما قال هذا نهض حالاً وعاد الى مرقده واقفل الباب . اما ميخيتش فلم يفهم شيئاً من كلامه فازداد انذهالاً وناداه قائلاً — اخبرني بربك عن اولئك

الناس الذين امرت ان انطلق اليهم وما شان هذا الطير الذي وقع في الفخ ؟ اني لم افهم شيئاً من كل هذه الغوامض

غير ان الطحان لم يجبه بشيء . ولبث ميخيتش ينتظر الجواب ولكن على غير جدوى . فاحتدم غيظاً وبادر الى جواده فامتطاه وسار ينهب الارض قاصداً الجهة التي اشار اليها الطحان

الفصل التاسع والاربعون

وما جزآء الاحسان الاَّ الاحسان

لم يهتد ميخيتش الى الكوخ الذي اشار اليه الطحان الاَّ بعد الجهد والعنآء وكان قد اقبل المساء فترجل عن جواده وربطه الى جذع شجرة قريبة ثم دنا من باب الكوخ فقرعه ووقف ينتظر ولما لم يسمع احداً رفسهُ برجله دفعات متوالية ففتح ودخل وهو مبلبل الافكار مضطرب الحواس وقد وقف يتأمل الكوخ وما فيه من الاثاث فرأى عَلَى دكةٍ منه اثواباً مختلفة الازياء وفي احدى زواياه بعض الآنيـة وراى ايضاً ايقونةً معلقة في احد جدرانه . وكان الظلام قد ملأ المكان فابصر في الكوخ مصباحاً صغيراً اشعله ثم رقي الى الدكة وتمدَّد وافكاره سابحة في عالم الخيال وقد خامرته المخاوف والوساوس ولكنه القى عَلَى الله اتكاله وبات ينتظر قدوم اصحاب الكوخ . وان هو لكذلك اذ سمع وقع اقدام تقترب الى الكوخ فاستوى عَلَى الدكة وقد ايقن بوصولهم . ولم يكن الاَّ القليل حتى دخل عليهِ رجلان ولما ابصراه استغربا حاله فسألاه عن حاجته فقال لهما — اني اريد مواجهة بيرستن . فقال له واحد منهما — فاذاً انت تريد مواجهة الزعيم فقريباً يصل . وما فرغ من كلامهِ حتى دخل الكوخ بضعة رجال آخرين وعقبهم بضعةٌ اخرى حتى امتلأَ المكان من الاقدام . وفي آخر الجميع دخل رجلان احدهما كهل والآخر شيخ قد وخطهُ الشيب . فقال لميخيتش احد الرجلين اللذين دخلا اولاً — ها هو الزعيم قد حضر ومعهُ العم كورشون

اما بيرستن فما القى نظره عَلَى ميخيتش حتى عرفه فهشَّ له وقال — اهلاً

وسهلاً بك ايها الصاحب فما الذي جاء بك الينا وكيف حال سيدك الامير بعد واقعة غياض الجاهلية حينما قتلنا رجال الحرس وانقذنا ولي العهد فلا بدّ ان يكون الملك قد انعم على الامير بما تستحقهُ شهامته وبسالته

قال ميخيتش متنهدًا — اجل ان انعامات الملك جزيلة ولكن سيدي الامير يكره رجال الحرس كرهاً شديداً فلا يكاد يفرغ معهم من امر حتى يشتبك في غيره اشدّ اشكالاً منه لانهُ يدافع عن الابرياء بكل جهده · فبعد ان نجا من غضب الملك بعد موقعة ميد فيد فكا تعرَّض لرجال الحرس ثانيةً في غياض الجاهلية وخلص وليّ العهد · وامس تصدى لهم ثالثةً فقتل منهم سبعة اشخاص وكاد يقضي عَلَى اميرهم اثناسي فيازيمسكي حبيب الملك واحد زعماء الحرس · الاّ انهم هذه المرة نظراً لكثرتهم قد تمكنوا منه اخيراً فاوثقوه وقادوه الى السجن حيث يكابد الان ولا سيما من النذل ماليوتا جميع اصناف العذاب وهو مثقل بقيوده لايستطيع ان يردّ عن نفسه كيد الظالمين · وهذه المرة اذا لم تساعدنا يد العناية يُقضى عَلَى سيدي القضاء المبرم

فنظر اليه بيرستن مندهشاً وقال — عجباً افلم يعاقب الملكُ ماليوتا عَلَى فعلته الذميمة ؟ وكيف تركه وهو انما اراد اغتيال ولي عهده؟ إن ذلك لمن المدهشات· ولكن هات الان نبحث عما يهمنا · تقول ان الامير نيكيتا في السجن فما الحيلة في الوصول اليه؟

فقال ميخيتش — ذلك موكول اليك وليس من يُعتمد عليه في هذه المهمة الاّ انت · ولقد كنتُ اليوم عند الطحان وانبأتهُ بالواقع فقال لي ان الرجل الذي تقدر ان تستغيث به في هذا الشان هو الزعيم بيرستن وليس غيره · وها انذا ياسيدي التمس من فضلك واحسانك ان تبادر الى مساعدتي وتنقذ سيدي الامير مما ينتظره من عظيم النكال

فاطرق بيرستن هنيهةً ثم قال — او معتقد انت بان الامير قد زُج في السجن ؟

قال — نعم ياسيدي

قال — انا اعرف هـذا السجن جيداً لاني مراراً عديدة ذهبتُ الى قرية الكسندروڤا وتأملته كثيراً غير اني لا اعلم اذا كانت مفاتيحه تحفظ مع ماليوتا ام مع غيره

قال — ان ماليوتا هو امين المفاتيح وليس غيره بيدَ انهُ ليلاً بعد ان يفرغ من تعذيب المسجونين يحضرها الى القصر ويسلمها للملك وهذا يضعها تحت وسادته

فهزَّ بيرستن رأسهُ وقال — ليس الامر بسيطـاً ياعزيزي ميخيتش بل اني اراه مشكلاً وان لم تحدث اعجوبة سماوية فسيدك هالك لا محالة · لانهُ من ذا الذي يستطيع ان ينقذه وكيف السبيل الى ذلك ؟ فلو كانت مفاتيح السجن عند غيره لهان الامر

فانحدرت من مقلتي ميخيتش دمعتان محرقتان وقال — فاذاً لا سبيـل الى نجاة الامير ولم يعد لي مطمع في العيش بعده فسأذهب اليهِ واموت الى جانبه · ثم استخرط في البكآء

فنظر اليه بيرستن وقد تأثر لبلواه وعزم على ان يركب اخشن المراكب خطراً في سبيل انقاذ الامير · فقام للحال وانفرد بكورشون وقال له — تعلم ان للامير نيكيتا علينا ديناً كبيراً فقد خلصنا كلينا من الموت الاحمر وقد حان لنا الان ان نفيهُ هذا الدين فهل توافقني عَلَى ما اريد فعله ؟

فهزَّ كورشون كتفيهِ وقال — انَّى لنا ذلك والامير الان في اعماق السجن وليس لنا ولا سبيل للوصول اليه فان غررنا بانفسنا وسرنا في هذا الشان فلن نفلح مهما ابدينا من البسالة والحيلة بل نكون كمن يبحث عن حتفه بظلفهِ

قال — صدقت ايها الشيخ ولكن ماجزاء الاحسان الاَّ الاحسان فنحن لولا نعمة الامير ماحيينا الى الان لانه لو لم ينقذنا في قرية ميد ڤيد فكا من ايدي رجال الحرس لكانوا منذ زمان قطعونا إرباً إرباً واطعموا الكلاب لحمنا · فكل نقطة من دمائنا انما تجري بفضل احسانه فهو وليُّ نعمتنا وهو المتفضل علينا بالحياة · وها ان الامير الان قد وقع في الفخ فان نحن لم نبادر الى انقاذه ولو بسفك دمائنا فنكون قد عققنا معروفهُ ولم نجازهِ عَلَى خيرهِ واحسانه الاَّ بالنسيان

والاساءة . فالشرف والمروءة ومعرفة الجميل تقضي علينا والحالة هذه ان نتجشم اعظم المخاطر ونركب اشدّ الاهوال في سبيل الافراج عنهُ ولا سيما وهو في مثل هذا الموقف الخطير حيث تندر الاصحاب وتقل الانصار

وكان كورشون يسمع ويتأوّه . فلما فرغ بيرستن من كلامهِ اطرق في الارض ملياً ثم رفع رأسه وقال — لا لستُ اذهب لان ليس من ذلك فائدة ترجى

فقال بيرستن — يالالاسف فقد خابت آمالي فيك ايها العم كورشون . فسأنتظر الصباح فان رايتك لا تزال مصرّاً عَلَى الرفض فلا يعدمني الله رفيقاً آخر . ثم وجه خطابه الى رفاقه اللصوص قائلاً — قد حان الان اوان الرقاد فالذي يستطيع ان يصلي فليصلِ

فقام اللصوص واضطجع بعضهم ولبث الاخرون يصلون ويتضرّعون وقد اكثروا من الجثو والورع ولا سيما توما فانهُ بقي يصلي بعد الجميع . ومن رآه عَلَى تلك الحالة لابدّ ان يعتقد بانهُ اكثر عباد الله صلاحاً وتقوى

ولما رقد جميع اللصوص رأى ميخيتش — وكان لم يزل مستيقظاً — ان كورشون قد نهض من مرقده فدنا من الايقونة وجثا امامها واخذ يقرع صدره ويصلي بمنتهى الحرارة والتخشع والدموع تسيل عَلَى خديه بغزارة . فتعجب ميخيتش من امره وايقن ان لهذا اللص شأناً لايعرفهُ احد من رفاقه . ولما فرغ كورشون من الصلاة عاد الى مكانهِ وقد ساورته هموم وهواجس كثيرة فلم يستطع نوماً ولبث يتقلب من جانب الى جانب حتى بدت طلائع الفجر . فقام ودنا من بيرستن فايقظهُ وقال — اني اتبع لك من ظلك ايها الزعيم نقدني الى حيث تشاء ولو كان في ذلك منيتي

فدهش بيرستن وقد سُرّي عنهُ وقال — وكيف ذلك وما الذي حوّل عزمك وحملك عَلَى مجاراتي في هذا الامر الخطير ؟

قال — افكاري . فقد صار لي اربع ليال وانا لم اذق غمضاً

قال — وهل تسير معي ولن ترجع حتى نصل الى الغاية المطلوبة ؟

قال — هذا مما لابدّ منه ولو رأيت الموت بعيني فانظر ماذا تأمر

قال — بورك فيك ايها العم كورشون فانّ علينا كلينا فرضاً مقدساً لا بدّ من قضائه . فكم بقي من الليل ؟

قال — لم يبقَ شيء فقد انبلج الفجر

قال — ايقظ توما فاننا باحتياج الى مثلهِ في هذه المهمة

وما فرغ الثلاثة من التأهب حتى قام جميع اللصوص فانبأهم بيرستن بانه منطلق مع كورشون وتوما الى قرية الكسندروفا واخبرهم ما ينبغي لهم ان يفعلوا وكيف وفي اي مكان . ثم ودّعهم وودّع ميخيتش وخرج من الكوخ يتبعهُ كورشون وتوما

الفصل الخمسون

❊ في السجن ❊

في سجن مظلم معظمه داخل في الارض كان الامير نيكيتا جالساً مكبلاً بالقيود وهو في اشدّ حالات الكآبة والحزن ينتظر الموت ويرجوه لينجو من الآلام الشديدة التي كابدها وهو في تلك الحالة . ولم يكن يعرف كم يوماً مضى عليه منذ دخوله السجن لان نور الشمس لم يكن ينفذ اليه وهو تحت الارض . غير انهُ من وقت الى آخر كان يسمع قرع الاجراس فعلم بانهُ قد مضى عليه اكثر من ثلاثة ايام وهو في تلك الظلمة المدلهمة . وقد خارت قواه وبرّح به الجوع والعطش لانه لم يدخل فاهُ القوت ولم يذق جفناه الكرى منذ دخوله الى ذلك المكان . فكان جالساً يندب سوء حظه ويتمنى سرعة الحكم عليه لان في ذلك راحةً له ونجاةً من العذاب

وفيما هو مستغرق في تأملاتهِ سمع حركةً بعيدةً فأصغى واذا به يسمع صريف الباب الخارجي للسجن فتنهد واستسلم للقضاء . ثم سمع فتح الباب الثاني . واخيراً فُتح باب سجنهِ فأبصر رجلاً بثياب الجلاَّدين قد دخل وبيده مشعل كبير ثم تبعهُ رجلان آخران عرفهما نيكيتا للحال انهما ماليوتا سكوراتوف

وبوريس غودونوف · فلما اقترب منه وقف ماليوتا امامهُ ونظر اليه وهو يتبسم تبسم الازدراء والشماتة ثم قال له — حُييت ايها الامير العظيم · قال له ذلك بصوت يشبه مواء الهرة وقد دنت من مصيدة الفار

اما الامير فلما سمع ذلك أجفل وصعد الدم الى راسهِ · ولو كان مطلقاً لهجم عَلَى ماليوتا فقطعهُ وسحق رأسه بنعلهِ ولكنهُ نظر الى بوريس غودونوف وقال — اشكرك يا بوريس لانك زرتني في هذا المكان الموحش فهوَّنت عليَّ بذلك الموت الزؤام · ثم مدَّ اليه يده الموثقة وهو يريد ان يصافحهُ · غير ان بوريس احجم عنه الى الوراء ولم يقل شيئاً

فقال له الامير — لم اكن أعتقد فيك مثل هذا الجفاء فلعلك جئت فقط لترى انفاذ الحكم فيَّ · ثم تنهد من قلب جريح وخرجت من بين شفتيه زفرة تدل عَلَى حرارة النار المتأججة في صدره

فاجابه بوريس بملءِ السكينة — لقد جئتُ وماليوتا بامر جلالة الملك لنسمع اقرارك وليس لي معك شأن آخر غير القيام باوامر الملك فلا تزعم اني من مريديك ما دام الملك ناقماً عليك

فلما سمع الامير ذلك اشتدَّ حزنهُ والتهب قلبه ولم ينبس ببنت شفة · اما بوريس فاستتلى كلامه قائلاً — وقد مضى زمن الرحمة والعفو ولا اخالك تنسى قسمك امام الملك بانك تكون خاضعاً لاحكامهِ في كل شيء · فاذا اعترفت الآن بجريمتك دون ان تخفي من تفاصيلها شيئاً فسيحكم عليك بالاعدام السريع والاَّ فانك تتعرَّض للعذاب الشديد · · ثم قال لماليوتا — هيا بنا الان لسؤاله

فقال ماليوتا متبسماً — رويدك يا بوريس فانَّ لي مع سموّهِ حساباً قديماً لا بدَّ من ايفائهِ اياه · قال هذا وامر الجلاَّد ان يقصر القيود الموثَق بها الامير · فركز الجلاد المشعل في الارض ثم شدَّ وثُق الامير شدًّا محكماً · فتقدم ماليوتا وانحنى للامير ثم جثا امامهُ وقال بمنتهى الازدراء — تعطف الان ايها الامير الجليل عَلَى عبدك هذا الذليل الجاثي امامك خاضعاً صاغراً وارمقهُ بنظرك السامي والتفاتك العالي · فانا لم يتح لي قبل الان ان ادنو من امثالك بمثل هذه المهمة

الخطيرة · وانَّى لمثلي ان يدنو منك وانت سليل الامرآء الفخام وفي عروقك دم الكرامة والعظمة وهو كما يقولون ليس كالدم الذي يجري في عروقنا نحن السوقة والعوامّ · فأْذن لي ايها المولى الكريم ان امتع بصري بمشاهدة هذا الدم الشريف لأُتحقق صدق القائلين واتجرَّأ بعد ذلك عَلى العمل

ثم استلّ من تحت ردائه خنجرًا صغيرًا وزحف نحوه · فارتعد الامير ونظر الى بوريس فرآه جامدًا لا يتحرّك · اما ماليوتا فواصل كلامه قائلاً — ثم اسمح لي يا سيدي ان أتخذ من جلد ظهرك سيورًا لحذائي وأجعل لحمك الفاخر طعامًا لكلابي ·· وكان ماليوتا في اثناء ذلك يتلوّن بهيئات مختلفة وصوتهُ يرتفع وينخفض فيحاكي تارةً عواء الذئب وطوراً مواء الهرّ

وكان ذلك اكثر مما يمكن نيكيتا احتماله فودّ لو انقضت عليه في تلك الساعة صاعقة سحقته من ان يسمع مثل تلك الالفاظ وهو مقيد اليدين والرجلين لا يستطيع الدفاع عن نفسهِ بشيء · فأنّ انينًا محرقًا

وكان ماليوتا ينظر اليه وهو في غاية الطرب والحبور · ثم رمى من يده الخنجر وانتصب واقفًا وقال وقد تغيرت نغمة صوتهِ فجأة — والان دعني يا ذا السموّ ان أُفيك الدين الذي لك عليّ ولا اخالك تنسى غياض الجاهلية ·· ثم صرّ باسنانه ورفع يده ليصفع الامير على وجهه · غير ان بوريس وثب اليه فامسك يدهُ قائلاً — حذارِ من مثل هذا العمل فانما نحن قد اتينا الان لنأْخذ اقراره لا لنعاقبه فاذا لطمتهُ فانه يضرب برأسهِ الحائط فيشقه ولا يبقى من نستنطق

فزأر ماليوتا قائلاً — دعني افيه دينه ولا تعترضني بشيء

فأمسكه بوريس بكلتا يديه وهو يقول — تروَّ فيما انت فاعل واعلم باني لا ادعك تجري شيئًا من هذا

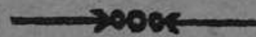
بيد ان ماليوتا كان في تلك اللحظة كوحشٍ ضارٍ ابصر دمًا فهاج وماج ولم يرد ان يفهم شيئًا وحاول التخلص من بين يدي بوريس ليهجم على فريسته فلم يتمكن وقد اشتبك معه بعراك شديد وهو يصيح ويلعن ويتهدد · وفي اثناء ذلك صدم احدهما المشعل فقلبهُ عَلَى الارض وداسهُ بوريس برجله عمدًا فانطفأ ·

فعاد عندئذٍ ماليوتا الى رشدهِ وصاح ببوريس وهو يتميز من شدة الغيظ — اني سأشكوك الى الملك لانك تدافع عن خصمهِ

فاجاب بوريس — وانا ايضاً سأشكوك اليهِ لانك اردتَ ان تقتل السجين قبل الوقوف عَلَى اقرارهِ خوفاً من انتضاح امرك واطلاع الملك على بعض جرائمك الخفية

فلم يجب ماليوتا بشيء بل اسرع بخرج من السجن وهو يشتم ويعربد وقد امر الجلاد بالخروج معه · فانتهز بوريس هذه الفرصة وتقدَّم الى نيكيتا فحلَّ وثقهُ بعض الشيء بحيث صار يتمكن من الحركة ثم قال له همساً وقد ضغط عَلَى يده — لا تقنط ايها الامير فعسى ان يرقَّ الملك لك ويرحمك·· ثم انثنى عنهُ وخرج من السجن واوصد الباب ولم يدرك ماليوتا الاَّ عند الباب الخارجي · فسلمهُ المفاتيح امام الحرَّاس وهو يقول — كيف يجوز لك ان تخرج من السجن من غير ان تقفل الابواب ؟ فربما ظنوا انك من مريدي الامير وانك تسهل له طريق الفرار

وبقي الامير نيكيتا ممدَّداً عَلَى الارض العارية في قلب ذلك السجن الموحش وقد ساد السكون فلم يسمَع في تلك الظلمة سوى ضربات قلبه وزفرات انفاسهِ المتقطعة وهو في تلك الحالة الهائلة التي نترك وصفها لتصور القارئ اللبيب



الفصل الحادي والخمسون

حالة الملك

بينما كانت هذه الحوادث تجري في السجن وقد انتهى امرها الى ما قدَّمناه كان الملك يوحنا جالساً في مخدعهِ مضطرباً ممتقع اللون وقد استولت عليه الافكار وكثرت في مخيلتهِ الهواجس. واهمُّ ما كان يشغل خاطرهُ وقتئذٍ الامير نيكيتا وايداعه السجن ومحاكمته · فكان متردّداً بين ان يحكم عليه بالاعدام او يطلق سراحه : وذلك لانه كان يشعر باعتبار اضطراري لهذا الرجل بالنظر لِما اختبرهُ فيه من

الصفات والاخلاق الشريفة . نعم ان الامير لم ينخرط في سلك رجال الحرس ليكون في جملة اخصاَء الملك بل كان في كثير من الاحوال يناوئهم ويدافع عن الابرياء بمنتهى الجرأة والاقدام . غير ان الملك لم يرَ في كل ذلك ما يدعو الى سوء الظن بهِ . فكان في باطنه يحبهُ ويودّ قربهُ ولم يخامرهُ ريب في اخلاصهِ له . فكان من هذا الوجه موقناً بان نيكيتا لن يخدعهُ ولن يضمر له سوءا بل يحبهُ ويخدمهُ ويعتبرهُ اكثر من الجميع وليس عنده رياء ومداهنة . وقد أعجبهُ منهُ على الخصوص كتمانه لاجراءاتهِ الخطيرة ورغبته عن طلب المكافأة واكتساب الثناء والمدح ثم صدقه الباهر فكان اذا سُئل اجاب حالاً بالواقع من غير تمويه او مغالطة ولو كان في جوابه ما يدعو الى اشدّ العقوبات

ولما خطرت للملك هذه التصورات شعر بارتياح الى الامير نيكيتا وعزم ان يعفو عنه ويجعلهُ ادنى الاخصاَء اليه . ولكنهُ ما لبث ان تحوَّل عن هذا العزم واخذ يبحث في مخيلتهِ عن هفوات الامير ويجسّمها ويؤوّلها حسب هواه . فخطر له ان نيكيتا قد نفر منهُ فلن ينضمّ اليه لانه يمقت رجال الحرس مقتاً شديداً وطالما اشتبك معهم في وقائع دموية مختلفة وألحق بهم اهانات شتى . فهو ضدّهُ من هذا القبيل . وربما اذا بقي حيّاً ينحاز اليهِ جمٌّ غفير من كبراء الامة ورجال التدبير فتقلّ هيبة الملك وتظهر مساوئهُ باجلى بيان وأقبح صورة

ولما افتكر بهذا جزم في قلبهِ بان الامير نيكيتا مجرم وانهُ يستحق الاعدام ارهاباً لغيرهِ من جماعة الامراء والنبلاء . ولم يلبث ان عين اليوم التالي أجلاً لانفاذ الحكم . غير انهُ مع هذا اراد ان يخفف عن الامير وطأة العذاب في هذا النهار فارسل اليه الى السجن بعض المآكل والمشروبات من مائدته الخاصة وامر بان يُحلّ من قيودهِ ويبقى هكذا الى اليوم التالي . وكان هذا تعطفاً خاصاً ندر اظهاره لغير الامير من المجرمين المسجونين

ولكي يطرد الملك عن نفسه السآمة والافكار المزعجة امر باستدعاء جميع الاخصاء والندماء ورجال الحرس للخروج معه الى البرية للصيد والقنص . ولم يكن الاَّ القليل حتى احتشد الجميع فامتطوا صهوات الجياد وساروا الى الجهة التي أمر

الملك بالمسير اليها . وكان الوقت قبل الظهيرة والنهار دافئاً والسماء نقية . ولم يلبثوا ان تفرقوا وراء الصيد جماعاتٍ جماعاتٍ وكلٌ يودُّ ان يرضي الملك بمهارتهِ وحذقهِ

الفصل الثاني والخمسون

الاعميان

ولبث القوم لاهين بالصيد والقنص ساعات طوالاً وهم في منتهى الطرب والجذل . وكان الملك قد نسي ايضاً هواجسهُ وافكارهُ وتشاغل بالصيد والمفاكهة وفيما هو كذلك استلفت نظره مشهد آخر زاده طرباً وفكاهةً . وذلك انهُ ابصر على الطريق أعميين يتوكآن عَلَى العصي احدهما كهل والاخر شيخ بلحية طويلة بيضاء وقد ارتديا الاطمار البالية وفي عنق كلٍ منهما جراب لجمع الصدقات . وكان يقودهما شاب طويل القامة مفتول العضل وقد ارتدى مثلهما الاطمار وحمل لهما بعض آلات الغناء كالمزمار والقيثارة . وكان الاعمى الكهل سائراً امام الشيخ ممسكاً اياه بيده وهما يسيران ويستدلاَّن بعصيهما على سواء السبيل . وكثيراً ما كانا يسقطان ثم ينهضان فيشتمان دليلهما الشاب لانه تركهما وسار وحده . فلما ابصرهما الملك لم يملك نفسه من الضحك وهو كلما طال تأمله فيهما يزداد ضحكاً وتسليةً . ولم يلبث ان قام من مكانهِ ودنا منهما . وما كاد يصل اليهما حتى سقط الاعمى الكهل في حفرة كانت عَلَى الطريق وتلاه الاعمى الشيخ . ثمَّ ما عتما ان خرجا منها وقد توحلت اطمارهما فازدادا حنقاً على دليلهما واندفعا يلعنانه ويسبانه والملك ينظر ويسمع ويقهقه باعلى صوته . واخيراً سألهما — من اين والى اين ايها الرجال ؟

فاجابه الاعمى الكهل — اغرب من هنا ولا تتعرَّض لنا . . فصاح بهِ واحد من رجال الحرس — اخرس ايها الاحمق الا ترى من امامك ؟

فقال له الاعمى — انت احمق وابن احمق فمن اين لنا ان نرى وقد فقد بصرنا؟ اما انت فلك من العيونِ اربع الاَّ اثنتين فتبصر القريب والبعيد ومع هذا فلم تبصرنا . فقل لي الان من هو هذا الذي امامنا ؟

فاشار الملك الى الحارس ان يصمت ثم كرَّر سؤاله عَلَى الاعمى بمزيد اللطف فاجابه — نحن رجال طرب نضرب في بلاد الله قاصيها ودانيها نروي الاحاديث والاخبار والحكايات والاشعار فنسلي الاصحاب ونطرب الاحباب وقد كنا في الاسبوع المنصرم في ميروم والان نقصد قرية الكسندروفا

فقال الملك وقد اعجبه كلام الاعمى — وهل في ميروم من اصحابكم مَن هو مثلك سريع الخاطر جريء الجنان ماهر في هذه الصناعة ؟

فاجاب الاعمى بدون ارتباك — انَّ لنا في هذه المهنة اصحاباً كثيرين ففي ميروم العم ميخا والخالة اوليانا والشيخ نيكيفور يضحكون الثكلى ويسلون المحزون بنوادرهم واخبارهم ولو رأيتهم وسمعتهم يا سيدي لاستلقيتَ عَلَى قفاك وضحكت حتى المسآء

فازداد الملك ضحكاً وطرباً وقال في نفسه : حقاً انهم رجال طرب فلا بأس من استدعائهم هذا المسآء ليسلوني بحكاياتهم ونوادرهم الهزلية فقد مللتُ اخبار رُواة هذه الجهات ولاسيما وانا الان في امس الحاجة الى السلوان . ثم قال للاعمى — وهل تعرفون انتم من الحكايات والنوادر ما يشرح الصدر ويسلي الخاطر ؟

فتبسم الاعمى وقال — كيف لا ونحن امهر اهل هذا الفن ولكننا بسبب ذلك قد أُصبنا مرةً بمصيبةٍ ليست صغيرة وذلك اننا دُعينا الى بيت احد الاشراف لسرد بعض الفكاهات والروايات فقصصنا عَلَى اهله حكاية القائد المهذار وما جرى له مع زوجتهِ من غريب الاخبار وما كدنا نفرغ من الحكاية حتى طُردنا من ذلك البيت عَلَى اسوإ حال ولم يتصدَّق علينا اهله بشيء من المتاع او المال ولما خرجنا علمنا ان البيت المذكور هو للقائد ستاريتسكي وقد روينا حكايته امامه ونحن لا ندري انهُ هو القائد المهذار بالذات

فقهقه رجال الحرس لما سمعوا هذا الكلام لان القائد المذكور كان مُبغضاً من الملك فكان كلام الاعمى سبباً لشماتتهم وزيادة سرورهم

اما الملك فقال للاعميين ورفيقهما — سيروا الان في طريقكم ومتى وصلتم الى القرية اذهبوا توًّا الى القصر وانتظروا عودتي واطلبوا ممن تصادفونهُ هناك من

الخدم ان يطعموكم و يسقوكم وقولوا لهم ان الملك يأمر بذلك وهو الذي ارسلكم . ومتى عدتُ ادعوكم لاسمع حكاياتكم

واذ سمع الاعميان لفظة « ملك » اجفلا وارتعدا ثم سقطا عَلَى الارض وهما يقولان — لا تعاملنا بعدالتك ايها الملك العظيم فاننا لفقد ابصارنا لم نقدر ان نعرفك فلا تأمر بقطع رؤوسنا واحراق ابداننا بل تجاوز عن سيئاتنا واغفر لنا

فضحك الملك وطيب خواطر الاعميين ثم انصرف عنهما فنهضا واستأنفا المسير ودليلهما امامهما يقودهما بيديه . وما زالوا سائرين وهم في كل دقيقة يكبو واحد و يقوم اخر حتى عرفوا انهم تواروا عن ابصار الملك وحاشيتهِ . فوقف اصغر الاعميين والتفت الى جميع الجهات ثم قال لرفيقهِ : لقد قمنا بتمثيل الدور الاول احسن قيام فبورك فيك ايها العم كورشون ما احذقك في تمثيل الاعمى ولعلك تكون قد تعبتَ تعباً مفرطاً من كثرة التعثر والسقوط . ومالي اراك كاسف البال كثير الهواجس فهل ندمتَ عَلَى مرافقتي في هذه المهمة ؟

فقال كورشون — ليس هذا ما يكربني او يخيفني وقد صممتُ عَلَى العمل معك فسأجازف بحياتي وسيان عندي الموت والحياة . واما الذي يهمني وقد اشغل افكاري في هذه الايام عَلَى الخصوص فهو سرٌ لم اكشفه لاحد بعد وربما كشفتهُ لك ايها الصديق ونحن بمأمن عن الرقباء

فقال بيرستن : وما عسى ان يكون هذا السر ؟ افض بهِ اليَّ فان كان همّاً اجتهدتُ في تفريجهِ عنك او حزناً قاسمتكه

الفصل الثالث والخمسون

سرُّ كورشون

قال كورشون — اعلم ايها الصديق انَّ في قلبي حزناً عظيماً تولاَّني منذ عشرين سنة ولا يزال يتفاقم عليَّ حتى لم اعد اطيق صبراً وقد حرمني النوم والراحة والهناء . ومما زاده اشتداداً اني في كل هذه المدة لم ابح بهِ لاحد لا في

جهات نهر ڤولغا ولا في موسكو · وقد ثقلت الان وطأته عَلَى نفسي فلم اعد احتمل الكتمان · وكنتُ فيما سبق حاولت ان اعترف بهِ لاحد رجال الدين لعلّ في ذلك بعض التخفيف لاشجاني فلم اجسر · اما الان وقد صرتُ الى حالة يغلب ان اقضي فيها نحبي فأروم ان اروي لك الخبر لعلي انال راحة بذلك · فهيا بنا نقعد عند ذلك المنعطف ولا احد يرانا ·

فاجابه بيرستن الى طلبهِ وقال للدليل — اما انت ياتوما فابتعد عنا واقعد هناك الى جانب الطريق وكن شديد الانتباه والتيقظ حتى اذا طرأ مفاجئ نبهنا للامر باشارة خفية ولا تنس انك اصمّ ابكم فاياك ان تتلفظ بكلمة

فقال توما — كن براحة من هذا القبيل فسأتمم امرك بكل دقة

فانتهره بيرستن قائلاً — صَهْ ايها الاحمق فلا تكلمنا ايضاً بل تعود الصمت التام لئلاّ تغلط امام احد

فسكت توما وانصرف عنهما فانبطح عَلَى الارض وجعل يراقب كل جهة

فقال بيرستن لرفيقه — نعم ان توما احمق و بليد ولكنه نعم الرفيق في مثل هذه المهمة لانه شديد العضل قوي الساعد امين للغاية فاذا جرى لنا مانكره فانه يهجم عَلَى الخطر قبلنا و يدافع عن حياتنا احسن مدافعة · وهات الان ايها العم كورشون فاخبرني بقصتك

فتنهد كورشون وعرك جبينه ثم قال — تعلم اني لص وقاتل وقد اجريت من الجرائم في زماني ما لا يعدّ ولا يحصى و لم أرحم احداً ممن كنتُ اظفر بهم وهكذا قضيتُ العمر في هذه الاعمال كما قضيتهُ انت حتى الان

فتبرّم بيرستن من هذا الكلام المملّ وقال — واي عجب في ذلك ? فانما نحن لصوص وهذه مهنتنا

فقال كورشون — صدقتَ وانا لا اعارضك في ذلك وانما اسألك هل تشعر انت على اثر كل فعلةٍ بكرب يتولى نفسك و يقبض صدرك كما اشعر انا ?

قال — حسبك ايها العم كورشون من مثل هذا الكلام اذ ليس الان وقته · فانسَ كل شيءٍ ولا تدع الحزن يستولي عليك لاننا الان عَلَى طريق

جهاد عظيم يقتضي شجاعة وطرباً والا فنعود ونحن اخيب من القابض على الماء

قال — اصبت فقد نسيت كل شيء الا امراً واحداً لا يتأتى لي اغفاله ولعلي اذا ذكرته لك يهون علي وقره فاسلوه . وذلك اني منذ عشرين سنة كنت واحداً من لصوص نهر ڤولغا وكان زعيمنا اذ ذاك اللص دانيلو قط . اما انت فلم يكن لك ذكر وقتئذٍ . وقد اجرينا هناك من الاعمال الكبيرة ما هو عنوان البسالة وآية الاقدام . فكنا نسطو على القوافل والمراكب ولا نبقي على احد وكان الزعيم بعد كل حادثة يقسم الغنائم بين جميع اللصوص فلا يدع احداً بلا نصيب . وهكذا كرّت الايام والاعوام ونحن في تلك الجهات على انعم حال واهنأ بال . غير ان شيطان الطمع استولى علي في بعض الايام فعزمت ان انفرد في بعض الاماكن واسطو وحدي طمعاً بالحصول على ثروة كبيرة لا يقاسمنيها احد من الرفاق . ولما غلب علي هذا الفكر قمت في احد الايام فارتديت اطماراً كهذه وسرت منفرداً في بعض الجهات . ثم كمنت في مكان وجعلت ارصد الطريق وانا أمني نفسي بغنيمة طائلة . فانتظرت على هذه الحالة طويلاً حتى اعياني الانتظار ولم ار احداً فخجلت من نفسي ان اعود صفر اليدين وصممت ان ابقى في المكمن حتى المساء . وفيما انا كذلك رأيت امرأة تسير في الطريق وقد حملت بين يديها صرّة كبيرة . فأشرق وجهي سروراً ووثبت من موضعي وهجمت عليها اريد الصرة وانا اظن ان فيها ما يغنيني . اما المرأة فحالما ابصرتني هاجماً على تلك الصورة خافت وصاحت بملء صوتها . فاسكتّها بطعنة من خنجر أغمدته في قلبها ثم تناولت الصرة وعدوت الى الحرش ولما فتحتها رأيت فيها طفلاً رضيعاً وكان بين الموت والحياة . فأظلمت الدنيا في وجهي وأقبلت على نفسي الومها وأُعنفها على هذا المنكر . ثم خنقت الطفل وطرحته بين الاشجار وعدت من حيث اتيت وانا حزين النفس منقبض الصدر . ومن ذلك الحين الى الان وانا في شديد الكآبة والندامة . وهذا هو سبب همومي واشجاني

ثم صمت كورشون وتنهد طويلاً وبقي بيرستن لاهياً بافكاره . وفيما هما كذلك سمعا دوياً نارياً ورأيا نسراً كبيراً مقتولاً قد هوى من العلاء ووقع عند قدمي

كورشون فأجفل والتفت بيرستن الى توما فرآه يشير اليهما بيده فقال لرفيقه — انس الآن ايها العم كورشون كل ما مضى فلسنا الان لصين بل نحن اعميان ومهنتنا تفكيه الناس بالحكايات والنوادر . وها قد اقبل بعض رجال الملك

فهزّ الشيخ رأسه وقال وهو ينظر الى النسر المقتول — ان هذا قد زاد في كربتي وآلامي لانهُ نذير السوء ومقدمة الشؤم

فنظر اليهِ بيرستن وقال بمنتهى الحزن — يظهر لي انك خائف من هذه المهمة فاسألك ان تبقى وانا اسير وحدي الى القرية

فقال كورشون — معاذ الله وكيف أدعك تذهب وحدك وانا حيٌّ أُرزق نعم اني حزين النفس ولكني مصمم على الموت في هذا السبيل المقدَّس الذي ارجو ان يكون كفارةً عن سائر ذنوبي وجرائمي . وقد بقي امرٌ واحدٌ لا بدَّ من اطلاعك عليه ايضاً قبل الشروع في العمل - فهل تعرف قرية البشارة بقرب نهر ڤولغا ؟

قال — نعم أعرفها

قال — وهل تعرف بظاهر هذه القرية سهلاً اسمهُ الدائرة ؟

قال — وهذا ايضاً اعرفهُ

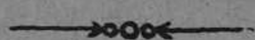
قال — وهل تذكر انك رأيت في ذاك السهل شجرة سنديان قديمة ؟

فاجاب بيرستن وعلامات القلق بادية عَلَى وجهه : نعم اذكر وقد قُطعت الشجرة ولم يبق الاَّ جذعها فما الذي تريده بهذه الاسئلة ؟

قال — اريد ان أقول لك اني لن ارى بعد تلك الجهات ولم يعد يتاح لي ان أُمتع الطرف بمياه نهر ڤولغا لاني اشعر اني ذاهب الى حتفي فلستُ بخارج من قرية الكندروڤا حياً . اما انت فقد يصادفك حظ اسعد مني فتبقى حياً . فاسالك بعد قضاء هذه المهمة ان تنطلق الى جهات ڤولغا . ومتى وصلت الى قرية البشارة سرْ تحت ستار الظلام الى سهل الدائرة وابحث عن جذع السنديانة ومتى وجدته التفت جهة مغرب الشمس وسر خمسين خطوةً . ومتى انتهيت قف واحفر الارض فتجد كنزاً كبيراً لا تستطيع ان تحصيهُ وكنتُ قد طمرتهُ في تلك البقعة في

سابق حياتي . فاذا ظفرتَ به فهو لك وانت حرٌّ ان تتصرَّف به كيف تشآء وانما التمس منك ان تخصص شيئاً قليلاً منهُ للاحسان والصدقة عن نفسي — هذه حكايتي رويتها لك ايها الصديق وقد صرت الان أشعر براحة قليلة بدَّدت بعض همومك

ولم يكد كورشون يتمّ كلامهُ حتى وصل اليهما بعض الفرسان من رجال الحرس فمرُّوا من جانبهما وهم يضحكون و يقهقهون اما الاعميان فقاما يمشيان في الطريق يقودهما تومما وهو يبدي من الحركات المجونية ما يضحك الثكلى



الفصل الرابع والخمسون

اللصوص في قرية الملك

وما كاد الاعميان ودليلهما يصلون الى اول المنازل في قرية الكسندروفا حتى لقيهم مشعوذان يرقصان و يغنيان بأعلى الاصوات وفي ايديهما بعض آلات الطرب . فلما رأيا الاعميين ورفيقهما ازدادا ضحكاً ومجوناً ثم اقتربا منهم وأخذا يعبثان بهم و يضحكان وقد انتهز احدهما فرصةً وقال لاحد الاعميين همساً — قد تأكدنا ان الامير منذ خمسة ايام في السجن الكبير الذي تجاه منزل ماليوتا وغدًا موعد عقابه .

فقال له بيرستن — وهل كلكم هنا ؟ قال نعم وعلى اتمّ الاستعداد . ثم انقلب عنه وهو يضحك و يرقص و يغني بملء فيه . وظلّ الاعميان ودليلهما سائرين حتى وصلوا الى القصر فأقاموا في بعض جوانبه يتثاءبون و يمزحون وهم ينتظرون امر الملك

ولما اقبل المساء عاد الملك من نزهتهِ وقد أثر فيه التعب فانصرف توًّا الى مخدعهِ . وما كاد يستقرُّ به الجلوس حتى دخل عليه ماليوتا وسلمهُ مفاتيح السجن حسب العادة . فسأله الملك عن الامير نيكيتا واقراره فاجاب — انهُ يا مولاي قد أقرّ بهجومه على رجال الحرس في منزل الشريف موروزوف وانه قتل منهم

سبعة اشخاص واثخن في الامير اثناسي فياز يمسكي . ولكنهُ يأبى الاعتراف بالمكيدة التي دبرها لاغتيال جلالتك ولا يريد ان يدلناعلَى المكان الذي لجأ اليهِ موروزوف . وقدعزمت ان انطلق اليه مرة اخرى في صباح الغد وأحمله بسائر ضروب العذاب عَلَى الاعتراف بالحقيقة فلعلهُ يذكر لنا اسماء غيرهِ من اعداء المملكة ممن لهم يد في المكيدة

ولم يكد ماليوتا يفرغ من كلامهِ حتى جاءت اونوفر يقنا مرضعة الملك فوقفت في باب المخدع ونظرت الى ماليوتا شذراً ثم قالت للملك — انك يا سيدي قد ارسلت في النهار الى هنا اعميين فما شأنهما وماذا تريد منهما ؟

ففطن الملك لهما وأمر باستدعائهما . فقالت له مرضعتهُ وهل رأيتهما ياسيدي قبل الان ؟ فاني في ريبة منهما

فأجفل الملك وسأل مرضعتهُ — وهل ظهر لكِ منهما ما يحمل عَلَى الشك ؟

قالت — كلا وانما قلبي يناجيني بانهما يضمران سوءًا فمن مجرد نظري اليهما أدركت انهما عَلَى جانب عظيم من الدهاء والحيلة

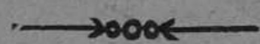
فبهت الملك ثم نظر الى مرضعته ولم يجب . اما هي فقالت له — قلت لك انهما شريران كهذا الخبيث (مشيرة الى ماليوتا) فلا تدنهما منك . ولكنك لا تقدر بفضل هذا المحتال ان تعرف الشيطان الرجيم من الرجل الفاضل البار مثل الامير نيكيتا الذي اودعته السجن وتريد عقابهُ وهو نادر المثال لم يرتكب اثماً ولم يأت منكراً سوى ان هذا الوحش ماليوتا قد اتهمهُ بامور هو بريءٌ منها براءة الملائكة من شرور الناس . فالاليق بك ياسيدي ان لا تضيف الى مآثمك جريمةً تعقبك اشد الندامة وتنغص عيشك

فاصفرَّ ماليوتا عندسماعه هذا الكلام وقال للملك — هل تأذن لي يا مولاي ان انظر في شأن هذين الاعميين وامتحن صدقهما ؟

فقال الملك — لا لزوم لشيء من ذلك فانا امتحنهما بنفسي ولا اظنهما الا صادقين فهما اعميان ومهنتهما التسوُّل وسرد الحكايات والاحاديث الهزلية . ومع هذا فسأكون على تمام الحذر والتيقظ فناولاني الدرع والعكاز . ولما تناولها

لبس الدرع وارتدى فوقه ثوباً طويلاً ووضع العكاز الى جانبه في السرير ٠ وكان لهذا العكاز طرف حادٌ من الحديد وقد طعن به الملك كثيرين ممن كانوا يسخطونهُ و يستوجبون نقمتهُ السريعة ٠ وبعد ذلك قال الملك لماليوتا — اما انت فتظاهر بالانصراف الى منزلك ومتى دخل الرجلان اكمن في بعض الدهاليز مع نفرٍ من الحرَّاس حتى اذا ناديتكم تبادرون الى هنا سريعاً ٠ ٠ فانحنى ماليوتا امام الملك ثم وضع المفاتيح تحت وسادته وخرج ٠ وتبعتهُ اونوفريتا

وبعد قليل جاء الاعميان وهما يتوكآن على العصيّ و يتمتمان ولما دخلا خرَّا على وجوههما الى الارض ودَعوَا للملك بطول البقاء ٠ وكان بيرستن في اثناء ذلك قد فحص المخدع بلحظة واحدة فعرف ما حواه من الاثاث ورأى ان سرير الملك قائم في احدى الزوايا وتجاههُ نافذة في الحائط لا تقفل الاَّ بالزجاج ٠ —لان الملك كان يحب ان تنفذ مخدعه اشعة الشمس عند اول شروقها



الفصل الخامس والخمسون

✵ الحكاية ✵

ثم اضطجع الملك في سريره وبقي الاعميان جاثيين امامه ينتظران امرهُ وهو يراقبهما بمنتهى التدقيق والانتباه ثم امرهما بالوقوف فامتثلا امرهُ وهما يدعوان له بالتأييد ودوام السعادة ٠ فقال لهما وهو لا يرفع نظره منهما — وفي اي زمن كفَّ بصركما ايها الرجلان ؟

فاجاب بيرستن — منذ الطفولية يا سيدي الملك فلا نذكر اننا ابصرنا الشمس في زماننا

قال ومن علَّمكما الاغاني والحكايات ؟

قال — الله نفسهُ يا سيدي وذلك منذ أقدم الاحقاب

قال — وكيف ذلك ؟

قال — يقول شيوخنا ان السيد المسيح لما عزم على الصعود الى السماء تألب حوله المساكين والعميان والعرج والفقراء والزهاد وسألوه : كيف تريد ايها السيد ان تتركنا بلا عضد ومن ترى يقوتنا و يكسونا و يسقينا من بعدك ؟ فاجابهم المسيح بقوله : لا تجزعوا فسأترك لكم جبل ذهبٍ ونهرَ عسلٍ وكروماً يانعةً وسهولاً واسعةً وستكونون في احسن نعمةً واوفر سعادة . فقال له تلميذه يوحنا اللاهوتي: ان ذلك لا يفيدهم شيئاً لان الاقوياء والاغنياء لا يلبثون ان ينقضوا عليهم فيغصبوهم تلك الخيرات . واما انت ياسيدي فامنحهم عوض ذلك موهبة الغناء والحديث . فاذا طافوا المدن والقرى يغنون أطيب الاغاني و يقصون شائق الاخبار فانهم يكسبون مورداً دائماً للحياة فضلاً عن مودة الناس لهم .

فقال المسيح : ليكن لهم ما اقترحتَ وليكن كل من يفعل معهم رحمةً مباركاً الى الابد

فابتسم الملك لهذا الكلام وقال — وماذا تعرفون من الحكايات الفكاهية؟

فقال بيرستن — نعرف حكايات كثيرة . منها حكاية الجنية والفتاتين وحكاية الطاووس ابي الريش الذهبي وحكاية الحطاب العجيب والفتى الجبار واسير الهوى والملك السعيد وكثيراً غيرها فايها تحب يا سيدي لافكه خاطرك؟

قال — احكِ لي اولاً حكاية الطاووس

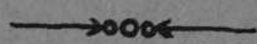
فانحنى بيرستن امام الملك واندفع يسرد الحكاية المطلوبة والملك يسمع ويعجب بمهارتهِ وطلاقة لسانهِ . ولكنه ما لبث ان قاطعه قائلاً — اني اعرف هذه الحكاية فليحكِ لي رفيقك حكاية اسير الهوى

فانتبه كورشون كانهُ هبَّ من حلمٍ وشرع في الحكاية حتى اذا كاد يفرغ منها تظاهر الملك بميلهِ الى الكرى فقال للاعميين وهو يتثاءب ويتمطى — وهل تعرفان شيئاً من الحكايات الدينية ؟

فقال بيرستن — كيف لا فاننا نعرف حكاية اليكسيوس رجل الله و يوسف الصديق والكتاب الازرق والفتيان الثلاثة وغيرها

قال — فقصَّ عليَّ اذاً حكاية الكتاب الازرق

فانحنى بيرستن ثم انتصب وشرع في الكلام ولم يلبث ان سمع غطيط الملك فنظر اليهِ وواصل الحديث · وبعد هنيهة نظر اليهِ ثانية فرآه مستغرقًا في النوم · فاشار الى كورشون ان يدنو من الملك ولبث هو في مكانه يحكي بنغمةٍ واحدة دون ان يتغير صوتهُ · اما كورشون ففهم الاشارة وخطا الى الامام خطوتين ووقف يتأمل ويشجع نفسهُ · وفي هذه اللحظة رأى بيرستن من النافذة ضياءً بعيدًا فتفرَّس فيهِ مليًا فعرف ان رجاله قد بدأُوا بالعمل وأضرموا النيران في بعض جوانب القرية ومنازلها · فخاف ان يشتد الحريق ويحصل في القرية هياج عظيم قبل ان يتوصل الى مفاتيح السجن · فاراد ان يدنو هو من الملك ويسرقها ولكنه خشي ان يتحرَّك من مكانه لئلاَّ يتغير صوته · فاشار الى كورشون بالاسراع وواصل الحكاية · فدنا كورشون خطوتين اخريين ومد يده ليسحب المفاتيح · وفي هذه اللحظة فتح الملك عينيه فالتقى نظره بنظر كورشون وهو مادٌّ يده فصاح به صيحة عظيمة وتناول العكاز من جانبه فطعنه به في صدره فخرَّ المسكين عَلَى الارض والدم يندفق منه · وفي الساعة بادر ماليوتا الى المخدع وفي اثره رجاله · ولما دخل هجم على بيرستن فضربهُ هذا في صدره ضربةً عنيفة اطارت صوابه ثم وثب الى النافذة فكسر زجاجها وقفز منها باسرع من البرق الى الخارج ناجيًا بنفسهِ - فصاح ماليوتا برجاله بعد ان عاد الى رشده — امسكوا اللص الهارب وسدُّوا عليهِ جميع الطرق · · · فأسرع بعض الرجال ونزلوا الى حديقة القصر واخذوا يبحثون



الفصل السادس والخمسون

النجاة

اما كورشون فدنا منه بعض رجال الحرس وأنهضوه فوقف خافت الرأس والدم يسيل من صدرهِ · وكان الملك يتأمل في وجههِ ويتعجب ثم قال له — قل ايها الاعمى الزنيم من انت ومن ارسلك اليَّ بهذا العزم الشرير ؟

فقال كورشون برباطة جاش — لا أُخفي عنك ايها الملك اني اردتُ ان أَسرق مفاتيح خزينتك وليس لي غير هذا العزم

فقال الملك وهو يستشيط غضباً — وهل بلغت منك الجسارة الى هذا الحد؟ فقل لي من انت واين رفاقك ؟

اجاب كورشون وهو يقصد اطالة الكلام ليتمكن رفاقهُ من الفرار — العفو ايها الملك العظيم فانا احد فقرآء الناس واما رفاقي فهم الليل الحالك و . .

فقاطعهُ ماليوتا وهو يضغط بيدهِ عَلَى صدره من شدة الم الضربة — كفَّ الهذيان ايها الاحمق فستحدثنا غداً عن رفاقك وانت في موقف العذاب . .

ثم تفرَّس فيهِ ملياً وقال — يخال لي اني رأَيت هذه الهيئة الممقوتة قبل الان ولكنني لا اذكر اين ومتى

فضحك كورشون وانحنى امام ماليوتا وهو يقول — لقد تقابلنا ايها المولى في غياض الجاهلية أَفنسيت ؟

فانتفض ماليوتا من شدَّة الغضب وأَمر رجاله ان يأخذوا الشيخ و يبحثوا عن امرهِ ملياً

فقال الملك لماليوتا — اعتنوا به ولا تدعوه يموت تحت الامتحان والعذاب فاني ساختار له نوعاً من العقوبات جديداً عجيباً ليموت فيه شرَّ ميتة فخذه من هنا وعد اليَّ

فقال ماليوتا لكورشون — اشكر جلالة الملك ايها الاحمق فانهُ وهبك ان تحيا بعد . . ثم خرج بهِ يتبعهما رجال الحرس

اما بيرستن فكان قد اغتنم جلبة الحرَّاس وتقاطر الناس الى مواضع الحريق وفرَّ من حديقة القصر وهو يجري كالنعام الجافل ملتحفاً بحجاب الظلام الكثيف ولما وصل الى الساحة العمومية حيث موقع السجن لم يرَ هناك احداً . وفيما هو حائر في امره لا يدري ماذا يعمل انتصب امامه فتى عرفه للحال انه من رجاله وهو المشعوذ الذي لقيهُ مع رفيقهِ عند دخولهِ الى القرية . فهذا لما أبصر الزعيم دنا منهُ وقال — قد قتلتُ السجان فأين المفاتيح؟

فاجاب بيرستن بحزن — قد خاننا القدر وفسدت النتيجة التي قدرناها فلم نظفر بالمفاتيح وخسرنا العم كورشون فاجمع الرفاق وغادروا هذه الجهات بما امكنكم من السرعة لئلاَّ يدركنا الخفرآء والجنود

وفيما هو يتكلم رأى شاباً آخر يدنو منهما فعرفهُ انه توما فسرَّ في داخله وقال له — أسرع وأخبر الرفاق ان يسبقونا الى السنديانة العوجاء

فحملق فيه توما وقال — والامير؟ أفلا تريد تخليصه؟

قال — كيف السبيل الى خلاصهِ وقد فقدنا العم كورشون ولم نفز بمفاتيح السجن

فضحك توما وقال — لا لزوم للمفاتيح فالسجن مفتوح

فلم يتمالك بيرستن ان تبسم تبسم الاستبشار وقال — ومن فتحهُ؟

قال — انا

قال — وكيف فعلتَ ايها الجبار؟

قال — لم أفعل شيئاً بل جئتُ الى هنا لأتأمل ضخامة هذا السجن فرأيت السجان مطروحاً على الارض بلا حراك فدنوتُ من الباب لاجرّب مناعتهُ ثم دفعتهُ بكتفي دفعتين ورفستهُ برجلي مرةً فقط فسقط على الارض

فخفق قلب بيرستن سروراً لتيقنهِ بلوغ الامنية فوثب الى توما فضمهُ الى صدرهِ وقبلهُ في وجههِ ثم قال له — اتبعني اذاً لننقذ الامير . اما انتَ (يريد الفتى المشعوذ) فابقَ هنا حتى اذا جاءَ احد من الحرّاس او الجنود او ممن يخشى منهُ خطر تصفر بكل قوتك

ثم التفت بيرستن يمنةً ويسرةً حتى اذا لم يرَ خطراً يتهدده دخل الى السجن يتبعهُ توما . ولما كان للسجن بابان آخران داخليان رفسهما ايضاً توما فانفتحا باكثر سهولة لانهما كانا اقلّ مناعةً من الباب الخارجي . ودخل بيرستن وهو يكاد يفقد عقله من شدة السرور . ولما وصل الى حيث كان الامير خاطبهُ قائلاً — هيابنا ايها الامير

وكان نيكيتا قد افاق على صوت فتح ابواب السجن فظن انهم قد جاءوا ليقودوه الى النطع فقال — وهل بدا الصبح الان؟ او انت يا ماليوتا مشتاق لتعذيبي حتى

جئتني قبل الفجر ؟ ولكن لا باس فانا الان استقبل الموت باسماً لانهُ يخلصني من هذا الوجود المفعم شرًّا وفساداً

فقال بيرستن — لستُ انا ماليوتا بل انا الرجل الذي انقذته من الموت . ولكن بالله عليك ايها الامير ان تسرع لنخرج من هنا

قال — فمن انت اذاً ؟ اني لم اعرف صوتك

قال — لا عجب في ذلك فستعرفني اما الان فهلمَّ سريعاً

فلم يجب الامير بشيء لانهُ ظن ان بيرستن هو احد رجال ماليوتا وقد جاء يزدري به

وكان بيرستن قد عيل صبره فقال — افلا تصدقني ايها الامير ؟ اذكر قرية ميدفيدفكا وغياض الجاهلية . فانا بيرستن

فلم يكد هذا الاسم يقرع سمع الامير حتى استوى في مكانهِ وقد طفح قلبهُ سروراً وحنت نفسه الى الحرية والحياة وتجلت في مخيلته صورة هيلانة فكاد ينهض قائماً ويتبع بيرستن . غير انهُ تذكر قسمه للملك فانقبض صدره وجمد الدم في عروقه وقال — لا . لا اقدر ان اخرج من هنا فاني قد اقسمتُ للملك على الطاعة لاوامره والرضوخ لاحكامهِ ولو كنتُ غير مقيد وفي غير هذا المكان

فارتاع بيرستن وقال بحدة — اني لا يساعدني الوقت على اطالة المكوث هنا وليس الان وقت الجدال فان رجالي ينتظروننا بفارغ الصبر وكل عاقة منك قد تفضي بنا الى الهلاك . وقد عرفت ان غداً موعد تنفيذ الحكم فيك فقم الان وعجل بالخروج من هذا المكان ما دام نجم التوفيق ساهراً على حياتك

فتنهد الامير وقال برنة حزن — لا اقدر فاخرج وحدك ودعني وشأني والله المسؤول ان يتولى عني مكافأتك

فتحير بيرستن في امرهِ جداً وقال — أفتسخر بنا اذاً ايها الامير ؟ اني قد حرقتُ القرية لاجلك وأهلكتُ أعزَّ رفيق لي وربما هلك ايضاً كثيرون غيره من رجالنا . ومع هذا فأنتَ ترفض النجاة وتؤثر البقاء في السجن ؟ ان ذلك لمن اغرب الغرائب . والان قل لي نهائياً : هل تريد ان تخرج معنا من هنا ؟

فأجاب نيكيتا بعزم شديد — لا أُريد . ثم اضطجع عَلَى الارض

فقال بيرستن لتوما — أخرجه من هنا بالرغم عنه لان الوقت لا يسمح لنا باضاعتهِ . ثم وثب هو ايضاً اليه وقبل ان يتمكن الامير من النطق بكلمة سدَّ فمه بمنديل سدًّا محكماً . وكان الجوع والضعف واضطراب البال قد اثرت في الامير كثيراً فلم يقدر عَلَى المقاومة . فلفهُ بيرستن وتوما بثوب من امتعتهما وحمله توما على ظهرهِ وخرج به من السجن وبيرستن وراءه . ولما التقيا باللص (المشعوذ) امره بيرستن ان يسبقهما ويجمع الرفاق بظاهر القرية وواصل هو وتوما السير بمنتهى التحذُّر والاحتراس . وفيما هما في الطريق ابصرهما بعض رجال الحرس فسألوهما من يحملان ? فقال بيرستن باهتمام — رجلاً راح طعاماً للنار . ولما كادا يخرجان من القرية استوقفهما احد الخفراء . فوثب اليه بيرستن وطعنهُ بخنجره فأرداه قتيلاً . وسار بعد ذلك وهو لا يكاد يطأُ الارض بقدميه تيهاً واعجاباً بنفسهِ . وما انبثق الفجر حتى كان اللصوص قد خرجوا جميعاً من قرية الكسندروفنا ولم يفقد منهم احد سوى العم كورشون

الفصل السابع والخمسون

الدير

تركنا مكسيم وقد غادر بيت ابيه وخرج تحت جنح الظلام من قرية الكسندروفنا يتبعهُ كلبهُ بويان وهو يطفر مسروراً لانهُ أُتيح له ان يتخلص من مربطهِ ويلحق بسيده . ولم يكن مكسيم في رحيلهِ هذا يقصد جهةً معلومةً او غايةً خاصةً بل كان جلُّ اهتمامه ان يبتعد ما أمكن عن رجال الحرس فلا يعود يرى اعمالهم البذيئة وتماديهم في الغي والطغيان وايقاعهم بالشرف والفضيلة . وكان في اول خروجه من القرية يجدُّ السير خوفاً من ان يدركهُ رُسل ابيه فيرغموه على العودة . ولكنه بعد ان أيقن بنجاح عملهِ اخذ يسير سيراً معتدلاً قاصداً الجهات الجنوبية من البلاد وهو يبتهل الى الله ان يلهمهُ ماذا ينبغي ان يفعل

ولما طلع الفجر اوقف جواده واخذ يتأمل في احواله وقد مرّت امامه تذكارات شتى وتجلت له صورة والدته وهي حزينة جداً لفراقه لانهُ تركها بغتةً ولم يدعها تراه وتباركهُ فبكى بدمع مدرار ثم عاود المسير وقلبهُ مشتعل بنار الاحزان٠ وكانت في طريقه غابة كثيفة فولجها وهو لا يعرف شيئاً عن هذه الجهات لانه لم يطأها قبل الان ٠ ولما انتصف النهار أبصر في سفح جبل امامه ديراً كبيراً تحيط به بقعة فسيحة اكتست بكل نوع من المغروسات المختلفة الاجناس والاثمار ٠ فشعر مكسيم بميل شديد الى دخول هذا الدير وقال في نفسه : لا بدّ ان الاقي هنا راحة لقلبي المتألم وتعزيةً لنفسي الحزينة

واذ خطر له هذا الفكر سدّد مسيرهُ الى جهة الدير ولما بلغهُ طلب من بعض الرهبان الذين صادفهم عند مدخله ان يأذنوا له في مواجهة الرئيس ٠ ولم يكن الاّ القليل حتى وافاه رئيس الدير وهو شيخ طاعن في السن قد اشتعل رأسهُ شيباً وله لحية كبيرة بيضاء وعينان تنبئان عن وداعة تامة وصلاح كبير ٠ فحياه مكسيم بملء الخشوع والاحترام وطلب ان ينفرد به ليخبرهُ بحاله ٠ فبش له الرئيس وأمر بعض الرهبان ان يعتنوا بجواده وكلبه ٠ ثم سار واياه في دهاليز الدير حتى وصلا الى الكنيسة

ولما دخلاها جثا مكسيم على ركبتيه ولفظ صلاةً حارّة اثرت به تأثيراً خشوعياً لم يشعر به في كل مدة حياته السابقة ٠ وفيما هو كذلك وقع بصره على صورة « الابن الشاطر » فارتعد وخيل له انه بفراره من منزل والديه انما يشبه الابن الشاطر غير انه لا يشعر بوخز ضميره من هذا القبيل فعملهُ اذاً لا يحسب اثماً ٠ ولما مضى عليه في تلك التأملات بضع دقائق التفت الى الرئيس وقال له — باركني ايها الاب الصالح وارحمني لانهُ يخال لي اني خاطيء كبير مع اني لم أفعل ما يوبخني عليه ضميري ولا ما يغيظ الله مني

فاجابه الرئيس بلطف — صلّ يا ولدي فرحمة الله عظيمة واذا أردتَ ان تعترف لي بما يخالج افكارك وتتوب الى الله التوبة الصادقة فيقبل الله توبتك ويتولاّك برحمته وغفرانه

فقال مكسيم بصوت مرتجف — ان ذنبي عظيم يا ابتِ فقد كرهتُ

الملك ولم يعد قلبي يحبهُ

فنظر اليه الرئيس نظرة التعجب والاندهاش . اما مكسيم فقال — لاتزدلني ايها الاب القديس بل ارعني سمعك وانا اكشف لك قلبي . فقد قضيتُ زمناً مديداً وانا اجهد نفسي لازرع في قلبي محبتهُ فذهب سعيي عبثاً وازدادت كراهيتي له ونفوري منهُ

فقال له الرئيس — انك يا ولدي لفي ضلال مبين ولعلَّ ذلك من تجارب الشيطان . ومما يزيدني دهشةً منك انك تشي على نفسك بذلك ولم اسمع في حياتي ان أَحد المعترفين أقرَّ ببغضهِ للملك سواك حتى ان اللصوص والقتلة لم يتصفوا بمثل ما اتصفتَ بهِ انتَ

فاصفرَّ مكسيم واختلج جسمهُ وقال — فاذًا انا الان اشدُّ ضلالاً من كل سارق وقاتل فارشدني يا ابي الى سوآء السبيل وعلمني ماذا أعمل فان نفسي حزينة جداً وتكاد تنشقُّ من شدَّة الأَلم

فنظر اليه الرئيس وهو يودُّ ان يستطلع خفايا نفسهِ فلم يرَ في وجههِ ما يدلُّ على المكر والخداع . بل رأى دلائل الشهامة والمروءة والبسالة والشرف مرتسمة عليه فتعجب وقال — لا أَقدر ان اصدّق ما نطقتَ بهِ يا ولدي . فانت شاب في مقتبل العمر ونضارة الحياة فكيف تتهم نفسك بما لا يعقبك الاَّ اشدّ الارزآء وأعظم البلايا . والذي يظهر لي انك على جانب عظيم من الذكآء وحدة الذهن ووفور الادب فكيف يسوغ ان تبغض الملك وجميع الشرائع الالهية تأمرنا بمحبتهِ وتوجب علينا طاعتهُ . أَلم تقرأ ما جاء في الوصية الخامسة من الامر الالهي باكرام الاب ؟ فاذا كان الله يأمرنا بمحبة الاب واكرامهِ فكيف يجب ان تكون محبة الملك واكرامهِ وهو أعظم بكثير من الاب ؟ فهل تطيع هذه الوصية ؟

فسكت مكسيم ولم يقل شيئاً

فأعاد الرئيس سؤَاله قائلاً — هل تحبُّ اباك يا ولدي ؟

فأجاب مكسيم بصوت خافت — كلاَّ

— كلاَّ ؟ قال الرئيس وأجفل مرتدّاً الى الورآء وهو يزداد تعجباً واندهالاً

ثم قال له — فاذاً كنتَ تكره الملك ولا تكرم اباك فمن انتَ اذا ؟

اجاب — انا مكسيم بن ساليوتا سكوراتوف

قال — فأنتَ اذاً ابن ماليوتا ؟

قال — نعم انا هو ذاك التعس . ثم اجهش في البكاء اما الرئيس فأطرق برأسهِ الى الارض وهو يتأمل ويستغرب . ثم رفع رأسهُ وقال — أخبرني الان بالتفصيل كيف كرهتَ الملك وأبغضتَ اباك ؟

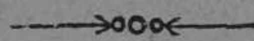
فقصّ عليه مكسيم ما كان من امره في قرية الكسندروفا وأخبره عن معيشة رجال الحرّس وعن محادثته مع ولدهِ في الليلة الفائتة ولم يخفِ عنه شيئاً . ولما فرغ من اعترافهِ قال له الرئيس : اعلم انك الان في موقف رهيب فلا يجوز لك ولا بوجه ان تخفي عني شيئاً . فاذا بقي في نفسك شيء آخر فافض بهِ اليَّ . وقد قلتَ انك تبغض الملك فهل خطر لك يوماً ان تكيد له مكيدةً او تقوم بفتنة في البلاد ؟

فقال مكسيم — لا هذا ولا ذاك ايها الاب الجليل وأسهل عليَّ ان تُبتر اعضائي ويُسلّ لساني من ان يخطر في فكري شيء من الخيانة للملك وللبلاد او أن انطق بشيء غايتهُ الفتنة والتهييج . فأنا مخطئ في عدم محبتي للملك وليس في خيانتي له او للبلاد

قال — ان اعترافك يا ولدي قد نقاك من كل اثم وفرارك من القرية على الصورة التي ذكرت لا يعدُّ اثماً لانك انما هربت من الضلال وجميع تجارب ابليس . واعلم ان لله في عباده احكاماً لا يدركها احد فالجوع والامراض وسائر المصائب البشرية تتعرّض للانسان بسماح من الله تعالى لحكمة سامية وما على الانسان الاَّ ان يخضع ويصلي ويتوب . وهكذا الان فقد تولى زمام المملكة ملكٌ هائل ظالم لا يعرف الشفقة ولا الرحمة بيدَ انه من الله فلا يجوز لنا ان نقاوم ترتيب الله . فاذا خضعنا لهذا الملك العاتي فانما خضوعنا هو لله الذي اقامهُ وأوجب علينا طاعتهُ

وبعد هذا باركه الرئيس ودعاه ليقيم عنده في الدير مدةً طويلةً . ثم خرجا

معاً من الكنيسة فجلسا الى مائدة الطعام مع جماعة الرهبان · وفي اثناء الاكل قام الرئيس ومكسيم فشربا نخب الملك ورؤساء الدين وسعادة البلاد فشاركهم جميع الرهبان بالمسرَّة والدعاء · وأقام بعد ذلك مكسيم في الدير اسبوعاً كاملاً كان فيه موضوع عناية الرئيس ومحبة الرهبان · وكان يقضي سحابة نهاره في حدائق الدير يراقب اعمال الرهبان ونشاطهم ومواظبتهم على الشغل · فبعضهم كانوا يتشاغلون بالتصوير والنساخة والبعض الآخر بعمل صلبان وايقونات من خشب السرو او بتذهيب الآنية الخشبية وآخرون يهتمون بغرس الاشجار وترتيب المزروعات وما شابه ذلك · وقد سرَّ مكسيم جداً من هذه الاعمال وأحبَّ الرهبان والعيشة الرهبانية حبًّا فائقاً وحسدهم على هناء بالهم وراحة افكارهم · وقد أكبر الفرق بينهم وبين اولئك «الرهبان الحرَّاس» في قصر الملك الذين اتصفوا بمذام الامور وخبث الضمائر وسوء الافعال بقدر ما كان هؤلاء متصفين بالورع والصلاح



الفصل الثامن والخمسون

ماذا جرى لمكسيم

وفي احد الايام سمع مكسيم من بعض الرهبان الذين كانوا متجوّلين في الخارج ان جمهوراً غفيراً من التتر قد هجموا على ولاية ريازان وعاثوا فيها فساداً كبيراً وان اهل تلك الولاية لم يقدروا ان يقاوموهم ويطردوهم عن بلادهم · فتأجج في صدر مكسيم الشوق الى خوض معامع القتال وودَّ ان يسير من ساعته الى ولاية ريازان لعله يتمكن من المدافعة عن البلاد · ولما خطر له ذلك اجتمع بالرئيس وقال له — ها قد حان اوان الفراق يا حضرة الرئيس لان الواجب الوطني يدعوني للدفاع عنه ولا يسعني الاَّ التلبية فانا سائر الان الى حيث تدور رحى الحرب لأُبرهن لملكي وبلادي اني من أخلص الرعايا وأصدق العبيد وقد أحضرت معي بعض النقود ولما لم يكن لي بها فائدة فاني أُقدمها لك لتضيفها الى مال الدير ·

والتمس منك ايها الاب الصالح ان ترسل من قبلك بعد ثلاثة ايام راهباً او رجلاً آخر من خدمة الدير الى قرية الكسندروفا ليخبر والدتي باني صحيح معافى أطلب بركتها ورضاها

فشكره الرئيس على هذه التقدمة وقال — ان هذا المال الذي تكرمت بتقديمه للدير لهو وافر جداً بحيث نستطيع ان نشيد به كنيسة كاملة بيد اني ارجوك ان تبقي منه لنفسك شيئاً لانك تحتاج في طريقك الى النفقة . اما سفرك الان فقد غمني كثيراً لاني أحببتك من اول نظرة ورجوت ان تنالك نعمة الله فتترك العالم وتشاطرنا هذه الحياة النسكية في هذا الجبل . فأصغ اليَّ يابنيَّ ولا تغادرنا هكذا سريعاً

فقال مكسيم — ان ذلك يستحيل عليَّ يا ابي فقد آليت ان أخدم البلاد بساعدي وأقسمت باعظم الاقسام ان أبذل حياتي في سبيل هذه الخدمة وسابر بقسمي فلا تعترضني بل دعني اخوض غمار الموت مسروراً وادعُ لي وباركني ولا تنسَ والدتي

ولما لم يرَ الرئيس بداً من ذلك باركه ودعا له بالتوفيق وحسن الخدمة ووعده بابلاغ رسالته الى والدته . ثم شيعه مع بقية الرهبان الى خارج الدير . فشكره مكسيم على ذلك ثم ركب جواده وسار في طريق ريازان يتبعه كلبه طافراً مسرورا

وكان النهار دافئاً والجوُّ مصحياً والشمس تسير الهوينى في القبة الزرقاء ومكسيم سائر في تلك الارجاء وقد وطن نفسه على مقارعة الخطوب واستقبال القدر كيف جاء . ولما آذنت الشمس بالمغيب وقف هنيهة يتأمل في حالته وكيف يقضي هذه الليلة وهو غريب لا يعرف شيئاً عن تلك الجهات . ثم عاود المسير وهو يودُّ ان يجتاز في قرية ليأخذ نصيباً من الراحة . وبعد ان سار على هذه الحالة ساعة من الزمن وقد طلع القمر فأنار تلك الجهات بنوره الساطع لمح عن بعد نوراً ضعيفاً فسار نحوه وهو يرجو خيراً . ولما اقترب منه رأى كوخاً عتيقاً وأبصر من نافذته امرأة جالسة عند سرير طفلها وسمعها تغني له فأصغى قليلاً فسمعها تقول : « . . نم يا ولدي الحبيب فعما قليل ينقضي زمن المحنة وتزول

المصيبة . لان الملك سيلقي عن قريب القبض عَلَى ماليوتا اللعين فيضرب عنقهُ ويخلص البلاد من عيثهِ وشرّه ... » وما سمع مكسيم ذلك حتى انتفض وصعد الدم الى وجهه . فترجل عن جوادهِ ودخل الكوخ وهو في حالة الاضطراب الشديد . فلما أبصرتهُ المرأة خافت ونادت زوجها وكان مضطجعاً في احدى الزوايا فقام وقد امتقع وجههُ من شدة الخوف . فقال له مكسيم — من انتم وماذا تعملون هنا ؟ فانحنى الرجل امامه وقال وهو يرتجف — منذ زمان مديد ونحن في هذه البقعة يا سيدي نصنع غرابيل ونبيعها للتجار الذين يجتازون بنا في بعض الاحيان ولولا رحمة الله لقضي علينا جوعاً وعرياً . فنظر مكسيم الى الرجل وامرأتهِ فرآهما في اشدّ حالات البؤس والفقر فأخرج من جيبهِ ما أبقاه لنفسهِ من النقود ووضعها على مائدة هناك وحوّل وجهه يريد الخروج فاستوقفهُ صاحب الكوخ وجثا امامه مع امرأتهِ وهما يشكرانه بدموع سخينة ويقولان : انبئنا باسمك يا مولانا لنعرف المحسن الينا العظيم ونصلي لاجلهِ

فقال مكسيم — صليا لاجل ماليوتا ودلاَّني الان عَلَى طريق ريازان

فبهت الرجل وقال — ها هي امامك يا سيدي ولكني اسأَلك ان لا تسافر في هذا الوقت اتقاء المخاطر فان كثيرين من قطاع السبيل متفرّقون في هذه النواحي عصابات مختلفة وقد هجموا في الليلة الفائتة عَلَى قافلة برمتها فسلبوها وفتكوا برجالها . وقد سمعنا ايضاً ان التتر ظهروا في ولاية ريازان واجتاحوا جانباً منها فأرجو منك ان تبيت عندنا هذه الليل وغداً تنصرف الى حيث تريد .

اما مكسيم فمع شدة رغبتهِ في المبيت لم يشأْ ان يبقى في منزل سمع فيه باذنهِ شتيمة ابيه . فودّع الرجل وامرأته وخرج وهو يرجو ان يرى مبيتاً آخر .

ولم يقطع الاَّ بضعة فراسخ حتى رأى كلبهُ قد هجم عَلَى جانب من الطريق وأخذ في الهرير والنباح وهو يزداد عنفاً وشدة كأَنهُ يرى عدوًّا مختبئاً وراء بعض الادغال . فتعجب مكسيم وهجم جهة الكلب فسمع صوتاً جهورياً يصيح به — قف وانزل عن الجواد والاَّ قطعناك إرباً . وقبل ان يملك مكسيم روعهُ رأى نفسهُ محاطاً بستة اشباح وبأيديهم العصيّ الضخمة . وللحال امتشق مكسيم

حسامهُ وضرب به اقربهم اليه فكاد يخطف انفاسهُ ورفع يدهُ ليضرب الآخر غير ان الرجال هجموا عليه هجمةً واحدة فتمكنوا منهُ وأنزلوه عن جواده واوثقوه وما كادوا ينظرون الى حسامهِ حتى صاحوا كلهم بصوت واحد : هذا احد رجال الحرَس فيا لها من تسلية لنا في هذه الليلة فهلمَّ نأخذه الى الجماعة حياً لانه نعم الغنيمة

الفصل التاسع والخمسون

﴿ ثورة اللصوص ﴾

على مسافة فرسخين من المكان الذي جرَت فيه الحادثة الانفة الذكر كان جمهور من الرجال محتشدين في بقعة فسيحة وقد تسلحوا كلهم بالاسلحة الكاملة وامامهم براميل مختلفة الاحجام مترعة خمرا وهم يتناولون منها وقد دارت بينهم الكؤُوس واخذوا يطربون ويلهون . ومن تفرَّس فيهم قليلاً عرف للحال انهم عصابة اللصوص اصحاب بيرستن ولكن لم يكن بينهم الشيخ كورشون الذي كان في مثل هذه الاجتماعات يطربهم بنوادره ونكاته فكانوا يتذكَّرونهُ ويشربون نخبهُ ويودُّون لو فدوه بارواحهم . ولم يمضِ عليهم وهم في تلك الحالة الاَّ القليل حتى لعبت الخمرة برؤُوس الجميع فعلا ضوضاؤُهم وكثر بينهم الصخب والقيل والقال

فقال احدهم — من يعرف ماذا يجري الان للعم كورشون ؟

وقال آخر وقد أترع كأسه دهاقاً — هو الان على ما أرى في اشدّ المحنة والضيق وسيذيقونهُ عن قريب الموت الاحمر

وقال غيره — مسكين كورشون فقد كان للجميع نعم الرفيق الامين ولا اظنهُ يفشي سرَّ عصابتنا ولو كان تحت اشدّ العذاب

— هذا غير ممكن ولو قطعوه إرباً

— والحق يقال ان خسارة العم كورشون لهي مصيبة فادحة اصابتنا جميعاً

— الاَّ الزعيم فانهُ أوقع كورشون في الفخ ونجا هو بنفسه

— فكيف اوقعه ؟ وهل يعدُّ بعد ذلك زعيماً اذا كان يسلم اصحابه ويوقعهم في المهالك ؟

— انه فعل ذلك حباً بالامير

— ومن هو هذا الامير الذي لاجلهِ اهلك بيرستن أعزَّ اصدقائهِ وأحسن رجاله ؟

— صه فان الامير صديق حميم لزعيمنا أفلا تراهما الان منفردين في الخيمة ثن ويتساران . فاذا سمعك بيرستن فماذا يقول ؟

— وهب انه سمعني فانا لا أخشى ذلك لاني أرى انه في هذا العمل قد خان العصابة وغدر بشيخها

— لا غروَ في ذلك فقد كان كورشون أحسن من بيرستن من عدة وجوه فغدر بهِ هذا الغدر الوخيم ليصفو له الجو و يرتاح من مزاحمتهِ

— وأنا أظن انه غدر به قصداً

— وانا كذلك أزعم

— وماسبب وجود الامير بيننا واي علاقة له معنا ؟ ان ذلك من المدهشات

— لعلَّ بيرستن يريد فدية عنهُ لانه خلصهُ من السجن

— أنت واهم يا اخي والحقيقة ان الملك قد غضب على الامير وزجهُ في السجن فلما نجا بواسطتنا انضمَّ الينا ووعد ان يقودنا الى قرية الكسندروفا فنقتل رجال الحرس وننهب خزينة الملك ونقتسمها

— اذا كان الامر كذلك فلماذا لا يقودنا وقد صار لنا هنا ثلاثة ايام حتى مللنا الانتظار

— لا يقودنا لان زعيمنا كما ترون جبان ضعيف

— لا . لا تقل هكذا عن بيرستن فانه بطل مغوار وفارس صنديد

— فلماذا اذاً هذا الابطاء ؟

— لعلهُ يريد ان ينفرد باستيلائهِ على الخزينة فلا يدعنا نرى منها شيئاً

— ولعلهُ يريد ان يبيعنا كما باع العم كورشون

— ولهذا فهو لا يريد ان يخلص كورشون من ايدي معذبيه

— أفلا نقدر ان نذهب بانفسنا وننقذ كورشون ؟

— نعم نعم نقدر ولا لزوم لبيرستن فهو لا ينفعنا بشيءٍ

— ونقدر أيضاً ان ننهب الخزينة فليقدنا الامير ويدلنا عَلى مخبإِها

— ولا سيما في هذا الوقت لان الملك كما سمعنا قد خرج الان من قرية الكسندروفا لزيارة بعيدة وأخذ معه نصف الحرّاس

— فلنذهب اذاً

— ولنحرق القرية مرةً اخرى

— ونقتل رجال الحرس

— فليقدنا الامير ولا نريد ان يبقى بيرستن زعيماً علينا

قالوا هذا ونهضوا على اقدامهم فاحتسوا الكؤُوس دفعةً واحدةً وهم يصيحون يعربدون وقد بلغ منهم الهياج مبلغاً عظيماً

الفصل الستون

الامير والزعيم

كان الامير نيكيتا والزعيم بيرستن في اثناء هياج اللصوص منفردين في خيمة في أقصى مكان من البقعة يتحادثان ويتداولان فساقهما الحديث الى ان قال بيرستن — انك ايها الامير على أعظم جانب من الشهامة والشرف ولكني لا أدعك تعود الى السجن مهما قلتَ وسعيتَ

فقال الامير — انك أنقذتني من السجن فشكراً لك اما الان فاني أريد ان اذهب لشأني أوَ لستُ حرّاً في ذلك ؟

قال — نعم انك حرٌ الاَّ في امر الرجوع الى السجن فقد أنقذتك منه لتنجو من الموت لا لتعود اليه

قال — ثق ايها الصديق اني الان في ما هو اشدُّ ظلمةً من السجن والموت احبُّ اليَّ من النجاة على هذه الصورة. فقد عاهدتُ الملك على الطاعة والانقياد

لارادتهِ فكيف أنكث عهدي وماذا يكون حديث الناس عني اذا علموا بفراري ؟

قال — مالك ولاقاويل الناس فانت موقن ببراءة نفسك وانهُ قد حكم عليك ظلماً وعدواناً ولعلَّ الملك نفسه يعرف هذه الحقيقة وقد ندم على تسرُّعهِ في الحكم عليك

قال — مهما يكن الامر فلا بدَّ من الرجوع

قال — سترجع ولكن بعد حين لان من رأْيي ان تنتظر على الاقلّ ريثما يخمد غضب الملك فربما عاد الى صوابهِ وعرف خطأَه فيستقبلك مسروراً

وفي هذهِ اللحظة اشتدَّ هيجان اللصوص وارتفعت ضجتهم وكانوا قد دنوا من خيمة الزعيم وهم يصرخون :

— الى القرية ! الى القرية ! الى قرية الكسندروڤا !

— نريد ان نحرق القرية

— وننقذ العم كورشون

— وننهب براميل الذهب من الخزينة

— ونقتل جميع رجال الحرس

— ولا نبقي على احد منهم

— فأين الامير ؟ اين الامير ؟

— ليخرج ويقدنا الى القرية

— ويدلنا على مكان الخزينة

— واذا رفض ذلك فهيئوا المشنقة

— هيئوها له ولبيرستن

— اين الامير ؟ اين الامير ؟

فلما سمع بيرستن تلك الاقوال طار صوابهُ فقام من ساعتهِ وهو يقول للامير — اننا الان في موقف حرج جداً فقد بلغ السكر من القوم كل مبلغ ولا أعلم كيف نعاملهم لنسكن هيجانهم فأرجوك ان تتظاهر بانك تريد ان تقودهم الى قرية الكسندروڤا والاَّ فتسوءُ العاقبة لاني أعرف هؤلاءِ الناس

فارتعد الامير وقام من مكانهِ وهو لا يدري ماذا ينبغي له ان يفعل وقد

شعر لاول مرة بانحطاط قدره بازآء هذه العصابة وقد كاد يتميز غيظاً لولا ان بيرستن سأله وألحّ عليه بمسايرتهم قليلاً لان السكر أعماهم وأفقد رشدهم . فتظاهر وخرج من الخيمة وقال للصوص — ماذا تطلبون ؟

فقالوا — قُدنا الى قرية الكسندروفا

— كن زعيمنا لاننا نرفض زعامة بيرستن

— بشرط ان تقودنا الى موضع الخزينة

— وان رفضتَ طلبنا فليس امامك الاّ المشنقة

ولو زُلزلت الارض تحت اقدام الامير نيكيتا لما ارتد وارتجف اكثر من تلك الدقيقة الهائلة في ذلك الموقف . فبادر اليه بيرستن وهو يريد ان يتلافى الخرق قبل اتساعه لانه خشي ان يفرغ صبر الامير فينقضّ على الثائرين ويسوء المصير ولذلك خاطبهم قائلاً — ويحكم ما هذا الكلام وهذه البذاءة ؟ تريدون ان يقودكم الامير الى القرية فهو سيفعل ذلك بطيبة خاطر اما الان وقد تناصف الليل وبلغ منكم السكر فاذهبوا الى مراقدكم ودعوه يأخذ نصيبهُ من الراحة فالان خمر وغداً امر

فصاح احد اللصوص — نحن في غنىً عن نصحك لاننا لا نعرفك بعد الان زعيماً لنا

وقال آخر — انظروا يا اخوان فان بيرستن يأبى ترك الزعامة

وقال ثالث — دعوه وشأنه ولا تسمعوا اقوالهُ

وقال رابع — لا بل اسحبوه الى المشنقة

وقال خامس — الى المشنقة ! الى المشنقة !

فاحتدم بيرستن غيظاً ونظر الى اللصوص فرآهم جميعاً يضمرون له الشر فقال وقد وضع يده على مقبض حسامهِ — اخرسوا ايها الانذال ولا تظنوا اني راضٍ بهذه الزعامة وها انا أرفضها رفضاً باتاً فاقيموا عليكم ما تشاؤن

فقال احد اللصوص — بالصواب نطق

وقال آخر — لان الحق معنا

وقال ثالث — نعم ان بيرستن لا يستحق ان يكون زعيمنا

فقال بيرستن — اجل اني لا استحق ان اكون زعيمكم فسأنطلق الى جهات نهر ڤولغا حيث أكون زعيماً لقوم آخرين يفوقونكم بسالةً ومودةً

فأجابهُ احد اللصوص — لا . لا . لا ندعك تتركنا لاننا نخشى ان تبيعنا كما بعت العم كورشون

وقال آخر — بل يجب ان تبقى معنا وتطيع اوامر الزعيم الجديد

ثم تقدم احد اللصوص وبيده كأس من الخمر فدنا من نيكيتا ووضع يده على كتفهِ وقال — تفضل يا حضرة الامير واشرب هذا الكأس نخبنا وهلمَّ نتعانق لانك من الان زعيمنا وقائدنا

فهاج الدم في عروق نيكيتا وشعر بسهم اخترق صدره فكاد يستل حسامه ويضرب بهِ اللص الذي دنا منه عَلَى تلك الصورة . بيد ان اصواتاً جديدة استلفتت سمعهُ ونظره فرأى حركةً غريبة وسمع بعض اللصوص يقولون — انظروا انظروا فان بعض رجالنا قد أسروا واحداً من رجال الحرس وها هم يسوقونهُ الى هنا

الفصل الحادي والستون

حياة بحياة

وبعد قليل جاء من بعض اطراف الحرش بضعة رجال من جماعة اللصوص وقد حملوا بايديهم العصي الضخمة وبينهم مكسيم موثق اليدين ووراءهم جواده يقوده احدهم ويليه اللص الذي ضربه مكسيم بحسامهِ ووراء الجميع بويان كلبهُ وهو يتبعهم لاحقاً بسيدهِ غير حافل بالجروح التي اصابتهُ في اثناء مدافعتهِ عن سيده . وكان امام الجميع اللص خلوبكو وهو يرقص ويغني في غاية الطرب والجذل ورفاقه يهتفون لهُ ويصفقون

فلما رآهم بيرستن على تلك الحالة قال للامير نيكيتا — مسكين هذا الشاب

فانهُ سيلاقي الان من هذه العصابة اشدّ الاهوال وسيموت موتاً بطيئاً شنيعاً بعد ان يذوق الوان العذاب لان أسر احد رجال الحرس يعدُّ عند هؤلاء القوم عيداً بهيجاً فانظر كيف انهم اجتمعوا حولهُ واخذ بعضهم في تجهيز الات العذاب فسيحاسبونهُ عَلَى كل ما جرى لهم من رجال الحرس من البلايا والنكبات

وكان الامير يسمع ويتأمل حالة هؤلاء القوم وما هم عليه من التوحش والفظاظة . ولو عرف ان الحارس الذي بينهم هو مكسيم الذي أنقذه من الدب لهجم عليهم وخلصهُ من ايديهم او قتل معهُ ولكن الجماعة كانت تحجبهُ عن نظره فلم يستطع معرفتهُ

اما مكسيم فكان ينظر الى استعدادات اللصوص بملء السكينة والثبات دون ان يبدو عليه اقلّ ارتعاش او جزع لانه لم يكن يخشى الموت ولا العذاب بل كان يتأسف لموتهِ في تلك الحالة وهو أعزل وموثق اليدين لا يسمع قعقعة السلاح ولا صهيل الجياد بل يسمع اغاني سمجة وقهقهة معذّبيه السكارى فقال في نفسهِ «لم اكن أنتظر موتاً مهيناً كهذا فلتكن مشيئة الرب» . وفيما هو كذلك لمح الامير نيكيتا فعرفهُ وهمّ ان يقترب اليه غير ان واحداً من اللصوص أمسك بخناقه وقال — قد بسط الفراش فاخلع ثيابك وارقد بسلام . فقال مكسيم — حلوا يديّ لا تمكن من ذلك ودعوني أُصلي قليلاً . فحلّ احدهم وثاقهُ وقال — صلِّ واختصر لاننا بغاية الشوق الى مداعبتك . ولما فرغ مكسيم من صلاته اقتاده اثنان الى عصيّ طويلة ركزاها في الارض واخذا يجرّدانه من ثيابه ويربطان يديهِ ورجليهِ بها . وكان في تلك اللحظة ان الامير نيكيتا نظر الى الاسير ووقف يتأملهُ فعرفه انه مكسيم فطار رشده واسرع فدنا من الجماعة وقال بصوت جهوري — كنتم تقولون منذ هنيهة انكم لا تريدون زعامة بيرستن وانكم قد اخترتموني لهذا المنصب فهل جميعكم متفقون عَلَى ذلك ؟

قالوا — نعم فكلنا مجمعون عَلَى اختيارك وتوليتك

قال — فاذاً سلموني الان فأس الزعامة

فسرّ اللصوص وبادروا فأحضروا فأس بيرستن وقدموها له . فتناول الامير

الفأس ودنا من احد اللصين اللذين كانا يربطان مكسيم الى الركائز وقال له — حلّ الحارس

فنظر اليه اللص منذهلاً . فصاح به الامير — حلهُ حالاً

فقال اللص — وكيف ذلك ؟ فهل انت من جماعته حتى تريد ان تحامي عنه؟

فانتفض الامير وقد بلغ التهيج منه حتى لم يعد يستطيع صبراً فرفع الفأس وضرب بها اللص فشقّ رأسهُ . فذهل اللصوص ووقفوا حيارى . اما الامير فأسرع الى اللص الاخر وأمره بحلّ مكسيم . فبادر هذا وحله وهو يرتعد خوفاً . فأمسك الامير بيد مكسيم وقال للصوص — ليس هذا الشاب من فرقة رجال الحرس كما توهمتم بمجرد نظركم الى لباسه بل هو عدوهم الاشدّ وليس فيكم من يبغض هذه الفرقة المشؤومة اكثر منه فأنا اعرفهُ حق المعرفة ولذلك فهو منذ الان من رجالنا وأعواننا ومن يمسهُ بشيء فما جزاؤهُ الاّ القتل . امـا الان فخذوا اسلحتكم وانتظموا صفوفاً مرتبة لاني مزمع ان أقودكم الى حيث طلبتم

وكان اللصوص قد ألجمتهم مفاجأة الامير لهم بعمله وحجة كلامه فوقفوا حيارى لا يدرون ماذا يفعلون . وبعد ان صمتوا حيناً قال بعضهم همساً — بالحقيقة انه زعيم قادر

وقال آخرون — وهو فقط ينيلنا مبتغانا لانه جبار بطاش

وقال غيرهم — ولكنهُ شديد المعاملة قاسٍ للغاية

هكذا كان اللصوص يتحدثون وهم يتجهزون للمسير

اما الامير فعانق مكسيم وهنأهُ وهو يحمد الله على هذه الصدفة . وكان بيرستن قد دنا منهما فهنأ مكسيم بنجاته وقال للامير — هنيئاً لك يا سيدي فانك بثبات حزمك ومقدرتك قد أذهلتَ اللصوص وأنقذتَ صديقك وليس لاحد غيرك ان يفعل في مثل هذا الموقف الحرج كما فعلتَ انت فطوباك . والان أرجو منك ان تظهر انك مصمم ان تقودهم الى قرية الكسندروفا والله وليّ التدبير

وكان اللصوس في اثناء ذلك قد تجهزوا فقام الامير واخذ يشدّد عزائمهم ويعدهم بالاموال الطائلة والغنائم الجزيلة ثم امرهم ان ينتظموا مئاتٍ مئات .

فقال له — نرجو منك يا حضرة الزعيم ان تصطبر قليلاً الى ان يتمّ حشدنا فقد ذهب بعض رجالنا في هذا الصباح الى جهات ولاية ريازان ولم يعودوا بعد
فقال الامير — لا بأس فلا بدّ من الانتظار

الفصل الثاني والستون

﴿ التتري ﴾

لم يمضِ عَلَى انتظارهم الاَّ بضع دقائق حتى حضر اللصوص الغائبون وفي طليعتهم فتى منهم اسمه ثيدور وهو أعور شديد البأس . فلما وصل الى الجماعة حياهم قائلاً — ما أسعد هذا النهار فقد محى الله عني نصف جرائمي السابقة . فسأله رفاقه — وكيف ذلك ؟ فقال — لاننا ظفرنا باحد اعداءَ الدين وسنظفر ان شاءَ الله بغيره من امثاله . ولما قال هذا وصل رفاقه وبينهم شاب موثق اليدين مرتدٍ جبة مخططة وعَلَى رأسهِ قبعة عالية محدَّبة الاطراف وهو أفطس الانف بارز الفكين ضيق العينين فأجلسهُ ثيدور في وسط الجماعة ثم وضع بازائهِ اسلحتهُ وهي رمح وسيف وكنانة . فلما ابصره اللصوص صاحوا جميعاً من شدة الفرح — هذا تتري فيا لها من غنيمة ثمينة !

فقال ثيدور — نعم تتري وهو من الجبابرة الاشدَّاء فلو لم يكن معنا توما لما تمكنا من القبض عليه

فسأله الرفاق — وكيف ظفرتم به ؟

قال — بينا كنا هذا الصباح عَلَى طريق ريازان أبصرنا تاجراً فأوقفناهُ واخذنا نبحث في ثيابه علنا نجد معه شيئاً من المال . اما هو فقال لنا — لا تتعبوا انفسكم بالفارغ فقد لقيني في حال خروجي من مدينة ريازان قومٌ من التتر فسلبوني ولم يبقوا معي شيئاً

فقال احد الحضور — تبًّا لهم من اشقياء

وقال آخر — وماذا فعلتم بالتاجر ؟

فقال ثيدور — أعطيناه شيئاً من النقود وصرفناه بسلام . وبعدئذٍ رأينا فلاحاً فأخبرنا ان التتر هجموا على ضيعتهِ وحرقوها بعد ان سلبوا اهلها ونكلوا بهم تنكيلاً فظيعاً . ولم يتوارَ الفلاح عن ابصارنا حتى شاهدنا عن بعد جمهوراً غفيراً من الفلاحين ومعهم نساؤُهم واولادهم وهم يصرخون قائلين : ان التتر قد هجموا على قريتنا فحرقوها ونهبوا الكنيسة وكسروا الايقونات المقدسة ودنسوا الاقداس

فصاح بعض اللصوص — وكيف تجرَّأ الاشقياء على امتهان حرمة الكنائس؟

فقال ثيدور — وقد علمنا ايضاً انهم اوثقوا كاهناً وربطوه الى ذنب احد الافراس ثم طردوا الفرس فتقطع الكاهن قطعاً شتى

فقال احد اللصوص — وكيف لم يصعقهم الرعد على هذه الفعلة المنكرة ؟

وقال آخر — بل كيف لم تنشق الارض وتبتلع هؤلاء الاشقياء ؟

وقال ثالث — وهل غُلَّت ايدي الروسيين واستحال دمهم ماء ؟

وقال رابع — لا عجب من ذلك فليس في ولاية ريازان الان الا الفلاحون والنساء والشيوخ والاطفال . فمن ترى يقدر ان يقوم في وجه التتر ويردّ كيدهم الى نحرهم ؟

وقال خامس — وما بال الحكومة متقاعدة عن ارسال نجدة قوية تكتسح الاشرار وتذيقهم الوان العذاب ؟

وقال سادس — ربما لم يبلغها الخبر بعد

وقال سابع — فيا ليتني كنتُ هناك وشاهدتُ تلك الفظائع لكنتُ فعلتُ افعال الابطال

وقال ثامن — ولو كنتُ انا ايضاً لما تأخرتُ عن الدفاع المجيد

وقال تاسع — وكيف فعلتم حتى ظفرتم بهذا التتري ؟

فاجاب ثيدور — بينا كنا كامنين في احدى الغابات ابصرنا على الطريق نحو ثلاثين فارساً من التتر برماحهم وقسيهم وكنائنهم . ولما كنا اقلّ عدداً منهم لبثنا في مكمننا وقلوبنا ملتهبة لاننا لا نستطيع ان نتصدّى لهم بشيء من المناجزة

ونحن لكذلك واذا بفارس منهم قد تأخر عن رفاقهِ فترجل عن جواده ليأخذ كيساً سقط منهُ على الطريق . وكان اصحابهُ قد سبقوه فقلتُ لرفاقي : هذه غنيمة باردة فلنهجم كلنا عَلَى هذا الفارس ونقتنصهُ . وللحال انطبقنا عليه من كل جانب غير انه قاومنا اشدَّ مقاومة ولولا توما لكان نجا من ايدينا . وها هو ذاك الفارس الذي اقتنصناه

فصاح جميع اللصوص — بورك فيك يا توما فانت بطل شديد وجبار عنيد

ثم سأل احد اللصوص — وماذا كان في الكيس الذي سقط من هذا الرجل ؟

فقال ثيدور — انظروا . ثم عمد الى الكيس فأفرغه امامهم واذا فيه صليب ذهبي وبعض آنية كنسية غالية الثمن . فلما أبصر اللصوص ذلك ثار ثائرهم واشتدَّ غضبهم وطفقوا يلعنون التتر و يتوعدونهم باشدّ ويلات الانتقام

الفصل الثالث والستون

✵ اغتنام الفرصة ✵

وكان الامير نيكيتاقبيل ذلك في ارتباك عظيم فلما وعى كلام اللصوص ورأى امائر الغيظ والانتقام بادية عَلَى وجوههم لمع في عينيه بارق الامل فدنا منهم وقال — أنظرتم ايها الاحباء كيف ان التتر قاموا الان يستهينون بديننا و ينجسون معابدنا وأقداسنا ويذبحون اخوتنا و يحرقون بلادنا وقد بلغت بهم القحة الى ما لا يتصوَّر . . أفمن العدل ان نتركهم وشأنهم ؟ وهل من المروءة أن نرى البلاد تخرب والكنائس تحرق والاقداس تنهب ورجال الكهنوت تقتل ولا نمدّ ايدينا الى المدافعة والمقاومة وتطهير البلاد من عيث المفسدين ؟

ولما قال هذا ادار نظره في الحشد فرأى الجميع مصغين متأثرين وقد فعلت كلماتهُ فيهم فعل السحر . فاستتلى خطابه قائلاً — فمن منكم بلا اثم ؟ اظن ان آثامنا جميعاً لا تحص فهيا بنا نفتديها بخدمة للوطن هي اشرف الخدَم . هيا بنا نهجم عَلَى اعداء الكنيسة والامة فننال من الله جزاءَ المجاهدين ومن الملك

عفوا مجيدا

فازداد اللصوص تأثراً وانفعالاً وقد دبت في قلوبهم النخوة والمروءة واستفزهم حب الوطن والايمان

فقال احدهم — لقد اصاب الامير في قوله فمن منا يرضى بهذه الحالة السيئة؟

وقال اخر — بل من يقدر ان يرى الكنائس تحرق والانية المقدسة يزدرى بها والاقداس تنجس ؟

وقال ثالث — فاين دمنا واين إقدامنا ؟

وقال رابع — فالشرف اذاً يدعونا الى مقاومة اعداء الوطن والدين والضرب على ايديهم الاثيمة

وقال خامس — والمرء انما يموت مرة وليس مرتين . فأين الموت على المشنقة من الموت المجيد في ساحة الوغى

وقال سادس — نعم فالموت في ساحة الوغى لهو اشرف واجل بل هو عنوان المروءة والشهامة والبسالة

وقال سابع — مالنا ولهذا الكلام فالدفاع عن الوطن والكنيسة فرض مقدس على كل انسان وها انا اول من يتجند للقتال

وقال ثامن — يا لها من دعوة شريفة فانا ايضاً احب ان أتجند بل احب ان افدي الوطن بروحي

وقالوا جميعاً — كلنا نتجند وليس بيننا من يرضى بهذا العار وهذه السبة

فقال الامير وهو متهلل من شدة الفرح — يقولون عنكم انكم نسيتم الله ولم يبق فيكم نفس وضمير فأظهروا للملا الان انكم ذوو نفوس ابية وضمائر حية وانكم متفانون في محبة الوطن والدين ومستعدون لخدمة بلادكم ولو باهراق دمائكم

فاتقدت في صدور اللصوص نيران الحماسة وقالوا كلهم بصوت واحد — نحن مستعدون لخدمة الوطن فلن ندع التتر ولا غيرهم من اعداء الامة والدين يستهينون بروسيا المقدسة . فقدنا ايها الامير الى حيث تشاء . قدنا لنفتدي الوطن بارواحنا . اهجم بنا على هؤلاء التتر لنذيقهم الموت الزؤام ونطهر البلاد

من شرّهم وفسادهم

فقال الامير — واذا أُتيح لنا وضربنا التتر الضربة القاضية ورأى الملك اننا قمنا بخدمة الوطن خدمةً سنية تفوق خدمة رجال الحرس فيعفو عنا جميعاً و يعتبرنا اعتباراً زائدا و يغمرنا بنعمهِ الجزيلة ونكون قد اكتسبنا بذلك اسماً يغطي على جميع سيئاتنا

فقال اللصوص — حبذا ما تقول فلا افضل من الجهاد في سبيل الوطن ولا احبّ من الموت في خدمة الملك والدين

فقال الامير — اذاً فلنشرب نخب الملك

قالوا — نعم فلنشرب

فأخذ الامير كأساً وقال — ارفعوا كؤُوسكم واشربوا جميعاً نخب ملك البلاد وسيدها القيصر يوحنا الرابع العظيم

فصاح اللصوص — ليحيَ الملك

قال — وليحيَ الوطن والدين

قالوا — وليمت جميع اعداء الوطن والدين

قال — وليحيَ كل خادم امين لبلاده ودينهِ

قالوا — وليحيَ الامير نيكيتا زعيمنا وقائدنا

قال — الله معنا فسنظفر بالتتر ونذيقهم عذاباً اليماً

قالوا — هيا بنا فقد اشتدّ ظمأُنا لشرب دمائهم وهاتوا الان هذا التتري وألقوه في النار

قال — رويدكم فلا تفعلوا ذلك قبل استنطاقهِ · ثم امر بتقديم التتري · ولما أُوقف بين يديهِ سأله — كم هو عددكم واين معسكركم ؟ فأشار التتري الى انه لا يفقه كلامهُ · فقال ثيدور — امهلني ايها الامير فأنا أحملهُ على الكلام · ثم أحضر جمرةً بملقط وأدناها من فم التتري كأنه يريد أن يكويه بها · فصاح التتري سأتكلّم سأتكلّم

فأعاد الامير سؤالهُ بقوله — كم هو عددكم ؟

قال — ليس له احصاء يا سيدي

قال — كم هو تقريباً ؟

قال — نحو عشرة آلاف وغداً يحضر جيش آخر قوامهُ نحو مئة الف

قال — ومن يقودكم ؟

قال — يقودنا الان الامير شيخمات وغداً تصير القيادة للخان نفسهِ

قال — واين معسكركم ؟

فتردَّد التتري عن الجواب وتظاهر بانه يجهل ذلك · فأدنى ثيدور الجمرة من فمهِ · فصاح — قريب من هنا يا سيدي

قال — وكم تكون المسافة بيننا الان ؟

قال — نحو عشرة فراسخ لا اكثر

قال — عليك ان تدلنا عَلَى الطريق وتقودنا الى المعسكر

قال — لا سبيل الى ذلك في هذا الليل وغداً اقودكم الى حيث أعرف

فكواه ثيدور بالجمرة وقال — يطلب منك حضرة الامير ان تدلنا الان عَلَى المعسكر فكيف تمتنع ؟

فصاح التتري — سأقودكم الان بشرط ان لا تعذّبوني

فقال الامير للصوص — كلوا الان واطعموا هذا الرجل و بعد نصف ساعة نسير من هنا فكونوا عَلَى اتمّ الاستعداد والاستبسال ·

الفصل الرابع والستون

الشروع في الجهاد

و بعد نصف ساعة كان جميع اللصوص قد تأهبوا فانتظموا وخرجوا من الحرش بقيادة الامير نيكيتا وكلهم متشوّق الى الوصول الى ساحة الوغى · وكان مكسيم و بيرستن راكبين الى جانبي الامير · فقـال مكسيم — قد أنقذتني اليوم ايهـا الامير من الموت وكدتَ تعرض نفسك لشرّ المعاطب فلا أدري كيف

أشكرك على مروءتك وبسالتك

فقال الامير — لا تشكرني يا مكسيم فان ما فعلته ليس الاَّ مكافأة لصنيعك لاني قمتُ بواجب مقدس عليَّ أفلا تذكر الدب ؟ فقد خلصتني انت ايضاً من الموت فوفيتك الان مثل جميلك

فقال بيرستن — اما انا فأهنئك ايها الامير بما آتاك الله من سامي المزايا وشريف الصفات والمروءة النادرة والتعلق الشديد بخدمة الوطن مما لا يجاريك فيه احد من الامراء والكبراء فكيف لا يقدّر الملك إخلاصك وبسالتك ويجعلك اقرب المقرّبين اليه ؟ او كيف يصدّق اقوال الوشاة بك وانت مشكاة الفضل والحق وآية الكمال والصدق ؟ أفمن العدل ان تكون من المغضوب عليهم وانت لم تجنِ الاَّ محبة الوطن وخدمة البلاد ؟ ولكن طوباك ايها الامير فانتَ آية الصلاح وحسن السيرة لا تنظر الاَّ الى الواجب وتنسى كل معاملة سيئة وكل كلمة شريرة في حقك . واني ارجو من لباب القلب ان تطأ قدماك يوماً ما جهات نهر ڤولغا فلي هناك صديق حميم اسمهُ يرماق وهو وائن كان قوزاقياً مثلي الاَّ انَّ نفسهُ تؤاخي نفسك وعواطفهُ تنطبق عَلَى عواطفك وكلا كما جبلتما عَلَى الاريحية ونجتما على المروءة فهو شبيه بك بالبسالة والاقدام وحب الوطن . وهو زعيم فرقة من امثالهِ القوزاق ويريد ان يقوم بأحسن خدمة للبلاد . فيا ليتك تلبي دعوتي وتسير معي بعد ان نفرغ من التتر الى نهر ڤولغا حيث تشاهد ذاك الرجل الباسل ولعلكما تستطيعان اذا اتحد تما معاً ان تخدما الوطن اشرف خدمة لا يمحوها كرور الدهور

فقال الامير — اما خدمة الوطن فهي اشرف واجبات كل انسان عَلَى السواء وكلٌّ منا مدفوع اليها بدافع اضطراري لا اختياري فاذا قمتُ بشيء من تلك الخدَم الشريفة فانما اكون قد أتممتُ فرضاً مقدساً لا مندوحة عنهُ ولا هو مما يقبل الشكر والثناء واما تمنيك ان اشاهد يوماً ما صديقك يرماق فهذا مما أرتاح اليه ولكن بعد مثولي امام الملك وانتظار اوامره

فدهش بيرستن لهذا الكلام وأمسك عن الجواب وسكت ايضاً الامير نيكيتا وغاص في لجة التأملات والافكار . وكان اللصوص يسيرون صفوفاً في

تلك الليلة القمراء وكلهم صامتون . اما التتري فكان سائرًا في المقدمة يخفره كل من خلوبكو وثيدور

وفيماهم على تلك الحالة سُمع من بعيد صوت غناء وعزف فأمر الامير بالوقوف ثم سأل بيرستن عن رأيه . فصاح بيرستن بسمعه وقال — أظننا صرنا على مقربة من معسكر التتر ولا يبعد ان يكونوا وراء هذه التلة فان شئت مرني فأذهب وأستشرف احوالهم وآتيك الى هنا بالخبر اليقين

فقال الامير — اذهب وكن على حذر

فترجل بيرستن وانساب يعدو الى الجهة التي سمع منها الغناء ولم يلبث ان توارى عن الابصار . اما اللصوص فترجلوا ايضًا بأمر الامير عن خيولهم وجلسوا على العشب ينتظرون وقد وطنوا عزائمهم على القتال

ومضى نحو ساعة من الزمن ولم يعد بيرستن فقلق لذلك الامير وأوجس عليه خوفًا . وانه لكذلك واذ ظهر له من بين العشب رجل يعدو وقد كاد يحاذيه . فامتشق الامير حسامه وهجم عليه . فقال الرجل ضاحكاً رويدك يا سيدي فهذا انا بيرستن وقد دنوت على هذه الصورة من التتر فاطلعت على كل ما تهم معرفته فهم كتيبة كبيرة تفوق عددنا اضعافًا ولكن اكثرهم الان لاهون بالغناء والطرب غير حاسبين لاحدٍ حسابًا . فأذن لي الان ان اختار من رجالنا فرقة أسير بها جهة الاعداء حتى اذا قربنا منهم فزّعنا خيولهم وباغتناهم وتكون انت في تلك الاثناء قد قسمت رجالنا قسمين فاذا سمعتم اصواتنا اهجموا على العدو من الجهتين وانا الضمين بالفوز والانتصار

وكان الامير قد تحقق مهارة بيرستن الغريبة ورأى له خفةً وجسارةً لا تكادان توجدان في سواه ففوّض اليه العمل بملء الحرية . فاختار بيرستن فريقًا من اشداء رجاله وأخفهم حركةً وسار بهم بمنتهى التيقظ والحذر . ولبث الامير مع باقي اللصوص كامنين عند التلة ينتظرون الاشارة

الفصل الخامس والستون

المؤاخاة

وكان مكسيم لم يزل الى جانب الامير وهو يود ان تنشب المعركة ليكافح فيها جهده . فلما أبعد بيرستن ورجال فرقته قال للامير — لم يبقَ لنا وقت طويل للانتظار فقريباً يحتدم النزال واذا طلعت الشمس فيكون قدسقط منا كثيرون فاودُّ قبل المعركة ان اكاشفك بما في نفسي وانا واثق من كرمك وأنفة نفسك انك لا تهزأُ بي او تستخفُّ بطلبي

فبهت الامير وقال — وما هو هذا الشيء يا ترى ؟

قال — دعني اولاً اطلعك على حقيقة نفسي فقد خرجتُ من قرية الكسندروفا سرًّا وفي نيتي ان لا اعود اليها البتة لاني كرهتُ أعمال رجال الحرس وبذاءتهم وكان خروجي او بالحرى فراري ضد ارادة والدي وبدون اطلاع والدتي وانت تعرف اني وحيدهما وقد صار لي الان من العمر تسعة عشر عاماً ولم أُصادق احداً من رجال الحرس بل كنتُ بينهم غريباً أُقضي اوقاتي في الانفراد والعزلة لا تزيدني الايام الاَّ نفاراً منهم وكرهاً لمساوئهم لان كل اعمالهم منحصرة في الوشايات والدسائس حتى ضاق صدري وصرتُ أجتهد في الابتعاد عنهم . فلما شاهدتك لاول مرة مالت اليك نفسي وافتتن بك قلبي لانَّ عينيك تبصران بخلاف ما تبصر عيونهم ونغمتك لا تشبه نغماتهم . نعم ان بوريس غودونوف هو اكثرهم فضلاً وأنقاهم سيرةً ولكنهُ لا يماثلك في حبِّ الحقيقة والوطنية والكمالات الانسانية فانت ملاك الشهامة وعنوان النبل ولن أنسى موقفك الحرج بازاء الدب وفي اثناء الوليمة عندما قدَّم لك ثيودور باسمانوف كأس الخمر بعد مقتل الشريف وذهابك بعد ذلك الى موضع الاعدام وحديثك اليوم مع اللصوص . ففي كل ذلك كانت نفسك عظيمة وشهامتك لا مثيل لها . فهنيئاً لك ايها الامير . اما انا فقد اشتدَّ ولعي بك وأحب ان اكون على الدوام قريباً جداً منك . نعم انك ارفع مني شرفاً وفضلاً ولكن نفسك العظيمة لا تحتقر شيئاً من العواطف

فضغط الامير على يده وقال — اما انا فقد أُعجبتُ بك جداً لانك اجريتَ من الشهامة والمروءة ما لا يتأتى لاحد سواك ان يأتي بمثلهِ ولذلك فقد احببتك حباً يفوق الوصف واودّ ان لا يفصلني عنك شيء

فقال مكسيم وقد تهلَّل وجههُ فرحاً — فاذا كان الامر كذلك فاسمح لي يا سيدي الامير قبل نشوب القتال وحسب العادة القديمة في مثل هذه الظروف ان أُوآخيك . هذه هي امنيتي التي اعدّها سعادة حياتي بل هي حياتي كلها . فلا تحتقر كلامي ايها الامير ولا تأنف منه لما بيننا من بعد المرتبة

فقال الامير — لا احبّ الي من ذلك ايها الصديق الحبيب فأنت ارفع رتبةً مما تظن وليس بيني و بينك فرق البتة ولا سيما ونحن في هذا الموقف في ميدان النزال . ثم انتزع من عنقهِ صليباً ذهبياً رُبطت اليه سلسلة ذهبية فناولهُ لمكسيم وانتزع هذا من عنقهِ صليباً معدنياً فقبله وقال للامير — بهذا باركتني امي ونحن في حالة الفقر قبل ان دخل ابي في خدمة الملك فخذهُ يا اخي وصنهُ لانه اثمن شيء لديّ . فتناولهُ الامير وعلقهُ في عنقه ثم ضمّ مكسيم الى صدرهِ فتعانقا طويلاً

ولما فصلا عن بعضهما قال مكسيم وهو يذرف دموع الفرح — الان انت اخي ايها الامير فلن يفرق بيننا شيء سوى الموت فعدوُّك عدوّي وصديقك صديقي وقد صرتُ الان استعذب الموت واذا حييتُ فلم اعد اشعر بمرارة لاني وجدتُ من اعيش معهُ واموت عنه

فقال الامير — وانت اخي بعهد الله وميثاقهِ فلن ارضى بفرقتك ابد الدهر

قال — واذا كتبت لنا الحياة فسنبحث عن خدمة سنية نتمكن بها من خدمة الملك والبلاد في غير دائرة رجال الحرس وعلى الله التدبير

ثم صمت مكسيم واطرق الامير يتفكر . وانهما لفي تلك الحال واذا بهما يسمعان جلبة قوية واصواتاً مرتفعة من جهة معسكر التتر ثم ابصرا خيولاً شاردة في عرض القفر وقد كادت تمرّ بازائهما . فوثب الامير الى ظهر جوادهِ واخترط سيفهُ وصاح برجاله فركبوا وهجم وهم يتبعونهُ كأنهم يسابقون الرياح

الفصل السادس والستون

﴿ الموقعة ﴾

ولما الامير اشرف ورجاله على معسكر التتر ابصروا حريقاً هائلاً في بعض جوانب المعسكر والتتر يتراكضون من جانب الى جانب وقد تصاعدت فوقهم غيوم الدخان ووقعت فيهم الحيرة والارتباك وذابت قلوبهم وايقنوا بحلول اجلهم . فاستلّ اللصوص سيوفهم واطبقوا عليهم يقاتلونهم قتال الاسود والامير يشجعهم بمثاله قبل كلامه فانهُ كان يهجم الى اشدّ المواقع خطراً ويحمل على الاعداء حملات تدك الجبال . ولما اشرقت الشمس تغطت تلك البقعة بجثث التتر غير ان الباقين منهم وهم جمهور كبير تمكنوا من النجاة واركنوا الى الفرار . وكان امامهم في تلك البقعة نهر صغير فعبروه ووقفوا على شاطئهِ الاخر بقيادة الامير شيخمات واخذوا يرشقون اللصوص بنبالهم ويطلقون عليهم العيارات النارية . ولما لم يكن مع اللصوص سوى السيوف والحراب تعذّر عليهم اللحاق بالاعداء . ولما رأى هؤلاء تخاذلهم اشتدّت عزيمتهم واخذت فرق منهم تجتاز النهر للهجوم . فجمع الامير رجالهُ وحضهم على المكافحة والثبات الى ان يقضي الله امراً كان مفعولاً . غير ان اللصوص شعروا بقلتهم وضعفهم فرغبوا الى الامير ان يأمر بانسحابهم من ميدان النزال لئلاّ تفنيهم نار العدو وليس معهم ما يدافعون به في مثل هذه الحال . فوقف الامير واجماً وقد اخذتهُ الحيرة

وفيما هو كذلك دنا منه بيرستن وقد طفح وجههُ سروراً وبيده سيفهُ يقطر منهُ الدم وقال له — لا تقنط يا سيدي فالله معنا . فدهش الامير وسأله عن مراده فقال — في تلك الجهة المقابلة أرى جيشاً وأظنهُ روسياً وهو آتٍ لنجدتنا . فقال احد اللصوص الذين سمعوا كلامه — ومن اين للجيش الروسي ان يطأ هذه الاماكن فلعل ذلك جيش آخر من التتر . فقال بيرستن — انهم روسيون بلا شك لانهم مشاة والتتر لا يسيرون مشاة وزد على ذلك فليس على قائدهم عدة تترية كما ترى

فقويت عزيمة اللصوص ولا سيما حينما رأوا ان الجيش المشار اليه قد اقترب من التتر من الجهة الاخري والتحم بينهما القتال · فعندئذٍ امر الامير نيكيتا رجاله بعبور النهر والهجوم عَلَى الاعداء من المؤخر ففعلوا واغاروا عَلَى التتر دفعةً واحدةً وكانت بين الفريقين ساعة هائلة دارت فيها الدائرة على التتر وقتل منهم خلق كثير

وفي اثناء المعمعة التقى مكسيم بالامير نيكيتا فقال له — الحمد لله يا اخي فقد تغلبنا على الاعداء وقريباً نظفر بجميعهم

فقال له الامير — ولولا هذه النجدة لدارت الدائرة علينا · انظر الى قائدها فانهُ قد ابلى في هذه الواقعة بلاءً حسناً فمن هو يا ترى ? وقد يخيل لي اني رأيتهُ مرةً ولكني لم اتمكن الان من معرفتهِ

فقال مكسيم — انك تعرفهُ بلا شك · فهو الذي اطلق عليك الدب في باحة قصر الملك · هو ثيودور باسمانوف · ولكن الله سيمحو عنهُ لاجل هذا النهار جميع مآثمه السالفة ·

فدهش الامير لدى سماعهِ ذلك وخصوصاً لان ثيودور هذا كان مشهوراً في البلاط الملوكي بخلاعتهِ وبذاءتهِ ولكنهُ مال اليه الان لبسالتهِ وتفننهِ في اساليب الطعان وودَّ ان تنتهي الموقعة ليجتمع به ويمدَّ اليه يد الولاء والاخاء

اما مكسيم فلم يلبث في محادثة الامير طويلاً بل لوى عنان جواده وانثنى عائداً الى النزال وقد طفح السرور على وجههِ وملأت السعادة قلبهُ · والامير ينظر اليه ويعجب من شجاعتهِ وعدم مبالاتهِ بالمخاطر

وبينا مكسيم يجدُّ في اثر التتر وهو لا يحسب للخطر حساباً ارتدَّ عليه بعضهم يقاتلونهُ قتال اليأس وقد صوَّب احدهم الى صدره سهماً اخترقهُ وجندلهُ عن جوادهِ الى الارض · وكان الامير قد رأى من موقفهِ ما يتهدَّد اخاه فهجم الى جهتهِ ليحميه وكانت الفرصة قد فاتت وراح مكسيم شهيد البسالة والاقدام · ولم يكن الامير ينتظر مثل هذه النتيجة المحزنة لا سيما وقد انتهت الموقعة وقتل اكثر التتر ولاذ الباقون بالفرار متشتتين في كل جانب · فشدَّ عليهم الروسيون واعملوا

في ظهورهم النصال وهم يضيحون صياح الانتصار وقد آلوا على انفسهم ان لا يبقوا منهم احداً

وليس للقلم ان يصف حالة نيكيتا حينما وصل الى حيث كان مكسيم ورآه مطروحاً على الارض يتدفق الدم من صدره وقد أُغمضت عيناه . فقفز عن جواده وانحنى على اخيه يقبله ويناديه وهو يئنّ انيناً موجعاً ويبكي بكاءً مرّاً . ثم رفع راسه المعفر بالتراب والقاه على صدرهِ وصاح بصوت اليم : مكسيم ! مكسيم ! أأنت حيٌّ بعد افتح عينيك واسمعني صوتك يا اخي !

ففتح مكسيم عينيه الذابلتين ومدَّ الى الامير يديه ثم قال له بنفس متقطع وصوت خافت : الوداع يا اخي الحبيب ! ان الزمان أبى الاَّ ان يفرّقنا .. فأنا ذاهب عن هذه الارض التي لم ارَ فيها سوى الشقاء .. ولكن وا أَسفاه عَلَى قلب والدتي الحزينة حين يبلغها خبري ..

فقال الامير وقلبهُ يتقطع حزناً — آه يا اخي ! آه يا اخي !

ثم ان مكسيم تجلد وعاد الى الكلام فقال — واعظم ما ارجوه منك يا اخي ان تقابل والدتي عند عودتك فتلطف بقلبها الكسير وتقول لها ان ولدكِ مات وهو يتذكركِ

فقال الامير وهو مستغرط في البكاء — سأفعل ذلك بلا بدٍ

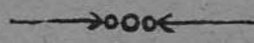
قال — وخذ هذا الصليب من عنقي واعطها اياه واما صليبي فابقه معك تذكاراً دائماً

قال — وهل بقي في صدرك شيء تفضي به اليَّ ? فعلى من تأسف بعد والدتك ? أليس لك حبيب تريد ان توصل كلاماً اليه ? قل ولا تخجل لاني اشتهي ان اقضي لك ما تشاء من الاوطار

قال — لم يدخل قلبي حب شيء سوى وطني العزيز فانا احبهُ اكثر من حبي لوالدتي وقد كنت اودّ ان احيا لاخدمهُ وازداد تفانياً في حبهِ ولكن قد قضي الامر . ولما قال هذا اغمض عينيه وقد اشتدَّت حرارة وجهه وسرعة تنفسه . وبعد بضع ثوانٍ نظر الى الامير ثانيةً وطلب ماءً . وكان النهر قريباً . فقام

الامير مسرعاً ولم يلبث ان عاد يحمل في خوذته شيئاً من الماء . فلما جرع مكسيم منهُ قليلاً انتعش وقال — اني اشعر الان ببعض الراحة فأنهضني قليلاً لامتع بصري بمشهد فوزنا الباهر . ولما انهضهُ الامير وابصر مكسيم اندحار التتر والبقعة المغطاة بجثثهم تبسم وقال — لا اود الان ان اموت ولكن . . .

ولما قال هذا تدفق الدم من فمه فقال — يا الله استلم نفسي . ثم سقط راسهُ عَلَى صدر الامير وفاضت روحه . فأكب عليه الامير يقبلهُ ويندبهُ وقد انصدع قلبهُ . ولم يكن الاَّ القليل حتى احتشد اللصوص ورجال باسمانوف الى حيث كان الامير وقد تأثروا جميعاً لمصرع مكسيم وشاركوا الامير في ندبه ورثائه . ثم دفنوا جثة الفقير بما يليق بمثله من ابطال المعارك



الفصل السابع والستون

باسمانوف

ولما انتهت المعركة عَلَى الوجه الذي ذكر امر ثيودور باسمانوف جنوده ان ينزلوا في تلك البقعة للراحة والمبيت وامر ان ينصب سرادقهُ العجمي عَلَى ضفة النهر وارسل من يدعو الامير نيكيتا لمناولة طعام العشاء . ثم مشط شعره وادَّهن وتعطر وجلس في صدر السرادق وامامهُ فتىً جميل الوجه قد جثا امامهُ على ركبتيه وحمل له في يديه مرآة فكان باسمانوف ينظر في المرآة ويتبسم بمزيد الاعجاب والخيلاء . وكانت دلائل المكر والخلاعة والكبرياء بادية في وجهه . وقد اعتقد ان الامير نيكيتا سيحتقره عندما يراه مهتماً بمثل هذه العوائد الذميمة التي لا تليق الاَّ بالنساء الجاهلات فصمم ان يبادههُ هو بالاحتقار انتقاماً وكبراً . ولذلك فلما دخل الامير عليه وحياه بلطفه وبشاشته لم يتحرَّك هو من مكانه بل حنى له راسه

فقال له الامير ببساطة — ما بالك ايها الشريف فهل تشكو من شيءٍ ؟

قال — كلاَّ فلست اشكو شيئاً وانما اشعر ببعض التعب وأرى ان وجهي يكاد يحترق . ثم تبسم واصلح شعرهُ الذهبي وعاود النظر في المرآة وهو يقول —

واني لمتأسف جداً لاني لا اتمكن اليوم من الاستحمام وليس لي ما يسليني هنا في هذه الارض الجرداء . ولكن غداً ان شاء الله ساعود الى منزلي في البلدة القريبة من هنا وادعوك لمرافقتي حيث استطيع ان اقوم بضيافتك كما يليق . فترى هناك من الغادات الحسان والغلمان الملاح والملاهي والافراح ما يزيل الكروب وينفي الاتراح .

ولم يكن الامير ينتظر مثل ذلك الحديث فاشمأزَّ وقال — اشكرك ايها الشريف على ذلك وارجو ان تعذرني لعدم تمكني من تلبية دعوتك

قال — ولِمَ ذلك ؟

قال — لاني اريد الشخوص الى قرية الكسندروفا

قال — عجباً فكيف تعود اليها وانت قد فررتَ من السجن ؟

فقطب الامير حاجبيه وقال — لم افرَّ بل أُخرجت منه قسراً ولذلك فأنا عائد الى الملك لاني وعدتهُ ان اظلَّ خاضعاً لارادتهِ ما حييتُ فلا يمكنني ان اخلف وعدي

قال — وكيف تريد ان تعود الى الملك وهو يضمر لك شرَّ العذاب ؟ اما انا فانصح لك ان لا تعود الى هناك وربما لا أعود انا ايضاً

قال — وكيف ذلك؟

فتنهد باسمانوف بمكر وقال — تعلم ايها الامير اني خدمت الملك احسن الخدم واخلصها ولم اضنَّ عليه قطُّ بشيءٍ مما في وسعي ومع هذا فهو يعتبر ماليوتا وبوريس غودونوف وغيرهما اكثر مني

قال — اما انا فاظن ان الملك يحبك وقد رفع رتبتك وأدناك اليه اكثر من غيرك من الندماء والاخصاء

قال — ان ذلك لا يرضيني لاني طامح الى ما هو اعلى منه . فالخِدم التي اقوم بها للملك لا يستطيع ان يقوم بها سواي . فاي امر فوَّضه اليَّ ولم انهض به اتمَّ نهوض؟ وزد على ذلك فهل للملك ان يجد بين ندمائهِ واعوانهِ من هو اجمل مني صورةً واتمَّ خلقاً ؟

فلما سمع الامير ذلك لاحت على وجهه علامات الانقباض فلحظ منه باسمانوف ذلك وقال — فقل لي بربك يا حضرة الامير هل رايتَ شعراً حريريًّا كشعري او عينين نجلاوين كعينيَّ او يدين ناعمتين كيدي

فتضايق الامير وقد اخذ منهُ كلام باسمانوف كل مأخذ من العجب فقال — وقد سمعتُ ايضاً انك تسلي الملك برقصك الفتان فلله درُّك

فقهقه باسمانوف ضاحكاً وقال — اذا كانت الاحوال تستدعي ذلك فليس ثَمَّ من حرَج ولا سيما لاني لا اودُّ ان اعصي للملك امراً

فازداد الامير انقباضاً وكدراً ولم يتمالك ان قال اعذرني ايها الشريف لانه لم يعد في امكاني ان اشاركك في طعامك بل لا يليق بي ان اجالسك · قال هذا ونهض يريد الخروج

فلما سمع باسمانوف ذلك اتقدت عيناه بنار الغضب وقال — انا اعلم انك تكرهني منذ زمان وكذلك كثيرون من النبلاء والامرآء الذين عَلَى شاكلتك يرمونني بكل تهمة باطلة تشفياً وانتقاماً اما انا فلستُ لأهتمَّ باحدٍ منكم وسيان عندي رضيتم ام كرهتم

فلم يجبهُ الامير بشيء بل حوَّل ظهره وهو يريد الخروج · فأمسك به باسمانوف قائلاً بلطف — ولو قال لي واحدٌ غيرك هذا الكلام لما احجمتُ عن محاسبتهِ بيدَ انك الان ضيفي وقد ابليتَ في معركة اليوم احسن بلاء فلا اودُّ مخاصمتك

فتوقف الامير عن الخروج وقال بطيب قلب — وانت ايضاً قد اظهرتَ من البسالة والتفنن ما يقلُّ مثيلهُ ولكن لا يليق بمن هذه افعالهُ في ميدان النزال ان يتشبه بالنسآء ويجاريهنَّ قولاً وعملاً

قال — لا تغضب ايها الامير وثق باني لم أكن بهذه الاخلاق قبل مصيري الى قرية الكسندروڤا ودخولي في خدمة الملك فان اجريتُ هناك شيئاً مما ذكرتَ فانما اكون بذلك مسوقاً بحكم الاضطرار ارضاءً لاميال الملك

قال — مهما كانت الاسباب داعيةً فلا ارى لك عذراً في شيء من ذلك لانك من النبلاء الذين لا يليق بشرفهم ان ينسب اليهم شيء من تلك الخلاعات

والمعايب

فقطب باسمانوف حاجبيه ثم قال — لكن هل تعرف ايها الامير طريقة معيشتنافي قصر الملك ؟ فنحن نقضي هناك اكثر الايام بلياليها في الصلوات والعبادات أفلا يجوز لنا والحالة هذه ان نغتنم بعض الفرص لترويح النفس وتفكيهها ببعض الملاهي لا سيما وان الملك يرغب الينا في اكثر الاوقات ان نقيم حفلات رقص وطرب حبًّا بالتسلية وطرد السآمة والضجر . وأظن انك لو كنتَ في مكاني لما تأخرتَ في بعض الاحيان عن الرقص والطرب

قال — معاذ الله ان افعل ذلك ولو افضى الى اراقة دمي

فألقى عليه باسمانوف نظراً غريباً وقال — وهل تفضل الموت عَلَى مثل هذه الملاهي ؟

قال — نعم وابيك . وهل تريد انت بفضل ذلك القصف ان يدعوك الناس ثيودورة ؟ او ليس ذلك منتهى العار والدناءة ؟

قال — قل ما شئتَ ايها الامير اما انا فلا تسعني مخالفة امر الملك مهما كان لذلك من العواقب والمطاعن ولكني اسالك الان ان ندع هذا الموضوع جانباً لان ليس لنا منه فائدة وهات نفتكر في امر الاسرى فقد اسرنا نحو خمسين تترياً فما رايك بشأنهم ؟

قال — ارى ان نعاملهم معاملة الاسرى ونفوّض الامر لجلالة الملك

قال — اما انا فأرى ان نوثقهم واحداً واحداً في عرض البرية ونرميهم بالنبال على بعد مئة خطوة والذي يقتل منهم عدداً اوفر تكون الارجحية له في هذا الفن

فنفر الامير عند سماعهِ ذلك وقال — ليس ذلك شيمتي ايها الشريف فأنا لا انازل مُقيدين

قال — اذا كان ذلك يزعجك فنحلُّ وثقهم وندعهم يركضون ثم نصطادهم بالنبال واحداً واحداً

قال — وهذا ايضاً لا افعله ولا ادعك تجريه فليس هنا قرية الكسندروفا

فتململ باسمانوف في مقعده كمن لدغتهُ عقرب وكاد يحتدم غير انه لم يشأ ان يخاصم الامير لانهُ رآه اقوى منه حجةً واصحّ رأياً فتبسم وقال — عجباً ايها الامير كيف انك تصدّق كل شيء . انما عرفتَ بعد اني امزح وان كل كلامي معك انما هو مزاح ومداعبة ؟ اما انت فقد اعتبرتهُ عين الصدق وتأكدتَ اني ارقص بحضرة الملك وأفعل غير ذلك من الافعال الغريبة . فثق الان باني لم اجرِ شيئاً من ذلك ولاتصدّق كل افك وبهتان . واعلم باني منذ زمان قد سئمتُ الحياة في البلاط ولم يعد يسرّني هناك شيء ما دام ماليوتا و بوريس غودونوف وغريازنوي والامير اثناسي فيازيمسكي وامثالهم نافذي الكلمة لدى الملك وهو يحبهم و يصدقهم في كل شيء . وقدارتأيت رأياً ولا اخالك ترفضه فثق بي ودعني اسبقك الى قرية الكسندروفا حتى اذا مثلت امام الملك انبأتهُ عنك وحدثتهُ ببسالتك وفوزك المبين عَلَى التتر و بذلك امهد سبيل الصفح عنك فيستقدمك الملك اليه و يغمرك بجزيل انعامهِ ومتى صرتَ الى هذه الحالة فلا يصعب عليك ان تكافئني بخدمةٍ صغيرة لا تتقاضاك شيئاً من الصعوبة وذلك انك تأخذ تشي للملك اولاً بماليوتا ثم بالامير اثناسي ثم ببوريس غودونوف و بغيرهم من ذوي المكانة العالية في القصر واذاخدمك التوفيق فلا يمضي عَلَى ذلك الاَّ مدة قصيرة حتى يتغير الملك عليهم جميعاًو يرغب في تنكيسهم وحينئذٍ يصفو لنا الوقت و يصير الملك رهن اشارتنا نديره كيفما نشاء وعلى هذه الصورة تكون قد خدمتَ نفسك وخدمتني فكيف ترى هذا الراي ؟

ولم يسمع الامير نيكيتا هذا الكلام حتى اقشعرّ جسمهُ ولم يعد في وسعه ان يحتمل مثل هذا التلون وهذه الرقاعة فظهرت عَلَى وجهه علامات الاحتقار الشديد لجليسه وقال له اقصر عن هذا الحديث فان الذي تقوله لهو منتهى الخسة والدناءة وانا أرفع من ان اسمع مثل هذا الكلام

فارتجف باسمانوف وقال — وهل انت تميل الى ماليوتا او الامير اثناسي او الى غيرهما من زعماء رجال الحرس حتى نفرتَ من كلامي ؟

فقال الامير وهو لا يملك نفسهُ من شدّة الانفعال — اني اكرههم واكره

جميع رجال الحرس كرهاً شديداً ولو سألني الملك عنهم لقلت له في حضورهم انهم وحوش وأنذال · اما ان أشي باحد من الناس ولو كان اشدّ اعدائي فهذا مما لم اتعوّده لان نفسي تترفع عما تعوّدتموه انتم من دسّ المفاسد والقاء الضغائن وما يتخلل ذلك من التدليس والمصانعة

فقال باسمانوف — فاذاً انت لا تريد ان تقاسمني نعمة الملك

فاجاب الامير — لا اريد · ثم قام فخرج من السرادق وهو في اشد الهياج · ولم يتمكن باسمانوف هذه المرة من ارجاعه فلبث في مكانه يحرق باسنانه وقد أقسم ان ينتقم من الامير على هذه الاهانة · و بعد قليل استدعى جماعة المغنين من رجاله واخذ يشرب و يطرب وهم يرقصون و يعزفون

اما الامير فلما خرج تنفس الصعداء وتوجه اولاً فزار حفرة اخيه مكسيم ثم انضمّ الى اللصوص وكانوا قد اجتمعوا في بعض جوانب تلك البقعة واضرموا النار وجلسوا لمناولة طعام العشاء

الفصل الثامن والستون

﴿ الانفصال ﴾

ولما انبلج فجر اليوم التالي هبّ اللصوص من مراقدهم واخذوا يتأهبون للمسير فوقف بيرستن في وسطهم وقال — لم يعد في امكاني ان ابقى معكم ايها الرفاق لانّ واجباً يستحثني للرحيل عن هذه الاصقاع فأنا منطلق الى جهات نهر فولغا وعليه فأستودعكم الله الان واسألكم الصفح عن كل ما بدا مني نحوكم من الاساءة

فتعجب اللصوص وقالوا كلهم بصوت واحد — وكيف تتركنا والى اين نذهب بدونك ؟

قال — اذهبوا مع الامير فهو لا يتركم

فازداد انذهال اللصوص ووقفوا صامتين محتارين · فقال لهم الامير — اعلموا بـاني قد اقسمتُ لجلالة الملك ان لا افر من حكمه وكلكم تعرفون اني لم

اخرج من السجن الاَّ بالرغم عن ارادتي ولهذا فهاءَذا عائدٌ الى الملك برًّا بقسمي فهل تحبون ان ترافقوني ؟

قالوا — وهل يصفح لنا و يرحمنا ؟

قال — ان ذلك في علم الله فلا أ ريد ان اخدعكم فلعل الملك يعفو عنكم ولعلهُ لا يعفو فافتكروا مليًّا في هذا الامر واخبروني صريحًا من يريد ان يتبعني ومن لا يريد

فتنحى اللصوص عنهُ وعن بيرستن الى جهة اخرى واخذوا يتداولون و يتشاورون و بعد بضع دقائق عادوا وقالوا — اننا نتبعك اذا كان الزعيم يذهب معنا

فقال بيرستن — ان ذلك يستحيل عليَّ الان كما انه لا يمكنني ان اظلَّ معكم لاني وطنتُ النفس على الرجوع الى وطني ولا سيما بعد ان صدر منكم بحقي ما صدر فاما ان تنطلقوا مع الامير او ان تختاروا لكم زعيماً آخر غيري واني أنصح لكم ان تتبعوا الامير الى حيث يريد لان الملك لا بدَّ ان يعفو عنهُ وعنكم بالنظر الى هذه الخدمة الوطنية الخطيرة التي قمتم بها

فلما رأي اللصوص إصرار بيرستن على الانفصال عنهم ابتعدوا مرةً اخرى و بعد مفاوضة طويلة انقسموا فرقتين فتقدمت احداهما الى الامير وكانت اكثر عدداً من الاخرى وقالت — ها نحن بين يديك فقدنا الى حيث تشآء

فقال الامير — وعلَى اي شيءٍ عزم اخوانكم الباقون؟

قالوا — انهم اختاروا خلو بكو زعيماً لهم فلم نرضَ نحن بهِ بل آثرنا الذهاب معك الى قرية الكسندروفا

فقال بيرستن للامير — ان رجال تلك الفرقة لا يصلحون للانضمام اليك لانهم دون هؤلاء بسالةً واقداماً

فقال له الامير — ولماذا لا تذهب انت ايضاً معنا ؟

قال — ان لذلك سببين فالاول هو ان الملك لن يعفو عني لان جرائمي اكثر من ان تحصى ولا هي مما يعفى عنه والثاني هو اني في اشدّ الشوق الى صديقي يرماق فلا بدَّ لي من المسير اليهِ فقد مضى على فراقنا عدة سنوات حسبتها دهوراً طوالاً

فأستودعك الله ايها الامير الباسل واسأله تعالى ان ينيلك مبتغاك و يطيل في عمرك

ثم دنا منه فتعانقا طويلاً وانفصلا عن بعضهما وهما في اشدّ الانفعالات النفسانية . ولما أشرقت الغزالة عَلَى تلك البطاح كان اللصوص قد تأهبوا للمسير . فنظر الامير الى المكان الذي كان فيه سرادق ثيودور باسمانوف فلم يرَ شيئاً ففهم ان باسمانوف قد ترك تلك البقعة غلساً وسار بعسكرهِ حثيثاً لتكون له الاسبقية في تبشير الملك بالغلَبَة

ولما تمّ كل شيء تقدم بيرستن الى جميع رفاقهِ اللصوص فودّعهم واحداً واحداً ولما دنا من توما عانقه وهو يقول — بورك فيك ايها الفتى الباسل فقد كنت في معركة امس بمقام عشرة ابطال فلن يدعك الملك بلا نعمة جزيلة

ففرك توما جبهتهُ وقال — اما انا فلا اريد الذهاب الى قرية الكسندروفا

فاستغرب بيرستن منه ذلك وقال — فالى اين تريد اذاً ؟

قال — اريد ان ارافقك

قال — والى اين ترافقني فانا ذاهب الى جهات نهر ڤولغا

قال — وانا ايضاً اذهب الى هناك

قال — ولمَ لا تذهب مع الامير ؟ هل تخشى رجال الحرس ؟

ففرك توما جبهتهُ مرة اخرى ثم اصلح ثيابه وقال — انا لا اخشاهم وانما لا احبُّ ان اراهم لانهم اختطفوا عروسي

فضحك بيرستن وقال — فاذا كنتَ لا تريد ان تنسى الاساءة فانضمّ الى خلوبكو

قال — لا أُريد

قال — فماذا تريد اذاً ؟

قال — اريد ان اذهب معك الى جهات نهر ڤولغا

قال — اما انا فلا اريد ان اسير الى هناك توّاً

قال — وانا كذلك

قال — واريد قبل مبارحة هذه الديار أن ازور قرية الكسندروفا

فقال توما وقد حدّق اليه ببصره — ولاي سبب تريد ذلك ؟

قال — لاني في السنة المنصرمة اكلت هناك جوزًا ونسيت القشور

فنظر اليهِ توما بتعجب ثم ضحك ضحكةً عالية كانهُ حزر ان بيرستن يريد بذهابهِ الى قرية الملك ليس لاجل قشر الجوز بل لامر آخر فقال — مهما كان السبب فلن انفصل عنك

قال — واذا شنقوك هناك فلا تلم الاَّ نفسك

قال — انا لا اخشى احدًا ما دمتُ برفقتك

قال — ودّع اذن رفاقك وهيَّا بنا

ولما كان توما يودّع اللصوص قال الامير لبيرستن — فاذا كانت وجهتك قرية الكسندروفا فطريقنا اذًا واحدة

قال - كلا ياسيدي فانا اسير في مسالك لا تعبرها انت وسأسبقك الى القرية بايام كثيرة لانه لا بدَّ لك من التأخر قيامًا بشؤون رجالك واذا اتفق ورأيتني فارجو منك ان لا تتظاهر بمعرفتي • ولكن الارجح اننا لا نتقابل فسأخرج من القرية قبل وصولك اليها لاني لا اريد ان اقضي هناك الاَّ وقتًا قصيرًا لبعض مهام خطيرة

فأدرك الامير ان لبيرستن سرًّا لا يودُّ كشفهُ وقد يكون ذلك كنزًا مطمورًا في بعض ضواحي القرية او غير ذلك فسكت ولم يسألهُ شيئًا

ولم يكن بعد ذلك الاَّ القليل حتى سار اللصوص فرقتين في وجهتين مختلفتين وكان الامير قد زار لآخر مرة قبر اخيهِ مكسيم ثم سار في طليعة رجالهِ عَلَى ضفاف النهر يتبعهُ بويان كلب مكسيم وهو محنيُّ الرأس كانه عرف ما اصابهُ فظهر عليه الانكسار الشديد

اما بيرستن وتوما فانطلقا في جهة اخرى انطلاق الرياح ولم يلبثا ان تواريا عن الابصار

الفصل التاسع الستون

﴿ حبوط المسعى ﴾

بعد ان مضى عَلَى كسرة التتر اسبوع كامل كان ثيودور باسمانوف قد وصل الى قرية الكسندروفا عائداً من ولاية ريازان فشخص تواً الى قصر الملك وصدره طافح بالمسرة لانه ايقن ان الملك سيرحب به ويتلقاه بما شاء من ضروب الاكرام والانعام لانهُ قام بالمهمة التي ندب اليها احسن قيام وقد ظن ان الملك لم يطلع بعد عَلَى تفاصيل الموقعة فأمل ان يكون هو البادىء في هذه البشارة السارة وصمم عَلَى ان ينسب شرف الظفر كله لنفسهِ من غير ان يذكر الامير نيكيتا بشيء . غير ان الملك كان قد عرف تفاصيل المعركة قبل وصول باسمانوف الى القرية ولم يخفَ عليهِ شيء . فلما مثل ثيودور بين يديه شرع يسرد له خبر الموقعة من اولها ويذكر له ضروب التفنن والفروسية والحنكة التي أبداها وكانت سبباً في قهر التتر وكسرهم أوشم كسرة . ولما فرغ من حديثهِ قال — والخلاصة اني بذلتُ وسعي وطوحتُ بنفسي الى اشدِ المخاطر في سبيل مرضاتك يا سيدي الملك فلا تنس انت عبدك الامين الذي اراد ان يجود بروحهِ في ساحة الوغى حباً بخدمتك وخدمة البلاد وهو مستعدٌ ابداً لقضاء كل ما تأمر به جلالتك من الخدم

وكان الملك في اثناء ذلك مصغياً اليهِ اتم الاصغاء فلما فرغ من كلامهِ رفع الملك رأسهُ فتبسم وقال — وبماذا تريد ان نكافئك جزاء هذه الخدمة ؟

قال — بالذي تراه اصلح لشأني وارفع لمقامي في عيون رجالك

قال وكيف تشير علينا ان نكافىء الامير نيكيتا فانهُ عَلَى ما بلغنا قد أبلى في هذه المعركة احسن بلاء ولولاه لتغلب عليكم التتر ومزقوكم كل ممزق

ولم يكن باسمانوف ينتظر مثل ذلك الكلام فأطرق هنيهةً وهو غائص في لجة من الافكار المقلقة ثم رفع رأسه وقد امتقع لونهُ واتقدت نار الحسد في صدرهِ وقال — أنسيتَ ايها الملك ان الامير نيكيتا هو احد المجرمين الكبار وقد فرّ من السجن ؟ فبماذا تريد ان تكافئهُ بغير المشنقة ؟ اما انهُ أبلى في المعمعة بلاءً حسناً

فهذا غير صواب والذي أبلغكَ ذلك كاذب لا محالة فان الامير نيكيتا قد كاد بسوء تدبيره وعدم انتظام رجاله ان يفسد العمل ويجعل الغلَبَة للاعداء وربما قصد بذلك مناصرة التتر علينا لاهوآء في نفسه لا يعلمها الاَّ الله

فالقى عليهِ الملك نظرة ازدراء وقال -- حسبك من مثل هذا الكلام وثق باني قد عرفتُ تفاصيل الواقعة اكثر مما تعرفه انت فلن يتأتى لك والحالة هذه ان تموّه عليَّ الحقيقة وتنسب كل الفضل لك · وهل نسيتَ وقائعكَ السابقة ؟ ففي ايها نجحتَ ؟ اما نجاحك في هذه الموقعة فينسب كلهُ الى الامير نيكيتا بلا ريب فهو قائد مدرَّب وبطل مغوار لا يهاب الموت ولا تروعهُ المهالك فقد كان الظفر حليفهُ في سائر المعامع التي خاض غمارها ان كان في حروبه مع الليتقاو بين او التتر او غيرهم من اعداء البلاد فلا يسوغ لك ولا بوجه ان تختلس فضل غيرك وتنسبه لنفسك بل كان الاحرى بك ان تطنب بمدح الامير نيكيتا والثناء عليه بما هو اهلهُ

وكان باسمانوف كمن يسمع الحكم المبرم عليهِ · فلما فرغ الملك من كلامه قال له بصوت يرتجف من شدَّة الغيظ — لم يكن في حسباني يا سيدي الملك ان تعاملني بمثل هذا الفتور وتقابلني بمثل هذه القساوه وانا لم اقم حتى الان الا بما يرضيك · أجل يا مولاي انني اتفانى في سبيل خدمتك ومرضاتك اكثر من ماليوتا وبوريس غودونوف والامير اثناسي ڤيازيمسكي وغيرهم من الاخصاء اما انت فتفي الجميع حق خِدَمهم وتغمرهم بالنعم السنية وترفع مقاماتهم ورتبهم واما انا فلا تلتفت اليَّ بل تصمُّ اذنيك عن سماع ندائي وتحسب حسنتي سيئةً وخدمتي ذنباً

فقال الملك وقد نظر اليهِ نظرة احتقار — الحق معك فان اولئك الاخصاء لا يجارونك في الرقص فانت تفضل عليهم جميعاً من هذا القبيل

فلما سمع باسمانوف ذلك شعر ان الدم جمد في قلبه فلم يتمالك ان قال — فاذا كنتُ غير لائق بخدمتك فاصرفني من امام وجهك ولا تدعني اذوب كمداً

الفصل السبعون

الشَّرَك

وقد املَّ باسمانوف ان الملك سيشفق عليهِ ويجبر خاطره غير ان الامر كان بالعكس فان الملك كان قد فترت محبتهُ له من يوم الحكم عَلَى ولي العهد بالاعدام وكان ذلك الفتور يزداد يوماً فيوماً وماليوتا لا يدع فرصة تمرُّ دون ان يغتنمها للايقاع بهِ والوشاية عليه . ولذلك فلما فرغ باسمانوف من كلامهِ نظر اليه الملك بعبوسة وقال له بلهجة الآسف المزدري — ولئن كان ابتعادك يشقُّ علينا لانك عضدنا ونصيرنا غير اننا نسمح به اضطراراً ونحن نعلم يقيناً ان شؤُون المملكة ستختلُّ ببعادك وتضطرب احوالنا الداخلية والخارجية فاذهب إذن عَلَى بركة الله الى حيث تشآء ولستُ اريد ان أعترضك في ارادتك واحول دون بغيتك

فلما سمع باسمانوف ذلك تحقق خيبتهُ فتبدلت سحنتهُ وتصبب العرَق البارد من جبينه فنهض وقال — اشكرك يا سيدي الملك عَلَى ما تفضلتَ به . أشكرك لانك تطردني من امام وجهك وانا لم اجنِ اثماً ولا اتيتُ منكراً وها انذا سأتحدث في البلاد بانعطافك وميلك اليَّ . فقد خدمتك وكافأتني احسن مكافأة . عَلَى اني احمد الله لاني لم ازل مخلصاً لك في السرّ والعلانية ولم استخدم السحر او غيره من الامور التي يستعملها غيري توصلاً لنيل مآربهم وهم يظهرون لك منتهى الاخلاص وحسن الخدمة

ولما قال هذا تظاهر بانه يريد الخروج فاستوقفهُ الملك بقوله — قلت ان البعض يستخدمون السحر فمن همِ ?

قال — قد عرفتُ واحداً منهم الان وهو الامير اثناسي ڤياز يمسكي فانت تحبهُ ولا تزال تغمره بانعاماتك الطائلة بينا هو يغتنم كل فرصة فيشخص الى موسكو ومنها ينطلق الى طاحون في وسط الاحراش والغابات حيث يقضي اوقاته في السحر وسائر اعمال ابليس بقصد اذيتك واغتيالك . وهذا الامير هو من اقرب اخصائك . افرأيت كيف يكافئ محبتك اياه وارتياحك اليه ?

وقد كان لهذا الكلام وقع أنكى من الحسام في قلب الملك فهاجت فيهِ الافكار وماجت وبقي مدةً مطرقاً عابساً ثم رفع رأسهُ وقال — وانت كيف عرفتَ ذلك؟

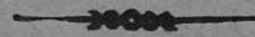
فقال باسمانوف وقد ايقن بنجاح الشرك الذي نصبهُ — عرفتُ ذلك من خدَم الامير نفسه

قال — ولماذا لم تُنه اليَّ ذلك قبل الان ؟

قال — لاني لم اطلع عليه منهم الاَّ اليوم

فأطرق الملك قليلاً ثم قال — اذهب الان ولا تبرح القرية قبل ان تقف على امري وسأتحرى هذه القضية بنفسي

فخرج باسمانوف وهو مسرور لانه ادرك بعض النجاح في تغيير قلب الملك على احد مناظريه ومزاحميهِ لانه كان شديد القلق لنفور الملك منهُ ومعاملته اياه بتلك المعاملة القاسية



الفصل الحادي والسبعون

﴿ شكوى موروزوف ﴾

بعد انصراف ثيودور باسمانوف خرج الملك الى ديوان القصر وقد احاط به بعض رجال الحرس من كل جانب فطلب ان يقدَّم اليه الاشراف الذين حضروا من موسكو ومن غيرها من المدن والاقاليم لمواجهتهِ في شؤونهم واحوال اقاليمهم · فكان يحادثهم واحداً بعد واحد فيقضي حاجاتهم و يزوّدهم بالاوامر اللازمة و يصرفهم · وفي آخر الكل دخل احد الحجاب وقال — بقي الشريف دروجينا موروزوف وهو يسأل جلالتك ان تأذن له بمواجهتك بعض الوقت

فجحظت عينا الملك وقال — عجباً اوَ موروزوف هنا ؟ فقد نمي اليَّ انهُ قضى فريسة النار يوم احترق منزله فادخلهُ لننظر في امرهِ فقد عفوتُ عنهُ منذ زمان

و بعد قليل دخل الشريف موروزوف تحفُّ بهِ المهابة والجلال ولما دنا من الملك جثا امامهُ عَلَى ركبتيه ودعا له بالتأييد · وكانت الانظار قد احدقت به

والجميع أنصتوا ليسمعوا كلامه . وكان وجههُ اصفر وملامحهُ تدلُّ على الحزن الشديد وقد بقي على جبهته اثر جرح بليغ حصل له من سيف الامير اثناسي يوم هجم عليه وسبى امرأته . وكان مرتدياً ثوباً بسيطاً ليس عليهِ شيء من علامات العظمة والابهة . فنظر اليه الملك وقد تذكر حالة هذا الشيخ وأَنفتهُ وكبرياءه وقابلها بحالتهِ الان وهو ذليل منكسر فسرَّ لهذا الانقلاب العظيم لانه كان يكره موروزوف ويحسبه احد اعدائهِ نظراً لتصلُّبهِ بآرآئه وشموخ نفسه . بيدَ انه اراد الان ان يتظاهر له بالمودة والانعطاف فقال له بلطف — ما بالك ايها الشريف مرتدياً هذا الثوب البسيط وانا قد عفوتُ عنك منذ زمان ؟

فاجاب الشريف وهو لم يزل جاثياً — كيف يليق بي ايها الملك ان ارتدي الثياب الفاخرة وقد هجم عليَّ رجالك فحرقوا منزلي وسبوا امرأتي بقيادة احد اخصَّائك الامير اثناسي ڤيازيمسكي

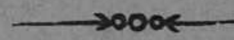
فقال الملك — انهض وأَطلعني على جلية الخبر واذا ظلمك احد من رجالي فسأَقتصُّ منه ولو كان أقرب الناس اليَّ

فلم ينهض موروزوف بل لبث جاثياً وقال — مُرْ اذاً ايها الملك باستدعاء الامير اثناسي ليسمع دعواي عليه ويجاوب جلالتك

فأَطرق الملك هنيهة ثم قال — انك عادلٌ فيما طلبتَ لان المدَّعى عليه يجب ان يحضر ليسمع شكوى المدَّعي . ثم امر بعض الحجّاب ليستدعوا الامير اثناسي وامر موروزوف ثانيةً ان ينهض ويجلس ففعل

وكان قد مضى على الحادثة التي جرت في منزل الشريف موروزوف اكثر من شهرين كان الامير اثناسي في خلالهما قد برئ من جراحهِ وعاد الى المعيشة في قرية الكسندروڤا كعادته السابقة غير انهُ كان شديد الاكتئاب حزيناً للغاية لانه لم يعد يسمع عن هيلانة شيئاً وقد اجهد نفسهُ للوقوف على معرفة مقرّها وبثَّ للبحث عن ذلك العيون والارصاد فلم يفز بطائل . فسئم الحياة وعاف الملذات والملاهي وكان يقضي اوقاتهُ لاهياً بنفسه لا يشارك رجال الحرس في حفلاتهم ومسرَّاتهم حتى دهش الجميع لتغير اطوارهِ ونسبوا ذلك لعارض جنوني حصل له

من شدة الصبابة والهيام . اما الملك فكان لا يذخر واسطة لتسليته الاَّ ويفعلها ولكن كل مساعيه قد ذهبت بلا جدوى . بيدَ انهُ لما سمع عنهُ من باسمانوف ذلك الحديث تغير عليه وصار يسعى لكشف اسراره ونواياه وقد ايقن ان له من الخفايا ما لا يجوز التساهل به . ولذا فلما حضر موروزوف وعرض شكواه تلقَّاه بالاصغاء وحسن المعاملة ورضي ان يحضر الامير للمحاكمة وقد أمَّل انه سيطلع بهذه الواسطة عَلَى كثيرٍ مما يريد تحققهُ



الفصل الثاني والسبعون

﴿ المقابلة بين الخصمين ﴾

وبعد هنيهة حضر الامير اثناسي وقد دلَّ ظاهرهُ على ما سرى في باطنهِ من الاحزان والشدائد فتجعد وجههُ وخطف لونهُ ولزمتهُ العبوسة الدائمة

فقال الملك — تقدم الى هنا يا اثناسي وقف انت ايضاً يادروجينا واخبرني بالتفصيل عن الحادث الذي جرى لك ولا تخفِ شيئاً

فنظر الشريف الى الملك وتلا عليه قصته بتمامها . فذكر له امر هجوم الامير اثناسي واحراق منزله وسبي امرأتهِ الى غير ذلك من البلايا والكبائر التي اجراها الامير ورجاله وهم انما جاءوا اليه بمظهر الصداقة والولاء

فوجه الملك حينئذٍ كلامهُ الى الامير اثناسي قائلاً — وهل حدث كل ذلك كما قرَّر الشريف دروجينا ؟

فدهش الامير من سؤال الملك لانهُ قد عرف الحادثة بتفاصيلها منذ زمان وقال — نعم

فقطب الملك وجههُ والقى على الامير نظراً حادًّا وقال — وكيف تجرَّأتَ عَلَى هذه الفعلة الوحشية ؟ وهل بلغ منك ومن رفاقك الحرَّاس ان تسطوا على بيوت الناس وتنهبوها ؟

فازداد الامير انذهالاً وقال — انت تعلم يا سيدي الملك ان احراق منزل

الشريف قد تمّ بغير امري واما سبي ربة المنزل فقد كان باذن منك

فاستشاط الملك غيظاً وصاح بهِ — بإذنٍ مني ؟ ومتى اذنت لك بذلك ؟ انك تهذي يا اثناسي

فحار الامير في الامر حيرة شديدة وقد ضاق صدره وخشي العاقبة ولم يعلم كيف يبرّر نفسهُ وقد دهش على الاخص لان الملك كان في اثناء الوليمة قد أباحه سبي امرأة الشريف بل هو الذي أرشده الى ذلك بتلك الحكاية التي سردها له اذ ذاك فكيف يحاول الان نفي ذلك بتاتاً . وكان الامير الى تلك الدقيقة يكره الحياة و يود ان يتخلص منها ولكنهُ اذ أدرك ان هيلانة لم تزل بعيدةً عن زوجها وانهُ ربما يقدر ان يتوصل اليها بكثير من الوسائل الفعالة عاودهُ ماء الحياة وجرى في عروقه دم الرجاء وعزم على ان يبرّر نفسه باي طريقة كانت فقال للملك — كلاّ يامولاي انك لم تأذن لي بسبي امرأة الشريف بل امرتني ان انطلق الى منزلهِ وأبلغهُ رضاك وعفوك عنه . فأخذتُ فرقةً من رجال الحرس وانطلقتُ اليه لاقوم بالمهمة التي ندبتني اليها . ومعلوم ان الشريف يكرهني منذ زمان وقد اضمر لي السوء لما كان قد حصل بيني و بين امرأتهِ من العلائق قبل ان صارت اليه وكان عنده اذ ذاك الامير نيكيتا فصمما على الايقاع بي . و بعد المأدبة هجما برجالهما علينا وهم يحاولون ان يفتكوا بي و برجالي فدافعنا عن انفسنا وقابلناهم كما قابلونا . وكانت امرأة الشريف قد خافت على نفسها من زوجها فتوسلت اليّ ان احميها ولا اتركها فحملتها من منزلها على جوادي باختيارها التام وما كدت ابعد عن منزل الشريف حتى أثّرت بي الجراح التي نالتني منه ومن الامير نيكيتا فسقطتُ عن الجواد لا أعي شيئاً ولم اعد اعرف عن الشريفة خبراً فلعلّ زوجها قد ظفر بها بعد ذلك فحبسها او قتلها لينتقم مني . واني لفي غاية العجب منه فكيف يهجم عليّ في بيتهِ ويأتي بعد ذلك فيشكوني مع ان الحق في الشكوى هو لي وليس له

ولم يكن الملك ينتظر مثل هذه القحة الظاهرة والكذب المحض بيدَ انه سكت ولم يعترض الامير في شيء لما خطر له اذ ذاك من الافكار والمآرب

اما موروزوف فانتفض من شدّة الغضب ونظر الى خصمه بملء الازدراء وقال انك غدّار ومخاتل ايها الوغد الزنيم وليس فيك صدق البتة وهاءنذا مستعدٌ ان اقسم في حضرة الملك بالله وبالشرف اثباتاً لكلامي ودحضاً لترّهاتك وبهتانك ثم التفت الى الملك وقال — مرهُ يا سيدي الملك ان يردّ عليّ زوجتي التي حللها لي الله والشريعة

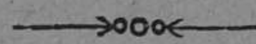
فنظر الملك الى الامير وقال — فبماذا تجاوب موروزوف على طلبهِ ؟

قال — قد قلتُ لك يا سيدي اني سقطتُ على الطريق لا أعي شيئاً لان الدم كان يتدفق من جراحي بغزارة وقد وجدني على تلك الحالة رجالي فحملوني الى طاحون في بعض اطراف الحرش ولو لم يعالجني الطحان ويقطع نزيف الدم لكنتُ قضيتُ نحبي لا محالة . ولما اخذني رجالي لم يكن بجانبي لا جوادي ولا امرأة الشريف فدعواه عليّ في ذلك باطلة

فلما سمع الملك ذكر الطاحون والطحان ازدادت شكوكه بالامير اثناسي وصدّق وشاية باسمانوف غير انهُ اخفى ذلك في صدرهِ لفرصةٍ اخرى وقال له — ان الشريف دروجينا مستعدٌ ان يقسم على صحة دعواه

فقال الامير وانا ايضاً مستعدٌ ان اثبت كلامي وأدحض دعواه بأغلظ الايمان

فلما سمع الحضور ذلك دهشوا لوقاحة الامير وكذبهِ الظاهر لانهم عرفوا كيف جرت الحادثة وقد حضرها كثيرون منهم وهم وائن كانوا اشراراً الاّ انهم ذُعروا لتصميمه على القسم الكاذب بالله وبالشرف



الفصل الثالث والسبعون

القول الفصل

ولم يكن الملك ينتظر مثل هذه الدناءة التي عزم عليها الامير اثناسي وهو على جانب عظيم من نبل الاصل وشرف المحتد فكيف أدّى بهِ جنونهُ الى ارتكاب هذا المنكر . غير انهُ لم يزجرهُ بل اطرق صامتاً مفكراً وقد اراد حلاً لهذا

المشكل بحيث يتسنى له معاقبة الاثنين دفعةً واحدةً · وبعد قليل رفع رأسه وقال لجماعة الحرَّاس الواقفين — لا يمكن ان يكون الحق في جانب الاثنين اذ لا بدَّ ان يكون احدهما كاذبًا في دعواه ولما كنتُ لا أريد هلاك نفس احدهما فليتحا كما في ميدان النزال وليفعل الله ما يشآء · وعليه فبعد عشرة ايام يكون لهما يوم مشهود يتبارزان فيهِ في الساحة الكبرى فمن نصرهُ الله كان صادقًا والذي يُخذَل فان قُتل من خصمه نال جزاءه والاَّ فستناله يدُ الجلاد

ولما سمع الحضور هذا الحكم ايقنوا ان الملك انما يريد بهذه الطريقة اهلاك موروزوف لا محالة لانه شيخ طاعن في السن فلن يتسنى له مبارزة الامير اثناسي وهو في شرخ شبابه ومنتهى نضارتهِ وظنوا ان الشريف سيعترض على هذا الحكم ولا يقبل بهِ او انهُ يسأل الملك ليأذن له ان يقيم عنه لهذه الغاية مبارزًا بالاجرة · غير انهُ انحنى للملك وقال بكل وقار وسكينة — ليكن كما تريد ايها الملك · نعم اني ضعيف وطاعن في السن ومنذ زمان لم اتقلد عدَّة الكفاح ولكن حاشا للعدل الالهي ان ينتصر لغير الحق فانا راضٍ بمبارزة الامير وسينظر الله بعين رأفتهِ وعدلهِ الى هذا الامر الخطير ويظهر للملا صدقي وكذب خصمي

اما الامير اثناسي فما كاد يسمع حكم الملك حتى طفح قلبهُ سرورًا وأُفعمت نفسهُ آمالاً لما يعلمهُ في نفسهِ من القوة والتفنن في اساليب البراز ولا سيما لان خصمه في غاية الضعف والشيخوخة · ولكنهُ لما سمع كلام موروزوف خفق قلبه وداخلهُ الشك في الفوز وخاف عدل الله · فوجم وارتعد غير انه كتم ما بهِ وقال بدون تردُّد — امرك مطاع يا سيدي الملك

فقال الملك لهما — انصرفا الان الى حيث تشاءان وبعد عشرة ايام تبادران الى الساحة الكبرى مصحوبين بشهودكما وكفلائكما والويل لمن ينتقم منهُ عدل الله · ثم ودَّعهما وعاد الى مخدعهِ · فخرج موروزوف من الردهة بقدم ثابتة ولوائح العظمة طافحة على وجههِ وهو لا يكاد ينظر الى احدٍ من رجال الحرَس

الفصل الرابع والسبعون

زيارة خفيّة

وفي اليوم التالي ظعن الامير اثناسي من قرية الكسندروفا شاخصاً الى موسكو وهو عرضة لتلاعب الاماني والتصوُّرات تتصرَّف فيهِ كما تشآء. وكانت افكاره منصرفة الى امرين وهما البراز والحصول عَلَى هيلانة وقد ايقن انهُ اذا فاز في الاول فلا بدّ ان يتوصَّل الى الثاني. فعزم ان يتجهز للبراز بكل الوسائل الآيلة الى فوزهِ ونجاحهِ . غير انه لما كان عارفاً ان الارجحية في ذلك ستكون لصاحب الحق في الدعوى وماهو الا كاذب مفترٍ خاف عاقبة الامر وخشي غضب السماء ولا سيما لانهُ كان يشعر الى ذلك الوقت ببعض آلام مسببة عن الجراح التي اصابتهُ في اثنآء المعركة الليلية في منزل موروزوف . ولما قوي فيه هذا الخوف عزم على ان يكاشف صاحبهُ الطحَّان بما في ضميره و يطلب منه المعونة والارشاد ليقوى عَلَى خصمهِ وينال بغيته . ولم يلبث ان ركب جواده وسار بين الاحراش في طريق الطاحون وهو يعلل نفسهُ بالآمال . ولما أشرف على الطاحون وبلغ بعض اطراف البقعة المحيطة بها رأى عن بُعد شبحين عرف احدهما الطحان ولم يتمكَّن من معرفة الآخر . فترجَّل عن جوادهِ وربطهُ الى احدى الاشجار وسار مشياً على الاقدام وهو يودُّ ان يعرف الشخص الآخر ويسمع ما يدور بينه وبين الطحَّان من الكلام . وقد حدثتهُ نفسهُ انَّ في الامر نوعاً من الدسيسة . ولما اقترب من الشبحين كمن ورآء بعض الاشجار وأرسل نظره فأبصر جواداً مطهماً عليه عدة نخيمة وقد وقف صاحبه بازائهِ وهو مقبل على الطحان يحادثهُ بمزيد الاهتمام . وكان الطحان يقول له — ثق ايها الشريف بمهارتي وحسن تدبيري فستعود المياه الى مجاريها وتكون أحبَّ الاخصاَء الى الملك وانا اضمن لك انه لا تمضي مدة قصيرة حتى يسقط الامير اثناسي وغيره من اعدائك ومناظريك ويسطع نجمك في افق السعادة والاقبال . وهذه العشبة التي أعطيتك اياها الان لها من المزايا الفريدة والقوة الغريبة ما يذهل العقول

وكان الامير اثناسي قد سمع اسمه وبعض كلمات متقطعة من كلام الطحان لان خرير الماء ودوي حجر الطاحون حالا دون سماع الكل فجمد في مكانه واصغى لعله يسمع شيئاً آخر يوقفهُ على بعض هذه الغوامض

ولما فرغ الطحان من كلامه قال له الرجل المجهول — سأفعل بما أشرت فان أفادني علاجك غمرتك بالصلات والهدايا والاَّ فليس جزاؤك الاَّ الشنق . قال هذا وامتطى جواده يريد الانصراف

وكان الامير قد سمع هذا الكلام ولما رأى صاحبهُ في صهوة جواده عرفهُ للحال انه ثيودور باسمانوف فتعجب من وجوده في ذلك المكان . غير انه لبث في مكمنه مصغياً فسمع الطحان يقول له — بشرط ان تحمل العشبة في عنقك تحت اثوابك وينبغي لك ايضاً ان تتردَّد على الملك وتظهر له سرورك وتفكههُ على الدوام بظرائف النوادر ولطائف الاخبار

ولما فرغ الطحان من كلامه لوى باسمانوف عنان جواده ورجع من حيث أتى وهو مستبشر بنجاح مسعاه . وقد مرَّ في طريقه على مقربة من الامير اثناسي فلم يشعر به . وكان هذا قد خامره الشك في باسمانوف وأيقن انهُ سيكون له عدوًّا ومناظرا . ولكنه للحال تذكر هيلانة والامر الذي جاء لاجله فلم يكترث بشيء

اما الطحان فبعد ان شيع زائره بنظره جثم عَلَى الارض واخذ يعدُّ القطع الذهبية التي نفحه بها وهو في غاية الجذل والحبور . وانهُ لكذلك اذ شعر بيدٍ ثقيلة أُلقيت عَلَى كتفه فالتفت فأبصر وراءه الامير اثناسي قياز يمسكي فعلا وجهه اصفرار الذعر والرعب وتلجلج منطقه فقال له الامير وقد أرسل اليه نظراً حادًّا — اخبرني ايها الساحر عن اي شيء كنت تتحدث الان مع باسمانوف ؟

فأجاب الطحان وهو يرتعد — اهلاً وسهلاً بك يا مولاي أخبرني انت اولاً عن صحتك

فقطب الامير وجههُ وقال — اطلعني حالاً عَلَى جلية الامر والاَّ اذقتك أليم العذاب . وقد سمعتكما تذكران اسمي فما الداعي الى ذلك ؟

فصار الطحان يفرك جبينه وهو لا يدري ما يقول . فوثب الامير الى عنقه

وقبض عليه بكلتا يديه ثم جرَّه الى النهر وقال — قل والاَّ . . .

فقاطعه الطحان وهو ينتحب و يقول — سأذكر لك حديثنا كله ولا أُخفي عنك شيئاً وانما اسأَلك ان لا تعذبني

فتركه الامير وقال — هات فاخبرني اذاً عن مقصد باسمانوف بهذه الزيارة

فقال — قد جآء يا سيدي يطلب مني عشبة لبعض شؤونه . اما انا فقد عرفتُ انك كامنٌ هنا ترى وتسمع كل شيء ولذلك حادثتهُ بصوت مرتفع لكي تسمع باذنيك وتتأكد شدَّة اخلاصي لك و يعلم الله اني كنتُ بانتظارك منذ الصباح

قال — وما هي حاجة باسمانوف يا ترى ؟

قال — انه قد اطلعني علَى سريرته فقال ان الملك تغير عليه ومقته لانه اصطفاك انت و بوريس غودونوف وماليوتا فلم يعد يحفل باحد سواكم . فشقَّ ذلك عليه وجعل يسعى للحصول على مودَّة الملك ورضاه . وقد طلب مني بعض الاعشاب لتساعده على نيل مبتغاه بحيث يعود الملك فيحبهُ و يرفضكم . اما انا فلم أُبالِ بطلبه وانما نظراً لالحاحه وسخائه أعطيته عشبةً لا تفيدهُ قط وهكذا تخلصت منه

الفصل الخامس والسبعون

الغرور

ولما كان الامير في شاغل عن ذلك لاهتمامهِ بامرٍ اهمَّ لم يحفل بحديث الطحان فقال له — واي مغنم لي من كل هذه الترَّهات فليفعل باسمانوف ما يشاء وليتودَّد الى الملك ما يشاء . اما انا فقد جئتك الان لاسأَلك اولاً عما اكتشفتهُ بخصوص هيلانة فهل عرفت مخبأَها ؟

قال -- كلاَّ يا سيدي فلم اهتدِ الى ذلك وقد بذلتُ لهذهِ الغاية اقصى مجهودي وأَحييتُ سبعة ايام بلياليها وانا احدّق في الماء لعله يُكشف لي شيء من

امرها فلم افز بطائل سوى انها تراءت لي في صهوة جواد بين الادغال والآجام ومعها فارس طاعن في السن يقودها ويجتهد في تعزيتها وهي لا تريد ان تتعزّى ولم أرَ غير ذلك

قال — ومن يكون هذا الرجل الطاعن في السن غير زوجها موروزوف ؟

قال — كلاّ يا سيدي فما رفيقها او دليلها الا من عامة الناس لان بينه وبين زوجها بوناً كبيراً في الهيئة واللباس

قال كنتُ اودّ ان تطلعني من امرها على اكثر من ذلك فعسى ان تتوفق قريباً الى ما يرضيني ويكون لك من ورائهِ الجائزة الكبرى

فأبرقت أسرة الطحان وقال — هذا ما أتمناه يا سيدي واسعى اليه بكل قواي

قال — وقد جئتُ الان أشكو اليك امراً آخر واستنجد بك على ادراك امنية اخرى لا يتم شيء بدونها

قال — لبيك يا مولاي فانا أطوع لك من بنانك

قال — فهل تقدر ان تسحر السلاح ؟

فقهقه الطحان وقال — وكيف لا يا سيدي وهي مهنتي منذ زمان طويل

قال — اعلم ايها الساحر اني بعد مدة قصيرة سأبارز خصماً لي فلا بد ان أتغلب عليهِ وأقتلهُ في ساحة النزال ولهذا أطلب منك ان تسحر حسامي ليضمن لي الفوز التام على اسرع وجه

فأطرق الطحان وهو يسأل نفسه عن الخصم الذي يريد الامير مبارزته . فخطر له ان ذلك الخصم قد يكون ثيودور باسمانوف ولكنه لم يلبث ان نفى ذلك من ذهنهِ لان الامير قد اظهر منذ هنيهة عدم مبالاته به . ثم ظنهُ الامير نيكيتا ولكنهُ علم انه قد سجن وان اللصوص بقيادة بيرستن قد اخرجوه من السجن وفرّوا بهِ الى جهات بعيدة . فلم يبقَ من اعداء الامير اثناسي الاّ الشريف موروزوف فهو عدوّهُ الازرق وخصمهُ الاشدّ . ولعلّ الشريف بسبب الاهانة التي لحقت بهِ من الامير اثناسي قد طلبهُ للبراز وهو ولئن كان شيخاً فقد يمكنه ان يستأجر بديلاً عنه . وبعد ان جالت هذه الخواطر في ذهنه ايقن ان الرجل الذي سيبارزه

الامير هو الشريف موروزوف بعينه او رجل آخر مقام عنه · فنظر الى الامير وقال — دعني اولاً يا سيدي ابحث في الماء عن خصمك واكشف هذا الغامض بنفسي

قال — افعل ما تشاء

فهرول الطحان الى احدى غرف الطاحون ولم يبطئ ان عاد وبيده زجاجة غمسها في الماء واخذ يحدّق فيها ببصره وهو يتمتم بالفاظه ثم تبسم وقال — قد عرفتُ خصمك يا سيدي فهو طاعن في السن ولكنه ذو بأس شديد ... وها اني أراك ايضاً الى جانبه

فلم يتعجب الامير من هذه المعرفة لانه كان موقناً بقوة السحرة وأفعالهم الغريبة فقال له — وماذا ترى ايضاً ؟ قل ولا تخفِ عني شيئاً

فقال الطحان وهو لا يرفع نظره عن الزجاجة — أرى جمهوراً من الملائكة الى جانب الشيخ كانهم وقفوا للدفاع عنهُ وعليه فقد صار يصعب جداً ان اسحر لك الحسام ليكون عدتك الوحيدة في هذا النزال الهائل

فارتجف الامير وقال — انظر جيداً ايها الشيخ أفلا ترى الى جانبي احداً من المدافعين ؟

فرفع الطحان رأسه قائلاً — نعم أرى ولكنهم نفرٌ قليل وقد تعكر الماء الان فلم اعد أُبصر شيئاً

قال — أفلم يبقَ لي امل في الانتصار ؟ وهلاّ تقدر ان تسحر لي حسامي لاتفوّق عَلَى خصمي

فأمسك الطحان عن الكلام وهو مطرق برأسهِ الى الارض يتأمل ويهزُّ رأسه ويرقص حاجبيه ثم نظر الى الامير وقال — سأفعل ذلك اكراماً لخاطرك لان عملاً كهذا يقتضي تعباً مفرطاً وجهداً شديداً · فهات حسامك وليفعل الله ما يشاء

فناوله الامير الحسام وتنحى عنه قليلاً وهو يعتقد انه قد صار بمأمن من الخطر وقريباً من ادراك المرام · اما الطحان فحفر في الارض بالقرب من الماء

حفرةً طمر فيها الحسام وطفق يدور حوله ُ وهو يعزّم و يتمتم بالفاظ متقطعة وكلمات غريبة لا يُفهم منها شيء ٠ و بعد نحو ساعة اخرج الحسام من الحفرة فنفض عنهُ التراب وناوله للامير قائلاً — تفضل يا سيدي فقد صار الحسام عَلَى غاية ما تريد وتشتهي فستغلب به لا محالة وسيقيك ضربات عدوك مهما كانت شديدة بشرط ان لا يغمس هو حسامه في الماء المقدس

فأجفل الامير وقال — وهبه فعل ذلك فماذا ؟

قال — ان للماء المقدس قوةً تفوق السحر ٠ ولكن لا بأس فسأُعطيك نوعاً خاصاً من الاعشاب تعلقهُ في عنقك وهو يدرأُ عنك المصائب و يعضدك عَلَى خصمك

قال — دبر ما شئتَ عَلَى شرط ان احرز الفوز المبين

فهرول الطحان الى حجرته وما أبطأ ان عاد يحمل بيده كيساً صغيراً فيه شيءٌ من الاعشاب فناولهُ للامير وهو يقول خذهذا واحملهُ في عنقك ولا تخشَ بأساً ففيه من الاعشاب الفعالة ما قضيت في البحث عنه وجمعهِ من قلل الجبال شهوراً واعواماً

فأخذ الامير الكيس ثم ادّى للطحان قبضةً من الدنانير وتحوّل يريد الانصراف فاستوقفهُ الطحان وهو يشكره عَلَى كرمه و يقول ولكني ارجو منك ياسيدي ان لا تدخل الكنائس قبل يوم البراز لئلا يفسد العمل

قال — وهل لك ان تعرف الان من منا سيظفر بخصمهِ ؟

فأجاب الطحان وهو يتلجلج — ان ذلك في علم الله والارجح انك انت ستكون الظافر وقد انبأتك سابقاً انك لن تموت بحدّ الحسام

فودعهُ الامير ثم اقتاد جواده فركبه وعاد الى موسكو وهو غائص في بحار التأملات

الفصل السادس والسبعون

استعلام

وفي غياب الامير اثناسي عن قرية الكسندروفا استدعى الملك ماليوتا وفوّض اليه ان يلقي القبض على خدّام الامير ويحملهم عَلَى الاقرار باعمال سيدهم الخفية وماذا يقصد من تردّده على الطحان وغير ذلك . ولا ريب في ان ماليوتا انفذ هذا الامر بكل دقة فألقى القبض على جميع خدام الامير وذويه وزجهم في السجن واذاقهم من ضروب العذاب ما حملهم على الاقرار بكل ما لقنهم اياه ماليوتا وائن كان ذلك عاريًا عن الصحة . ولما استوثق ماليوتا منهم سأل الملك ان يعين شهودًا وكتبة ليكتبوا له بالتفصيل اعتراف خدّام الامير ففعل . ولما التأم هؤلاء أقرّ الخدام بما يأتي : «ان الامير اثناسي ڤيازيمسكي يتردّد عَلَى الطاحون بكثرة وفي نيته اهلاك الملك بقوة الساحر الطحان . وانه يميل الى الامير ڤلاديمير شقيق الملك ويسعى سرًّا ليجعله ملكاً بدلاً من الملك الحالي . وانه يشيع عن الملك اموراً كثيرة كاذبة تحقره في عيون الرعية . وانه يكاتب اعداء الملك ليمالئوه في اضرام نيران الثورة في البلاد ...»

فكتب الكتبة هذا الاقرار ورفعوه للملك مذيلاً بشهادة الشهود . فلما رآه الملك استشاط غضباً وصمم عَلَى قتل الامير اثناسي الاَّ انهُ امر ماليوتا ان يبقي كل شيء مكتوماً وان يخبر الامير اذا سأل عن خدامه انهم اتهموا بجريمة السرقة

ثم ارسل الملك يستدعي ثيودور باسمانوف ليسأله ثانية عن الامير اثناسي فعاد الرسول واخبره ان باسمانوف قد ظعن بالامس من قرية الكسندروفا شاخصاً الى موسكو . ولم يكن الملك يتوقع ان باسمانوف يغادر القرية بلا اذنه فغضب عليه وخامرته من جراء ذلك الظنون المختلفة . فاغتنم ماليوتا هذه النهزة وقال له — وما أدرانا يا سيدي اذا كان باسمانوف متفقاً مع الامير اثناسي عَلَى العمل يدًا واحدةً ضد جلالتك . واما وشايتهُ بالامير فلا يقصد بها عَلَى ما أرى الاَّ التظاهر بالتنافر وما هما في الباطن الاَّ متعاضدان عَلَى نصب الاشراك والمكايد

لجلالتك . فأجابهُ الملك — قد يكون ما زعمتَ وسيكشف لنا المستقبل كل ما يضمران انما اطلب منك الان ان تبقي جميع هذهِ الامور طيَّ الكتمان ولا تدع باسمانوف يعرف اني طلبته في اثناء غيبته حتى لا ينتبه الى شيء مما أُريد

الفصل السابع والسبعون

الرفيقان

وكان قد أزف اليوم المضروب للمبارزة القضائية . فلما أسفرَ صباحهُ اخذ الناس يفدون الى الساحة الكبرى زرافات وقد غصت نوافذ البيوت وشرفاتها وسطوحها بالمتفرّجين من كل طبقة . وكان الخبر عن هذا النزال قد ذاع منذ بضعة ايام في كل الجهات فأقبل الاهلون من موسكو وضواحيها وسائر المدن والقرى المجاورة ليشاهدوا مبارزة بين رجلين لم يكن يجهلهما احد من الخاصة والعامة . وكان يُرى بين الجماهير المحتشدة رجلان احدهما كهل قد ارتدى اثواب المغنين وحمل بين يديه ربابةً والآخر شاب قوي البنية مفتول العضل تظهر علَى وجهه لوائح البساطة والبلاهة معاً . وكان الكهل يدفع رفيقه الشاب بيده ويقول — هيا بنا نزحم الناس لنصل الى الحاجز حيث يمكننا ان نتفرَّج باكثر جلاء . اما الشاب فلم يكترث في بادىء الامر لكلام رفيقه بل سار صامتاً وهو يتمايل ذات اليمين وذات الشمال ونظره منشغل بالفرجة على الخلق . اخيراً انتبه لكلام رفيقه واندفع امامه يزاحم الناس ويشق الجماهير لا يلوي على شيء . وكان بعملهِ هذا قد أَثار سخط كثير من المتفرّجين لانه كان يدفعهم بمنكبيه ويديه فيرميهم الى الارض غير مصغٍ لشتائمهم ولغطهم . وكان رفيقه يقول له — سِر يمنةً حيث رُكزت الحراب

وكان المكان الذي اشار اليه المغني معدًّا للملك واخصائه وقد مدَّ هناك دكةٌ خشبية فرشت بالجوخ القرمزي ونُصب عليها كرسي للملك ورُكز حولها من جميع الجهات حراب رجال الحرَس الذين عهد اليهم خفارة المكان . وقد عين

بعض منهم لحراسة الحواجز التي أُقيمت حول ميدان المبارزة وكان جميع الحرّاس قائمين كلٌّ في مكانهِ لا يدَعون احداً يدنو الى المكانين

و بعد الجهد والعناء وصل الرفيقان الى ميدان المبارزة واخذا يتفرّجان عَلَى الحواجز الحديدية التي تكتنف المكان من كل جانب. فصاح بهما احد الحرّاس وقد رفع حربتهُ في وجهيهما قائلاً — ارجعا الى خلف والاّ اذقتكما الموت الزؤام. فنظر اليه الشاب وهو في غاية الانذهال ثم التفت الى رفيقه كانهُ يطلبه للجواب. فرفع هذا ربابته بين يديه ثم انحنى للحارس وقال — دعنا يا سيدي نتفرَّج عَلَى هذهِ المبارزة العجيبة فنحن من مدينة ڤلاديمر وقد جئنا الى هنا لنمتع أبصارنا ونطرب الناس باناشيدنا وعزفنا. فقال له الحارس — لا باس قفا هناك ولا تتخطيا الى الامام



الفصل الثامن والسبعون

﴿ ميدان النزال ﴾

وبعد قليل جاء الى ميدان البراز وكلاء الخصمين وشهودهما واثنان من النبلاء وكاتبان. وقد عهد اليهم مراقبة المبارزة والنظر في خطتها. وفيما كان هؤلاء يتباحثون ويقرّرون الخطة التي يجب مراعاتها قرعت الاجراس وبوقت الابواق ايذاناً بحضور الملك الذي جاء راكباً جواداً كريماً ومن حولهِ رجال الحرس محدقون بهِ كالحلقة. ولما وصل الى الدكة المعينة له ترجل عن جوادهِ ثم رقي الدكة فانحنى للشعب وجلس في كرسيهِ وعلى وجهه لوائح الدعة والسرور

ولما تمَّ كل شيءٍ نزل الى الميدان من جهتين متقابلتين الامير اثنامي ڤياز يمسكي والشريف دروجينا موروزوف وكلاهما بالعدة الكاملة من الخوذة والدرع والسيف وغيرها من ادوات النزال وكلها مرصعة بالاحجار الكريمة. وكلٌّ منهما راكب جواداً مطهماً عليه من الحلى والجواهر ما يأخذ بالعقول ويبهر النواظر

وكان المغني ورفيقه لا يزالان واقفين بالقرب من الميدان يشاهدان ويتعجبان

وقد همس ذو الربابة لرفيقه قائلاً — اي الجوادين تفضل ؟ فعرك الشاب جبهته واشار الى جواد موروزوف · فسأله رفيقه — ولماذا ؟ فاجاب — لانه اكثر اكتنازاً من الاخر · فضحك رفيقه وسكت

وفي تلك اللحظة سمع في كل اطراف الساحة اصوات المنادين بما يأتي : ايها الناس ! انكم ستشاهدون الان مبارزة حقوقية فيما بين الامير اثناسي ڤياز يمسكي والشريف دروجينا موروزوف لان كلاً منهما قد شكا الآخر مدعياً الحق لنفسه وها انهما الان برضى جلالة الملك سيحكمان بينهما السيوف فتنجلي الحقيقة لكل ذي عينين · واما انتم فاسألوا الله ان يظفر صاحب الحق بخصمه و ينصره عليه نصراً مبيناً

ولما كان المنادون يهتفون بما ذُكر سكنت الاصوات وتحوَّل كل الخلق المحتشد هناك بابصارهم وأسماعهم لئلا يفوتهم شيء من هذا المشهد

ولما فرغ المنادون من كلامهم خرج احد النبيلين الواقفين في الميدان ودنا من دكة الملك فانحنى امامه وقال — قد تمَّ كل شيءٍ يا سيدي فهل تاذن بالشروع في العمل ؟ فاجاب الملك بالايجاب

فعاد النبيل الى الميدان ثم تنحى مع رفيقه والوكلاء والشهود والكاتبين الى بعض الاطراف وأعطى الاشارة

الفصل التاسع والسبعون

المبارزة

وكان الامير اثناسي والشريف موروزوف لم يزالا راكبين يستعدان لاقتبال الموت وسيف كلٍ منهما مصلت بيده · وكانا بعيدين عن بعضهما ينتظران العلامة المؤذنة بالنزال · فلما أشار اليهما النبيل برقت في ايديهما السيوف ولبثا ينتظران اشارة اخرى ليطبقا على بعضهما حسب اصول المبارزة المرعية اذ ذاك في مثل تلك الاحوال · غير انه قد حدث في تلك اللحظة حادث غريب حال دون الاشارة المنتظرة

وقضى بدهشة الجميع . وذلك ان الامير اثناسي ارتعد بغتةً وامتقع لونه ووقع من يدهِ عنان جواده وكاد يهوي الى الارض لو لم يتداركه شهودهُ وينزلوه عن ظهر الجواد . بيدَ انه مـا لبث ان ثاب اليهِ روعهُ فقال — خذوا الجواد من هنا فسأُقاتل ماشياً . ولما رأى موروزوف ان خصمهُ ترجل ترجل هو ايضاً واستعدَّ للمبارزة راجلاً . امـا الامير فما كاد ينتصب للبراز ويأخذ السيف بيمناه حتى اصطكت ركبتاه وخارت قواه . فدهش شهوده ووكلاؤُه وقالوا له بصوت واحد — ما بالك ايها الامير ؟ تجلد وقابل خصمك ببسالتك المشهورة ولا تجعل نفسك موضوعاً للسخرية والعار .

فقال — انزعوا عني عدَّتي فانها ثقيلة ولستُ اطيق حملها . ولمـا كانوا يفعلون ذلك نزع هو من عنقه كيس الاعشاب الذي عوَّذهُ بهِ الطحان وطرحهُ جانباً وقال وهو يتميز غيظاً — تباً للساحر فقد خدعني

وما كاد الشهود يتنحون عن الامير حتى هجم عليهِ الشريف موروزوف وهو يقول — استعدَّ لقضاء الله ايها الخائن الغدار فلأُذيقنك الموت الاحمر جزاء خيانتك وغدرك . . ولكنه لم يستطع ان يصل الى خصمهِ لان الشهود والوكلاء عادوا فوقفوا بينهما

فقال الامير وقد احمرَّت عيناه من شدَّة الغيظ — سأُقيم عني بديلاً لان خصمي قد غمس سيفه في الماء المقدس لنكايتي واهلاكي

وللحال تقدم شهود موروزوف واثبتوا انخذال الامير وانتصار الشريف . فردَّ عليهم شهود الامـير قائلين — كلا لم ينتصر احد من الخصمين لانهما لم يتبارزا . واشتدَّ بين الفريقين النزاع

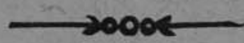
وكان الملك يراقب كل شيءٍ فرأى اولاً ما حلَّ بالامير من الهوان فأَيقن بفشله ثم لاحظ الكيس الصغير الذي انتزعه من عنقهِ ورماه الى الارض فأَمر باحضارهِ ولما جيءَ به تفرَّس فيه قليلاً ثم ناوله لماليوتا وهو يتبسم ويقول — احرص عليهِ فسأَسأَلك عنه . ولما رأى الجدال بين شهود الخصمين امر باستدعاء الامير وقال له — يظهر ان لا طاقة لك بلقاء الشريف موروزوف

فأجاب الامير وصوتهُ يتلعثم وقد علت وجههُ صفرة الموت — اسمح لي ياسيدي الملك ان اقيم بديلاً عني في هذه المبارزة لان جراحي تؤلمني شديداً فلا أقوى عَلَى حمل السلاح

وكان طلب الامير منافياً لاصول البراز لانهُ لم يعرضه قبلاً ولذلك كان يتحتم عليه وقد قبل بالشروط ان يبارز او يقرّ بخيانتهِ . غير ان الملك اجابه الى طلبهِ هذا لانه كان يضمر اهلاك الشريف فقال — ادعُ من شئت ليقوم عنك بمبارزة موروزوف فان توفقتَ والاّ فاستعدّ لحتفك

فانصرف الامير من امام وجهه وهو يكاد يتعثر باذياله . وبعد قليل وقف المنادون وصاحوا بأعلى الاصوات : ان الامير اثناسي فياز يمسكي يطلب رجلاً ليقوم عنه بمبارزة الشريف موروزوف فان انتصر فله من الامير جميع ضياعهِ في ضواحي موسكو وان قُتل فلعيالهِ ثروة الامير بكاملها

فلم يجب احد من الحضور الى هذا النداء لان الجميع كانوا يعتقدون بصحة دعوى الشريف وغدر الامير . ولما طال الانتظار صمم الملك عَلَى إشهار براءة موروزوف والقاء القبض عَلَى الامير ولكنه سمع فجاءةً قائلاً يقول — قد وُجد من يدافع عن الامير . فالتفت واذا بمتى خومياك قد ولج ميدان المبارزة وهو يتأهب للنزال



الفصل الثمانون

﴿ عن الشريف ﴾

اما الشريف موروزوف فما كاد يرى امامهُ متى خومياك احد خدّام ماليوتا حتى ظهرت عليه امائر الاحتقار فأعاد سيفه الى غمدهِ وقال للشهود — لا يليق بالشريف موروزوف ان يبارز مثل هذا النذل . ثم أقبل عَلَى الملك وقال — لقد اذنتَ جلالتك لعدوّي ان يقيم بديلاً عنهُ مبارزاً مستأجراً فأذن لي انا ايضاً ان افعل هكذا والا فمرْ بإرجاء المبارزة الى آنٍ آخر

وكان طلب موروزوف عادلاً فلم يستطع الملك الاّ ان يجيبه الى سؤاله

فقال — اخترْ من تحب والاَّ فاعترف ببغيك واستعدَّ للعقاب

وكان متى خومياك في اثناءِ ذلك يجول في الميدان وهو تارةً يفتل شاربيه ويبتسم تبسم الكبر والخيلاءِ وطوراً يلوح بسيفهِ في الهواء ويقول بملءِ فيهِ — هاتوا لي رجلاً يبارزني . اين الابطال ؟ اين رجال النزال ؟ فهل لاحد منكم ان يبرز اليَّ ؟

وكان المغني ورفيقه لما أبصرا متى خومياك في حومة الميدان قد شخصت اليه ابصارهما وقال المغني همساً — لو كان حسامي معي لما نزل اليه غيري . ثم استتلى قائلاً لرفيقه — فهل عرفتهُ ؟

اما رفيقه الشاب فلم يجب بشيء بل تقدَّم باسرع من لمح البصر فرفع بعض الحواجز ودخل الى باحة الميدان وانتصب تجاه متى وهو يقول انا لك . ثم وقف مبهوتاً من هذهِ الجرأة وهو ينظر تارةً الى متى خومياك وطوراً الى رجال الحرس وحيناً الى الملك . ثم تبسم وعرك جبينه

فتقدم اليه احد النبيلين المراقبين وسأله — من انت ايها الفتى ؟

فنظر اليه الشاب ولم يحر جواباً

فأعاد عليهِ النبيل السوأال مرةً اخرى

فاجاب — انا توما . ولم يزد

فلما سمع النبيل ذلك لم يملك نفسه من الضحك فتركه وشأنه . حينئذٍ دنا منه الشريف موروزوف وقال — اشكرك ايها الفتى لإِقدامك على نصرة الحق . فاذا أُتيح لك وانتصرت على العدو فلك مني الجوائز السنية وكل ما تصبو اليه نفسك . فاثبت اذاً وليكن الله معك

اما متى خومياك فما أَبصر توما مقبلاً اليهِ حتى ارتعدت فرائصه وسرت قشعريرة الى سائر اطرافه وذلك لانهُ عرفهُ وشاهد قتالهُ في غياض الجاهلية ولا سيما لما هجم عليه وضربهُ بهراوته فقتل جواده وكاد يبطش بهِ لولا حيلةٍ وخفةٍ وارتاه وفتحتا له باباً للفرار . غير ان متى لم يشأ الان ان يظلَّ خائفاً مذعوراً فتجلد ووقف ينتظر ما سيكون

ثم تقدم احد النبيلين الى توما وقال له — قد جئتَ ايها الفتى للمبارزة ولم تتقلد شيئاً من السلاح فبماذا تريد ان تقاتل ؟

فلما سمع توما ذلك عرك جبينه والتفت جهة رفيقه كأنهُ يريد ان يشاورهُ في هذا الامر فلم يرَهُ في مكانه . وقد عرف القارئ ولا شك ان هذا المغني رفيق توما لم يكن الا بيرستن زعيم اللصوص . فلما رأى ان توما قد نزل للبراز خاف ان تستريب بهِ العيون فترك مكانهُ وتغلغل بين الجمع المزدحم اخفاء لنفسهِ

اما النبيل فلما رأى تردُّد توما قال له — خذ سيفاً وعدةً ونازل خصمك . فلم يجبه توما بل عرك جبهته مرةً اخرى واخذ يتفرَّس في وجوه الناس باحثاً عن رفيقه . وكان الملك يرى ذلك ويتعجب وقد دهش لملامح هذا الشاب وحركاته فلم يتمالك ان ضحك وقال — البسوه عدَّةً وليبرز للنزال فنرى براعته . فأحضر له الشهود خوذةً ودرعاً وسيفاً وباقي ادوات النزال . غير ان الخوذة كانت صغيرةً جدًّا بالنسبة الى حجم رأسه فلم تغطِّ الاَّ قمتهُ وكذلك الدرع كانت صغيرة بالنسبة الى صدرهِ وعرض كتفيه . فتأفف توما وعاد يبحث بنظرهِ عن رفيقه ليسأله ماذا ينبغي له ان يفعل

فلما أبصرهُ الملك على تلك الحالة المدهشة أغرب في الضحك . ولم يبقَ في تلك الساحة الاَّ من ضحك عليه . فاحتدم توما وقال — ما بالكم تضحكون ؟اني ابارز هذا الرجل بدون هذه الاسلحة . ثم نزع عنهُ الخوذة والدرع وطرح باقي الاسلحة جانباً ووقف كالمعتوه . فازداد القوم ضحكاً وقد علت اصواتهم وكثر لغطهم . فقال له النبيل — وبماذا تريد ان تقاتلهُ اذًا ؟

ففرك توما جبهته والتفت جهة الملك وقال — أليس عندكم هراوة ؟

فصاح رجال الحرس — من هذا الاحمق حتى جاء يقاتلنا بالهراوى ؟أخرجوه من الميدان وانظروا غيره من ذوي العقول الصحيحة

وكان الملك قد ازداد ضحكاً وتسليةً فانتهر رجال الحرس وقال بصوت جهور — أعطوه هراوة وليقاتل كما يشآء

فلما سمع متى خومياك ذلك ذُعر واصفرَّ وجهه وقال للملك — لا تسمح

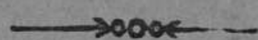
يا سيدي باحتقار عبدك الى هذا الحد . فمن هذا الفلاح حتى جاء يبارزني بهراوة ؟ فقال له الملك — دعهُ ينازلك بما يشآء اما انت فبارزهُ بالحسام وسائر ادوات سلاحك ولننظر كيف يتأتى لهذا الفلاّح ان يدافع عن الشريف موروزوف

ولم يكن الاّ القليل حتى أحضرت بعض الهراوى والعصيّ الضخمة فصار توما يتناولها واحدةً واحدةً فيهزّها ويجرّبها في الهواء ثم يطرحها جانباً . اخيراً التفت الى الملك وقال — أفلا يوجد اضخم من هذه ؟

فاستلقى الملك من شدّة الضحك وامر باجابة سؤاله

فذهب بعض رجال الحرَس يبحثون عن مطلوبه وما عتّموا ان عادوا وقد حملوا هراوةً ضخمة جدّاً فتناولها توما وهزّها بيده ثم رفعها وضرب بها في الهوآء فسمع لها دويٌّ شديد فتبسم وقال — هذه تصلح للقتال

اما رجال الحرس فتذمروا ونظر بعضهم الى بعض وهم يقولون — من اين برز هذا الشيطان الرجيم ؟



الفصل الحادي والثمانون

انتصار توما

ولما خرج الشهود والوكلآء والنبيلان والكاتبان وبقي في حومة الميدان توما ومتى خومياك . رفع توما كمّيهِ وتفل في يديه ثم نظر الى خصمه وقال — استعدّ الان لضرباتي ايها النذل الزنيم فسأُعلمك كيف تسبي العرائس

وكان متى قد ايقن بالوبال وبانت عليه امارات الانكسار . فلما رآه الملك عَلَى تلك الحالة امر بالشروع في المبارزة . وللحال رفع توما الهراوة فوق رأسه وجعل يديرها بقوة ومهارة وهو يدنو من خصمهِ قفزاً . وكان متى في بادىء الامر يرجو ان ينتهز من خصمه غرةً فيصيبه بحسامهِ غير ان اجتهاده ذهب عبثاً فصار همهُ ان يتقهقر من امام توما ويتخلص من هراوته التي كانت ترسم حوله دوائر كبيرة تقيهِ من حسام متى وتجعلهُ عزيز المنال

وكان المتفرجون قد مالوا الى توما وصاروا يتوقعون انتصاره · اما الملك ورجال الحرس فقد ساءهم اندحار متى واهتمامه بالنجاة فقط

ولبث توما يثب بهراوته نحو خصمه وهو يكرر قوله — سأُعلمك كيف تسبي العرائس ! وكان قد دخل في طور الاحتدام والاستشاطة وصار يجتهد ان يصدم خصمه في رأسه او كتفيهِ او رجليه او جنبه او في اي عضو كان

وكان الجمهور يظهرون استحسانهم من فوز توما بتصفيقهم المتواصل وقد ارتفع بينهم صياح الاعجاب وجعلوا يراهنون عَلَى فوزه وهم غير منتبهين لاستياء الملك وحرّاسه

ولبث توما يتتبع خصمه بخفة الدب حتى ضايقهُ اخيراً ولم يبقَ لمتى باب للفرج فحمل توما عليه حملةً عنيفةً وضربهُ بالهراوة ضربةً سمع لها دويٌّ شديد فهوى متى الى الارض لا يعي شيئاً · فانقضَّ عليه توما وجثا عَلَى صدرهِ وأَخذ يعركه و يقول : لقد علمتك الان كيف تسبي العرائس !

ولما سقط متى خومياك علت اصوات الجماهير طرباً واستحساناً · فنظر اليهم الحرّاس شذراً وهم يتوعدونهم بكل ويل · وكان ماليوتا حالما سقط متى قد بادر الى الملك وهو كمن طار رشده فقال — ان متى خومياك يامولاي هو أحسن جميع رجال الحرس فاسمح ان نخلصهُ من هذا الشطيان لئلاَّ يطحن عظامه · فأمر الملك بذلك بعض رجال الحرس فاسرعوا الى متى وسحبوه بكل جهدٍ من تحت توما غير انهُ كان جثة باردةً ·

ولما كان الجميع لاهين بهذا المشهد وقف بجانب توما رفيقهُ المغني (بيرستن) وقال له همساً — اتبعني حالاً وانجُ بنفسك · ثم اختلسا انفسهما وانسلاَّ بين تلك الجماهير وتواريا عن الابصار

الفصل الثاني والثمانون

﴿ الحكم عَلَى الامير اثناسي ﴾

وكان بعد ذلك ان دعا الملكُ الشريفَ موروزوف . فسكت الناس وشخصوا بأبصارهم فرأوا الملك قد وقف احتفاءً بالشريف ثم سمعوه يقول له — لقد شاءَ العدل الالهي ان تنتصر ايها الشريف عَلَى خصمك وبذلك تأيدت براءتك امامي وامام جميع هذه الخلائق فأهنئك وأعدك خيرًا راجيًا ان لا تبرح من قرية الكسندروفا قبل الوقوف عَلَى اراداتي . فانحنى موروزوف للملك وشكرهُ عَلَى هذه النعمة ودعا له

ثم امر الملك باحضار الامير اثناسي ڤيازيمسكي ولما جيء به ألقى عليهِ نظرة طويلة كمن يريد ان يخترق اعماق قلبه ليطلع عَلَى اسراره . ثم خاطبهُ قائلاً — غير خافٍ على بصيرتك النيرة اني شديد التمسك بانفاذ كل كلمة او كل امر يصدر مني وقد حكمتُ بالموت على من يُغلب منكما في ميدان المبارزة ولما كان الشريف موروزوف قد انتصر عليك انتصارًا مبينًا واظهر الله بذلك خيانتك وكذبك فقد استوجبتَ الموت العادل فهل لك كلام تقوله ؟

فاجاب الامير وقد لاحت على وجهه علامات اليأس — اني مستعد لشرب كأس الحِمام فمر بقطع رأسي لأنجو سريعًا من عذاب هذه الحياة

فبدت على وجه الملك ابتسامة غريبة وقال — نعم انك تستوجب الموت . غير انَّ عليك جريمةً اخرى تقتضي عقابًا اشدَّ هولاً من الموت . ثم وجه كلامهُ الى ماليوتا فقال — اين الكيس الذي عهدتُ اليك حفظهُ ؟

فتقدم ماليوتا وناوله اياه . فأخذه الملك ونظر الى الامير قائلاً — ما هذا ؟

فارتجف الامير واجهد نفسه ليتكلم . فقاطعه الملك بقوله — ايها العبد المارق لقد قرَّبتك الى عرشي ورفعتك الى أعلى الرتب وغمرتك بكل نعمة . اما انت فعققتني وسعيتَ في اذيتي بأشراكك وحبائلك ولم يكن همك الاَّ إتلافي بمثل هذه الاعشاب السحرية . ثم ادار الملك نظره في تلك الجماهير المحتشدة وعاد فقال

للامير بصوت عالٍ — ولقد شقّ عليّ ذلك جداً لانك احد اخصاء حاشيتي وقد عشتَ في كنفي متمتعاً بكل غبطة ونعيم فما الذي دهاك وغرّر بك الى السقوط في هذه التهلكة ؟ ولم يكن في حسباني ان يظهر مثل هذا الشر في احد رجال الحرس الذين اصطفيتهم لمساعدتي والقيام بمشيئتي فانا مثل رب الكرم وقد اختارني الله لحفظ هذا الكرم من كل فساد فلما رأيتُ ان الاشراف والنبلاء واكابر القوم لا يريدون ان يساعدوني بل كانوا يتآمرون عليّ اخذتُ منهم الكرم وسلمتهُ لفعلةٍ آخرين وهؤلاء الفعلة هم رجال الحرس فالذين دعوتهم الى وليمتي ليكونوا معي يداً واحدةً في العمل وقد تهاونوا وابوا ان يأتوا اعتبرتهم غير اهل للدعوة وارسلتُ عبيدي الى مفارق الطرق ليدعوا الى وليمتي كل من وجدوه لحفلات وليمتي بهم. وهؤلاء ايضاً هم رجال الحرس الذين لبوا الدعوة والان اسألكم ماذا جرى لذاك الرجل الذي وجد بين المدعوين وليس عليه حلة العرس ؟— لا شك انكم تقولون انهُ قد استوجب عقاباً اليماً لان الخدام اوثقوا يديه ورجليه وطرحوه في الظلمة البرّانيّة حيث يكون البكاء وصريف الاسنان

وكان الناس يسمعون كلام الملك وهم مندهشون صامتون كأن على رؤوسهم الطير

ولم يكن بينهم من تحرّكت في قلبهِ عواطف الشفقة على الامير اثناسي . اما رجال الحرس فقد ارتسمت على وجوههم امائر الخوف والاضطراب ولم يجسر احد منهم ان يقول كلمةً للدفاع عن الامير غير ان اثنين منهم ظهرت على وجوههما علامات الانتصار والشماتة وهما ماليوتا وثيودور باسمانوف وكان الاول منهما ينتظر بفارغ الصبر صدور امر الملك بالقضاء على الامير والثاني ينسب كل ذلك للاعشاب السحرية التي سلّحهُ بها الطحان والتي ايقن انهُ سيدرك بواسطتها ذروة السعادة والعز . اما الامير اثناسي فأمسك عن الكلام وحنى رأسهُ على صدره ولم يرد ان يقول شيئاً لتبرئة نفسه مما نسب اليه لانه كان يعرف صلابة الملك واستبداد رأيه

ثم قال الملك لماليوتا ولمن معه من رجال الحرس — والان خذوا هذا الرجل

من امامي (يريد الامير اثناسي) . فأوثقوه واطرحوه في ظلمة السجن بجانب ذلك اللص (يريد كورشون) الذي دخل مخدعي في تلك الليلة المشهورة وسأُعين لكليهما عقاباً يستحقانه

وبعد ذلك رفع الملك بصره الى السماء وقال — لا ترذلني ايها الاله الرحيم بل ثبت ملكي واظفرني باعدائي واعداء المملكة ليسود السلام وتتمتع الرعية بالراحة والسعادة . ولما قال هذا نزل عن الدكة فامتطى صهوة جواده وعاد الى قصره ومن حوله رجال الحرس صامتون خائفون

وللحال تقدم ماليوتا الى الامير اثناسي وبيده حبل طويل فأوثق يديه وهو يقول مستهزئاً — عفواً يا سيدي الامير اذا كان فيما نفعله ما يوجب غضبك علينا فانما نحن مأمورون بهذا . ثم خفره ببعض الجنود وقاده الى السجن

واخذ الناس بعد ذلك ينصرفون كلٌّ الى منزله وهم يتحادثون همساً عما جرى في هذا النهار من الامور الخطيرة . وبعد قليل كنست تلك البقعة ولم يبق فيها احد

الفصل الثالث والثمانون

تحقيق آخر

كان الامير اثناسي ڤيازيمسكي يقاسي في سجنه آلاماً مبرحة وهو يرجو ان تنقضي ايام المحنة ويحل اليوم المضروب لعقابه لينجو من هذه الدنيا غير آسف عليها . وكان ماليوتا يتردد عليه بامر الملك فيستنطقهُ وهو يودّ ان يرغمهُ بسائر انواع العذاب الى الاعتراف بالمروق عن ارادة الملك والتصميم على اغتياله او يحمله على الافشاء بغير هذه الاسرار . بيد ان الامير لزم الصمت التام وقد احتمل كل ضروب العذاب والامتحان صابراً وفي قلبه نارٌ آكلة حتى انهُ لم يذكر ثيودور باسمانوف ولا اشار الى مداخلته مع الطحان . وكان الطحان قد قبض عليهِ بامر الملك وأُودع السجن سرّاً وأُمر ماليوتا باستنطاقه والوقوف على اسراره واسرار

غيره ممن تداخل معهُ من رجال الملك

واما ما كان من امر ثيودور باسمانوف فانهُ طار فرحاً وانشرح صدرهُ لمصيبة الامير اثناسي وشعر انهُ قد امتلك ناصية الكون وادرك اوج السعادة لانهُ تخلص من احد انداده ونظرائه ونسب ذلك الى قوَّة الاعشاب التي كان يحملها في عنقه ويحرص عليها حرصهُ عَلَى حياته. وقد امّل انه بقوتها الخارقة سيفوز عَلَى جميع اعدائه ويسقيهم كؤُوس الرَّدى. وكان الملك يلاطفه ويظهر له المودة والانعطاف وهو في الحقيقة يكرههُ وقد مال عنهُ منذ زمان

وفي ذات يوم خرج الملك بندمائه واخصاء رجاله من قرية الكسندروفا وقصد ديراً في ضواحيها للزيارة والتبرُّك وكان في جملة بطانته ثيودور باسمانوف وابوه الكسي وغيرهما من زعماء رجال الحرس الاَّ ماليوتا فانهُ لم يكن معهم. فلما علم رئيس الدير بقدوم الملك خرج فاستقبله بغاية التجلة ورحب برجاله ودعاهم جميعاً لمناولة طعام الظهر

وكان الملك في ذلك النهار منشرح الصدر مسرور الخاطر فلاطف ندماءه واكثر من ممازحتهم ومسايرتهم وقد نال ثيودور باسمانوف من ذلك أوفر نصيب. وبينما هم عَلَى مائدة الطعام سُمع صوت وقع حوافر جواد في فناء الدير فقال الملك لثيودور — انظر من القادم

ولم يكد ثيودور يفتح الباب حتى ظهر منهُ ماليوتا مذعوراً مصفرًّا وهيئتهُ تدلُّ عَلَى انهُ قادم بمهمة خطيرة. فلما رآه باسمانوف في تلك الحالة ذُعر وعاد الى مكانه وهو ممتقع الوجه مضطرب الحواس. اما الملك فبشَّ لماليوتا وقال — عسى ان يكون قدومك في مثل هذه السرعة لخير فهات وحدثنا بما يطويه صدرك

فانحنى ماليوتا امام الملك ثم دنا من رئيس الدير وسأله ان يباركه. وبعد ذلك نظر الى ثيودور باسمانوف شذراً وقال للملك — كنتُ الان في السجن وقد قمتُ باستنطاق الطحان الساحر فوقفتُ منهُ عَلَى بعض اسرار مهمة

فقال الملك وقد اتسعت حدقتاه — وبماذا اقرَّ الساحر ؟ اخبرني ولا تخف شيئاً

قال — انهُ سرد عليّ حديثاً طويلاً مؤداه ان الامير اثناسي وشخصاً آخر كانا يختلفان اليه ويطلبان منه الاعشاب السحرية تنفيذاً لمآربهما الشريرة ومقاصدهما السيئة

فلما سمع ثيودور باسمانوف ذلك ارتجف وظهرت عليه لوائح الرعب والاضطراب. اما الملك فعبس وقدحت عيناه شراراً ثم سكن جأشه وقال — ومن هو هذا الشخص الآخر الذي كان يتداخل مع الساحر ؟

قال — هو ثيودور باسمانوف وليس غيره

واذ سمع ثيودور ذلك نهض وقال وهو يجتهد في اخفاء ما حل به من الرعب — لا تصدّق يا سيدي الملك ذلك وما الطحان الاّ كاذب في دعواه. فهو اذ علم باني كنتُ السبب في القاء القبض عليهِ وايداعه السجن عزم على ان ينتقم مني بمثل هذا الافتراء

فلم يجبه الملك بشيء بل نظر الى ماليوتا واشار اليهِ بتتمة الحديث. فقال — وقد اخبرني الطحان ايضاً بان ثيودور باسمانوف كان اشد الحاحاً عليه من الامير اثناسي فى طلب الاعشاب السحرية التي يحملها في عنقه بقصد اتلاف جلالتك

فهز الملك رأسه وتنهد طويلاً. اما ثيودور فاستطير لبهُ جزعاً وخاطب الملك قائلاً -- رحماك يا مولاي فكل ذلك ترّهات واوهام يقصد بها نكايتي واذلالي ولو كان لي ادنى مداخلة مع الطحان لما سعيتُ بهِ اليك

فقال الملك — لكل شيء بينة فأرنا اولاً ماذا تحمل في عنقك

اجاب — ولكن يا سيدي ليس فيه ما يهمك ان تراه فهناك صليب و بعض ايقونات صغيرة

قال — لا بدّ من رؤية كل ذلك

ففكّ باسمانوف الازرار العالية من ثيابه ويداه ترتجفان وقلبه يخفق خفقاناً شديداً ثم اظهر للملك الصليب والايقونات المعلقة في عنقه. غير ان الملك لاحظ ايضاً شيئاً اخر كان ثيودور يجتهد في اخفائه بين اثوابه. فقام الملك ومدّ يده الى صدره واخرج كيساً صغيراً كان معلقاً في عنقه فتناوله وقلّبهُ بين يديه وهو

يقول — فما هذا اذاً ؟

فقال باسمانوف وقد طار رشده — هذا بركة والدتي

فنظر الملك اليه شذراً ثم ناول الكيس لماليوتا قائلاً — فكهُ لنرى ما فيه

فاخذه ماليوتا وفكهُ ثم اخرج منه اعشاباً وجذوراً صغيرة وعظام ضفدعة ووضع كل ذلك على المائدة

الفصل الرابع والثمانون

﴿ الحكم على باسمانوف ﴾

فلما رأى الحضور ذلك اندهشوا ووقفوا حيارى وقد ارتعد رئيس الدير واكبر هذا الامر وابتعد عن ثيودور باسمانوف وهو يصلّب ويجمجم . اما الملك فلما رأى محتويات الكيس انقلبت سحنته فجحظت عيناه وتطاير الشرر من مقلتيه ثم تمالك روعه وقال لباسمانوف — أبهذا باركتك والدتك ؟

فوقع ثيودور على الارض من شدة الهلع وقال بصوت مرتجف — اصفح عني يا سيدي ولا تفتكر بي سوءًا فما انا الاَّ عبدك المخلص وخادمك الامين . اما هذه الاعشاب فلم اطلبها الاَّ لاصلاح شأني واعادة انعطافك اليَّ لانك في هذه المدة الاخيرة قد تغيرت على عبدك ولم تعد تعامله بما عودته من المحبة والملاطفة

فقال الملك — واي دخل لعظام الضفدعة بين الاعشاب وماذا قصدت بها سوى اغتيالي ؟

قال — حنانيك يا سيدي الملك فانا لم ادرِ بوجودها في الكيس واني اقسم على ذلك اعظم الاقسام

فالتفت الملك الى ماليوتا وقال — انت تقول ان الساحر قد اخبرك بان ثيودور كان يتردَّد عليه بقصد الايقاع بي

فاجاب ماليوتا وهو يخفي في صدره فرحاً لا مزيد عليه — نعم يا سيدي هو ما تقول

فقال الملك لثيودور — بقي ان نجمعك بالساحر ونحملكما على الاقرار الصادق لئلا يقال ان الملك يعاقب الناس واما رجاله فلا يمسهم ولو فعلوا كل انواع المعايب والآثام . وعليه فلا بدَّ من امتحانك وحملك على الاعتراف الصحيح بهذه الغوامض والافصاح عن جميع هذه المداخلات والاسرار

فترامى باسيمانوف على قدمي الملك وقال — رحماك يا مولاي اسمح لي ان اطلب رحمتك هذه المرة فقط ولا تدع عبدك الامين يساق الى موضع العذاب والامتحان بل اصفح لي واذكر اني خدمتك ولم اخالف لك ارادة قط

فاعرض الملك عنه ولم يجبه بشيء

فقام ثيودور وانطرح على ابيه الكسي وقال — اشفع بي يا والدي واسأل الملك ان لا يرذلني ويعاقبني ويشمت بي اعدائي

فقال له ابوه — اغرب عني ايها العقوق فلست ابني ما دام غضب الملك حالاً عليك

فترك ثيودور اباه ووقع على قدمي رئيس الدير وهو في اشدّ حالات اليأس والقنوط وقال — ايها الاب الصالح ابتهل اليك ان تستمد لي العفو من جلالة الملك .. وكان الرئيس واقفاً لا يتحرك وقد اطرق بنظره الى الارض ولم يدرِ ماذا يقول

فقال الملك لثيودور — دع الرئيس وشأنه اما اذا كان لا بدَّ من سؤالهِ فربما نسأله ان يحتفل بجنازتك والدعاء بغفران خطاياك

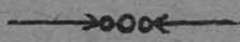
فلما رأى ثيودور الملك لا يذعن ولا يلين ايقن انه هالك لا محالة لانه لا يستطيع ان يحتمل ضروب العذاب والامتحان ولا سيما من يد ماليوتا خصمه الاشدّ وعدوّه الازرق . فنهض من ساعتهِ وقد تغيرت فجأة ملامح وجهه فاصلح جدائل شعره الذهبي وقال — ها انذا ذاهب الى موضع العذاب والنكال فألف شكر لك ايها الملك على ملاطفتك وحبك . اني لم اضمر لك سوءاً ولم يخطر في ذهني قط ان اخالفك في شيء واما الذنوب التي أنتَ تعرفها والتي لم يطلع على شيءٍ منها احدٌ من الخلق فانت سببها وسيحاسبك الله عليها واما انا فسأقصها على الشعب يوم

أَقاد الى النطع ٠٠ ثم التفت الى رئيس الدير وقال — والان تفضل ايها الاب الصالح فاسمع اعترافي ٠٠٠

فانقضَّ عليه رجال الحرس ولم يدعوه يتم كلامه بل اخرجوه قسراً من الردهة ثم اوثقوه واركبوه جواداً وساقهُ بعد ذلك ماليوتا وبعضٌ منهم الى قرية الكسندروڤا حيث زجوه في السجن

اما الملك فبعد خروج ثيودور تنهد والتفت الى رئيس الدير قائلاً — أرأيت ايها الاب كيف ان الاعداء يحدقون بي من كل جانب ؟ أرأيت كيف ان لي من خواصّ رجالي اعداءً قاموا خفيةً لمناهضتي بقصد اهلاكي وتنغيص عيشي ؟ فصلِّ لله ليمنحني الغلبة عَلَى جميع اعدائي المنظورين وغير المنظورين ويردَّ عني كيدهم ويساعدني لأقتلع من البلاد جرثومة الفساد والخيانة

قال هذا ونهض فودَّع رئيس الدير وخرج مع حاشيته فركبوا خيولهم وساروا يقصدون قرية الكسندروڤا ٠ فشيعهم الرئيس وسائر الرهبان وهم يدعون للملك بدوام التأييد



الفصل الخامس والثمانون

﴿ دعوة الشريف موروزوف ﴾

اما ما كان من امر الشريف دروجينا موروزوف فهو انه بقي في قرية الكسندروڤا ينتظر امر الملك ولم يكن همهُ الاَّ ان يعرف مقرَّ زوجتهِ فكان يقضي الساعات الطوال وهو يفكر في امرها جازماً انها مختبئة في بعض الاماكن تتوقع لقياه ٠ وكان كلما تذكَّرها يخطر في باله الامير نيكيتا فيتصور ما اجراه لاجله في تلك الليلة المشومة حينما هجم عليهِ الامير اثناسي ڤياز يمسكي برجاله فتلقاهم الامير نيكيتا بشدَّة بأسه ودافع عن الشريف دفاع الابطال المجربين وأُلقي بسبب ذلك في السجن ٠ وكان الشريف قد سمع بفرار الامير فودَّ ان يهتدي اليه ويجتمع به لانه لم يعد من ذلك الحين يسمع عنه شيئاً

ولما عاد الملك من زيارة الدير أرسل اثنين من حجابه يدعوان الشريف موروزوف لمناولة الطعام على مائدته . فسر الشريف بهذه الدعوة وايقن بانتهاء المكاره وأمّل ان يعود بعد يوم او يومين الى موسكو فيبحث عن زوجته ويجدّد بناء قصره ويأوي اليه مع حاشيته وذويه آمناً مطمئناً وما عتم ان ارتدى ثيابه وبادر الى قصر الملك وهو خليُّ البال طيب القلب لا يعلم ما تؤول اليه هذه الدعوة . ولما دخل ردهة الطعام وجدها غاصة برجال الحرس . وكانت الموائد قد أُعدت وبسطت عليها ادوات الطعام . ولم يرَ الشريف في الردهة غيره من الشرفاء والنبلاء فزعم ان الملك انما اختصهُ بهذه الدعوة تكفيراً عما سبق له معه من المعاملات السيئة . فجلس في بعض جوانب الردهة ووجهه طافح بالمسرّة والغبطة . ولم يمضِ عليه في تلك الحالة الاّ القليل حتى سمع قرع الاجراس ونفخ الابواق فعلم ان الملك قد خرج من مخدعه ليسير الى ردهة الطعام . فتحفز لملاقاته ولم يلبث ان رآه مقبلاً وقد بدت على وجهه لوائح الدعة والسرور يحفُّ به رجالهُ ومن جملتهم الاب ليفكي وڤاسيلي غريازنوي والكسي باسمانوف وبوريس غودونوف وماليوتا سكوراتوف . ولما دخل الملك ردهة الطعام حتى رأسه الحضور ثم جلس في كرسيه وجلس رجالهُ كلٌّ في مكانهِ وقد أُشغلت جميع المقاعد والكراسي الاّ واحداً بازاء كرسي بوريس غودونوف و بعده في الرتبة . فنظر الملك الى الشريف موروزوف وبشّ له ثم اشار الى الكرسي الفارغ وقال — اجلس هنا ايها الشريف

فصعد الدم الى وجه موروزوف وقال — يشقُّ عليّ ايها الملك ان اغير شيئاً من عوائدي القديمة وها اني قد طعنتُ في السن ولم أرضَ قط بالمذلة . فأهون عليّ ان اتعرّض مرة اخرى لسخطك وطردك اياي من امام وجهك من ان اجلس بعد بوريس

فلما سمع الحضور ذلك دهشوا وتبادلوا النظر فيما بينهم . اما الملك فكأنه كان يتوقع مثل هذا الجواب ولذلك لم يظهر عليه اقل تعجب بل التفت الى بوريس غودونوف وقال — تذكر يا بوريس اني منذ سنتين تقريباً سمعت مثل هذا

الجواب من الشريف موروزوف وقد نفرتُ منهُ وقتئذٍ وحكمتُ عليه بالابتعاد عني وان يكون من المغضوب عليهم . اما الان فقد حان لي ان اغيّر عادتي السابقة فالظاهر ان الشريف موروزوف وامثاله الشرفاء والنبلاء لا يريدون ان يخضعوا لنا بل ان نخضع لهم ونصغي الى ارشاداتهم ونصائحهم ونكون طائعين لهم في كل شيءٍ حتى في منازلنا الخصوصية . واذا كان الامر كذلك فلم يبقَ لي والحالة هذه الاَّ ان اجمع رجالي واهرب بهم من هنا الى اقصى اطراف البلاد والاَّ فيطردنا الاشراف من هنا كما طردونا من موسكو

فقال بوريس وقد عزم عَلَى ان يساعد الشريف وينتشلهُ من هذه الورطة — ان لك يا سيدى الملك ملء الحق، ومطلق الحرية في سائر شؤوننا واحوالنا وليس لاحد ان يعترضك في اقوالك واوامرك . غير ان الناس اذا طعنوا في السن يشق عليهم ان يغيروا عوائدهم القديمة فلا تسخط يا مولاي على الشريف لتمسكه بهذا الامر وها انذا مستعد اذا كان ذلك حسناً في عينيك ان اتخلى عن مقعدي للشريف لان جميع المراتب في بلاطك رفيعة سامية

ثم نهض بوريس يريد ان يخلي كرسيه لموروزوف فاستوقفهُ الملك بنظره ثم قال وقد لاحت عَلَى وجهه علامات الاضطراب والغضب — أجل ان الشريف طاعن في السن غير ان عقله صغيرٌ جداً بالنسبة الى سنه فهو يحب المجون والمزاح ولستُ أُحجمُ عن ممازحته في اوقات فراغي من الصلاة والعمل لان الانسان يميل بالطبع الى تفكيه خاطره ببعض الملاهي والمضحكات . والحق يقال انهُ من يوم وفاة نديمي نوغتيف المهرج لم اعد اسمع من احد منكم شيئاً يسرّي الهموم ويجلو صدأ القلب . ولعلّ الشريف موروزوف ماهرٌ بهذه المهنة وهو يسعى اليها منذ زمان . ولقد وعدتهُ بجزيل انعامي فلا ارى افضل من تعيينه في بلاطي اول الندماء والمضحكين وها اني اخلع عليه ايضاً طيلسان نوغتيف الشهير فلعلهُ يرجع اليه الافكار الثاقبة

ولما قال هذا التفت الى ڤاسيلي غريازنوي قائلاً — إنهض واحضر لنا الطيلسان لنتسلّى ونتفكّه لاني في حاجة ماسة الى التسلية

الفصل السادس والثمانون

﴿ طيلسان المهرّج ﴾

لما سمع الشريف موروزوف كلام الملك جرى الرعب في اعضائهِ مجري دمه في عروقه فالقى على الملك نظراً حاداً ليتحقق صحة عزمه فقرأ في وجهه تصمياً على ذلك فكاد يجنّ من شدة التهيج والغضب . اما الحضور فكانوا جالسين ساكنين وقد استعظموا الامر ولبثوا ينظرون ما سيكون وهم يتوقعون ان يروا مشهداً خطيراً وقد ايقنوا ان الملك سيتخذ هذه الفرصة لصبّ جام انتقامه على رأس هذا الشيخ . اما ڤاسيلي غريازنوي فكان قد خرج في هذه الاثناء من ردهة الطعام ولم يلبث بعد ذلك ان عاد اليها حاملاً بين يديه ثوباً نصفه من القطيفة والنصف الاخر من الجوخ وكله قطع متصلة ببعضها ومختلفة الالوان ما بين احمر وابيض واسود وأزرق و بنفسجي وغير ذلك . وقد أُنيط بأطرافه عدة اجراس ودفوف صغيرة بهذا الثوب تقدم ڤاسيلي غريازنوي الى موروزوف قائلاً — تفضل ايها الشريف وارتدِ هذا الطيلسان الجميل فقد تعطف جلالة الملك عليك بهذه النعمة لتكون خلفاً للمهرّج نوغتيف

فلما سمع موروزوف ذلك صعد الدم الى رأسه وصاح بڤاسيلي — اخرس ايها الوغد واغرب من وجهي ولا تجسر ان تمسّ الشريف موروزوف الذي لم يكن اجدادك وآباؤك الاّ خدماً وحشماً عند اجداده وآبائه . ثم التفت الى الملك وقال بصوت يتلجلج من شدة الانفعال — ارجع عن كلامك ايها الملك ومُرْ بإعدامي لانك حرٌّ في ذلك واما الشرف فلا تمسهُ لانك لستَ حرّاً فيه

فنظر الملك الى رجال الحرس وقال — لقد قلتُ لكم ان الشريف موروزوف يحب المازحة والمجون فهو يقول اني لستُ حرّاً ان أُنعم عليه بهذا الطيلسان

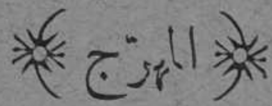
فقال موروزوف والجلال يرافق كلماته — ايها الملك اني باسم الاله العظيم أسألك ان ترجع عن عزمك فانك لم تكن قد وُلدتَ حينما كان المرحوم والدك

ينعم عليَّ لاجل الاجراءات العظيمة التي بها خدمته وخدمت البلاد . فأنا الذي قهرت امة الشوقاش والشرميس وأنا الذي طهرت جهات نهر اوكا من عيث التتر ودحرتهم عن العاصمة ثم خلصت مدينة تولا من الاعداء وفعلت غير ذلك مما لا تنساه الامة الروسية على تمادي الزمن . ولقد جُرحت كثيراً وسال من دمائي كثير في سبيل الخِدَم الباهرة الكثيرة التي أديتها لوالدك ولم اكن لأحفل بحياتي بل كنت أتعرض لكل انواع الاخطار غير هيَّاب ولا وجل . وكم دافعت عن والدتك وعنك قبل ان بلغتَ سن الرشد وكم رددت عنكما كيد الاعداء والاحزاب . ولم يكن همي حتى الان الاَّ خدمة البلاد والمحافظة على شرفي الخاص فكيف تريد انت الان وهذه حالي ان تحتقر شيبتي وتشين شرفي وتلحق بي وصمة عار لا تمحى ما دامت السماء سماء والارض ارضاً . وعليه فمرْ الان ايها الملك بمعاقبتي مُرْ فاسير الى النطع بالفرح والافتخار كما كنت في السابق أسير الى ميادين الوغى

وكان الجميع يسمعون كلام موروزوف مندهشين من قوة حجته وشدة لهجته غير ان الملك لم يتأثر لهذا الكلام بل استشاط غيظاً وقال — كفاك اعتداداً بنفسك ايها الشيخ المهذار فان هذيانك يدل صريحاً على انك فكِهٌ ماهر ومزَّاحٌ بارع فالبس هذا الثوب وأرنا براعتك وحذقك . ثم التفت الى رجال الحرس قائلاً — واما انتم فساعدوه في ذلك لانه تعوَّد ان يُخدم

ولو ان موروزوف اظهر بعض الخضوع لامر الملك او وقع على قدميه مستغفراً لكان الملك قد عفا عنه . غير ان هذا الشريف كان بعيداً عن كل تزلف وتذلل وهيئته تدل على عزة النفس وعظمة الذات . ولم يكن الملك يوحنا يطيق شخصاً هذه صفاته . بل كان يريد ان يتصاغر له جميع الناس ويكونوا امامه اذلاَّء خاضعين يتممون اقل اشاراته وينصاعون لاقلّ اوامره

الفصل السابع والثمانون



وفي اقل من لحظة خلع رجال الحرس عن موروزوف ثيابه وألبسوه طيلسان المهرّج وهو واقف بينهم في تمام الخضوع والطاعة لا يبدي اقلّ معارضة . وكانت افكاره سابحة في عالم الخيال فلم يشعر الاّ وقد ابتعد عنه الحرّاس وهم ينظرون اليه ويضحكون . ثم تقدم اليه ڤاسيلي غريازنوي وبيده قبعة طويلة ذات ألوان لا تحصى فوضعها على رأسه وانحنى له قائلاً — ايها الشريف دروجينا موروزوف اننا نهنئك بهذه الوظيفة الجديدة ونرجو ان تطرفنا بنوادرك ونكاتك كما كان يسلينا سلفك المرحوم نوغتين

فرفع موروزوف رأسه وأدار نظره في الحشد ثم زفر زفرة حارّة وقال برباطة جأش — اني أشكر للملك هذه النعمة الجديدة وأرجو ان أحسن القيام بتمثيل دوري فتنحوا ايها الناس ودعوا المهرّج الجديد يدنو من الملك فقد عزمتُ على ان افكه خاطره بما لم يسمعه قط من غيري من النكات المدهشة والنوادر المضحكة

وكأنهُ سحر الحضور بهيئته وكلامه فتراجعوا عنه الى الجانبين وسار هو بمنتهى العظمة والجلال كأنهُ مرتدٍ حلة ملوكية وليس ثوب مهرّج بالاجراس والدفوف . ولما اقترب من الملك جلس تجاهه ثم ألقى يديه على المائدة وشخص ببصره اليه وقال كيف تريد ان افكهك ايها الملك واي شيء يطربك ؟ لان الذي جرى في البلاد منذ تبوّئك سرير المملكة من الفكاهات ودواعي الطرب ما لا يقع تحت حصر . ففي اول عهدك وانت غلام بعد كنتَ تلهو بركوب الجياد ودوس الناس في الشوارع ومعاطف الطرق ثم لما كبرتَ قليلاً أمرتَ بذبح كتّاب الامير شويسكي وفعلتَ غير ذلك من الفظائع ولما جاءك نواب مدينة بسكوف يشكون اليك مظالم نائبك في ولايتهم أمرتَ بحلق لحاهم بالقار الحارّ . . .

فلما سمع رجال الحرس ذلك الكلام تحفزوا للوثوب على الشريف موروزوف وتقطيعه . غير ان الملك منعهم باشارة منه فلبثوا في اماكنهم وقد ملكهم

العجب والاستغراب

اما موروزوف فاستتلى خطابه قائلاً — غير ان ذلك لم يكن الاَّ لهواً صبيانياً لم يلبث ان أضجرك فعمدتَ الى نوع آخر من التسلية . وهو انك اخترتَ جمهوراً من مشاهير الرجال ورغبتَ اليهم في الانخراط في سلك الرهبنة . ولما فعلوا ذلك مددتَ يدك الى نسائهم وبناتهم وفعلتَ ما تخجل الانسانية من ذكره . وصرتَ بعد ذلك تنتقل من رذيلة الى أرذل ومن منكر الى أنكر على ما تسوقك اليهِ اهواؤك وشهواتك

ولما سئمتَ من هذه التسلية اخذتَ تنتقي شرفاء الامة وجلة اعيانها فتنسب اليهم ما شئتَ وما شاء اعوانك من الاثام والمعايب وتوقع بهم وهم في الحقيقة أصفى رعاياك واشدُّ المخلصين لك . ولما لم تكتف بهذا كلهِ شرعت تسخر بالكنيسة وتهزأُ بنواميسها واحكامها فاصطفيتَ لنفسك من زعانف الناس ورعاعهم حرساً ليجاروك في هذه الاعمال البذيئة ثم ألبستهم الملابس الرهبانية وأقمتَ نفسك رئيساً عليهم وصرتَ مع هؤُلاء الرهبان القديسين تنحرون الناس نهاراً وتتعبدون ليلاً وقد قمتَ انت بهذه الوظيفة الاخيرة أحسن قيام لانك وأنت ملطخ بدماء الابرياء كنتَ تصلي وترتل التراتيل الكنائسية وتقرع الاجراس وكدتَ تقوم بالخدمة الالهية بنفسك . وهذا النوع من التسلية قد أطربك جداً فآثرتهُ على غيره وما زلت تتفنن فيه حتى فقتَ جمع الجلادين وسفاكي الدماء الذين اشتهروا بالقساوة وغلاظة الكبد . اما حفلات التهتك والخلاعة التي كنتَ تقيمها مع رجالك وندمائك في ساعات فراغك من الصلاة والعبادة فمما لم يسبقك اليهِ احد

هذا برضٌ من عدٍّ من اعمالك الجهنمية ايها الملك ذكرتهُ وقلبي مشتعل بنار الاحزان لسقوط مجد روسيا وهبوطها فهي في عهدك قد اصبحت مرتعاً للدسائس والفتن وسائر ضروب القلاقل والإحن . وكل عاقل من رعيتك ينظر الى اعمالك بقلب متصدع ويخشى أن تحلَّ بسببك نقمة الله على البلاد فتجزأُ وتخرب او تعود فتتسلط عليها امم اخرى كالتتر او النمساويين او غيرهم وتضطر حينئذٍ جلالتك ان تسجد للخان وتقبل ركابه . . . ثم صمت موروزوف وفي

صدره براكين مشتعلة

الفصل الثامن والثمانون

﴿ تتمة الحديث ﴾

واذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العجز ان تكون جبانا

كان الشريف يتكلم بصوته الجهوري والجميع مصغون اليه كأنَّ على رؤوسهم الطير وقد اصفرَّت وجوههم وارتعبت قلوبهم حتى ان داليوتا نفسه شعر بخفقان شديد وخوف عظيم . اما الملك فكان جالساً مطأطىء الرأس ممتقع الوجه تقدح عيناه شراراً ولكنهُ لم يتحرَّك لئلا تفوته كلمة من خطاب الشريف . فلما فرغ هذا من حديثه نهض ڤاسيلي غريازنوي وقد شهر في يده خنجراً فدنا من الملك وقال — دعني اغمد هذا الخنجر في حنجرته لنتخلص من هذيانه . فقال له الملك وهو يتلذع غضباً — اياك ان تمسهُ لاني اريد ان أسمع كل حديثه

فنظر اليه موروزوف نظر الظافر المنتصر ثم قال — فأنتَ اذاً لم تكتفِ بما أطربتك به الان من الملح والنكات بل تريد غيرها فاسمع وتفكَّه : لم يبقَ من خدمك الامناء من ذوي الاعراق الشريفة الاَّ واحدٌ قضى ايامه منقطعاً عن بلاطك الدموي ولم يتداخل قط في شؤونك اما انت فلم تدعه في سكينته ناعم البال بل عزمتَ على تنغيص عيشهِ اولاً ومعاقبته ثانياً ليلحق باخوانه من شهداء الفضيلة وصرتَ تبحث عن وسيلة تنيلك مبتغاك وتظفرك بامنيتك . فلم تلبث ان استدعيتهُ ثم صرفتهُ بعد ان شهرتَ عليه غضبك . اما هو فعاد الى منزلهِ وهو يودُّ ان يبقى طول حياته مقصياً عنك منسياً منك . بيدَ انك لا تنسى احداً فقد أرسلتَ اليه احد اخصائك الامير اثناسي ڤياز يمسكي فحرق بيتهُ وسبى امرأتهُ . ولما جاءك يستغيث بك لتنصفهُ من خصمهِ لم تبالِ بدعواه العادلة بل امرتهُ بمبارزة الامير لتيقنك بان الامير سيفوز عليه لا محالة بالنظر الى شيخوختهِ . غير ان الله أبي الاَّ إظهار الحق . اما انت فلم تكن تنتظر مثل هذه النتيجة فاغتظت واخذتَ تسعى لاغتيال هذا الشريف الشيخ بحيلة اخرى

ثم انتصب موروزوف امام الملك كمثال الانتقام وضرب المائدة بيده ورفس الارض برجله وقد هاج الدم في رأسه فاتقدت عيناه وارتسم الغضب على وجهه وقال بصوت مرتفع — فاستدعيت حينئذٍ خادمك الامين الشريف دروجينا موروزوف الذي انقذ مدينتي تولا وموسكو من شرّ المصائب والاهوال والذي لاجلك خاض غمار الحروب وصافح الموت مراراً بلا وجل والذي يودُّ من كل قلبهِ ان يسفك آخر قطرة من دمه في سبيل خدمتك وخدمة البلاد . استدعيتهُ وامرتهُ ان يرتدي طيلسان المهرج ليسليك مع ندمائك . هذه هي انعاماتك ايها الملك وبهذا انت تكافئ اشراف مملكتك وقوّاد جيوشك وابطالك

كان موروزوف يتكلم وكل جوارحه تنتفض وتكاد اوتار صدره تتقطع وكان منظره وهو على تلك الحالة مخيفاً مرعباً . وكان الملك وجميع رجال الحرس صامتين مبهوتين ولم يلتفت احد منهم الى الطيلسان ولم ينتبهوا الى اجراسه التي كانت ترنُّ لدى كل حركة يبديها الشريف ومن رأى هذا المشهد وقابل في تلك الساعة بين هيئة الشريف وهيئة الملك لرأى الملك حقيراً جداً بالنسبة الى الشريف

ثم تنفس موروزوف تنفساً طويلاً وعاد الى حديثه فقال — وهاءنذا ايها الملك قد قمتُ بتمثيل دوري على قدر طاقتي ولم يبقَ الاَّ ان اخاطبك بكلمة اخرى هي نهاية الحديث . فاعلم انك وانت حيٌّ تبقى افواه الامة الروسية صامتة عن اظهار معايبك وشرورك خوفاً من نقمتك . واما بعد زوال ملكك الوحشي فتندفع جميع الالسنة من سائر اطراف البلاد تذيع مآثمك ومخازيك وتنشر سيئاتك وشرورك ويكون اسمك مثال الظلم والتوحش ملعوناً بكل شفة ولسان الى يوم الدينونة الرهيب حينما ينهض المئات والالوف من الرجال والنسآء والشيوخ والاطفال الذين أُهرقت دماءهم فيقفون امام الديان العادل ويطلبونك للمحاكمة واذ ذاك اظهر انا ايضاً بهذا الطيلسان الفاخر واذكر ظلامتي . واما انت فستكون منفرداً ولا يقدر رجالك هؤلاء الانذال ان يدافعوا عنك ويسدوا افواه الصارخين والطالبين الانتقام منك . فالويل لك في ذلك اليوم لان الديان العادل سيطرحك في النار

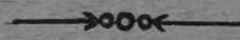
الابدية لإبليس وملائكته

ولما قال موروزوف هذا صمت والقى نظرة ازدراء على الملك وندمائه ثم أعرض عنهم بأنفة وسار بين الموائد بقدم الغالب المنتصر والعظمة بادية في سائر حركاته والجميع مذعورون مبهوتون كانهم يرون رؤيا . ولما كاد يصل الى باب الردهة انتبه ماليوتا من غفلته وقال للملك — هل تأمر يا سيدي بقتله ام بإيثاقه ؟

فهبَّ الملك كمن حلم وقال بصوت مرتجف — ألقوهُ في السجن ولا يمسهُ احد بل اطعموهُ واسقوهُ الى اليوم الذي أُريد واياك ان تسيء معاملتهُ

فنهض ماليوتا لساعته وتقدَّم الى الشريف مع بعض رجال الحرَس فاوثقوهُ بأيدٍ مرتجفة واقتادوه الى السجن وهم لا يكادون ينظرون الى وجههِ

اما الملك فقام عن المائدة وعاد الى مخدعهِ وهو أصفر الوجه مشرَّد الافكار



الفصل التاسع والثمانون

الاستعداد للمعاقبة

ولما كان المسآء أقبل ماليوتا كعادته فخلا بالملك وقصَّ عليه بعض اخبار السجن والمسجونين فاخبره ان السجن قد غصَّ بالمجرمين وان عددهم قد بلغ الثلاثمئة ماعدا موروزوف والامير اثناسي ڤيازيمسكي وخدمه وثيودور باسمانوف والطحّان واللص كورشون . ثم أضاف الى ذلك قوله — اما ثيودور باسمانوف فقد اقرَّ امام الشهود والكتبة بان لابيه اليكسي اليد الطولى في جميع دسائسهِ ومآثمهِ وانهما مشتركان معاً في المؤامرة على جلالتك . فقال الملك — ألقِ اذاً القبض على اليكسي باسمانوف وأودعهُ السجن وبعد يومين يصير عقاب جميع هولآء المجرمين في مدينة موسكو بحضور جميع السكان لاني اريد هذه المرَّة ان اجعل العقاب علناً ارهاباً للجميع . وقد حكمتُ على الطحان الساحر بالحرق وعلى

اللص كورشون وموروزوف باشد العذابات و بمثل ذلك تقريباً على الامير اثناسي وثيودور باسمانوف فاذهب وجهز المعدات اللازمة ولا تغفل شيئاً . فقام ماليوتا وودّع الملك وخرج وهو كانهُ ذاهب الى وليمة او عرس . وما أشرقت شمس اليوم التالي حتى كان في صهوة جواده سائراً في طريق موسكو يصحبه بعض رجال الحرس وقد حملوا آلات العذاب ومعدّات الاعدام عملاً بامر الملك . ولما وصلوا الى العاصمة قصدوا توّاً الساحة الكبرى فيها الى حيث كان يحتشد تجار المدينة وضواحيها . فنصبوا في بعض جوانبها عدة مشانق و بازائها وضعوا حلة حديد كبيرة ثم اقاموا حولها عدّة اعمدة وقد هيأوا الجنازير والحبال والفؤوس والنبال والاوتاد والسيوف وآلات اخرى كثيرة مختلفة . وكان سكان العاصمة يشاهدون هذه الاستعدادات وهم في غاية التحير والذعر وقد بطلت حركة اعمالهم فتركوا الشوارع والاسواق وتفرّقوا الى منازلهم حاسبين لذلك الف حساب . و بعد قليل سادت السكينة في جميع اطراف العاصمة ولم يعد يتجرأُ احدٌ على الخروج من بيته

وفي اليوم الثاني حضر الملك من قرية الكسندروفا في موكب حافل برجال الحرس وكلهم شاكو السلاح . فلم يخرج احدٌ من الاهلين لاستقباله لان الرعب استولى عليهم فلبثوا ينتظرون ما سيكون . وفي هذا النهار ايضاً جيء بجميع المجرمين الذين كانوا ينتظرون منيتهم في غيابات السجن وكانوا نحو ثلاثمئة وخمسين رجلاً فأُودعوا كلهم في سجن العاصمة حيث باتوا يتوقعون حتفهم عاجلاً

ولما كان صباح اليوم التالي خرج المبوّقون من قصر الملك وساروا الهوينا نحو الساحة الكبيرة وهم يبوّقون . ثم اقبل جماعة من الحرّاس وقد ركبوا خيولهم وساروا صفوفاً منظمة ليعدُّوا طريق الملك ويحفظوا السكينة بين الناس . غير انهُ لم يكن احد من الاهلين قد حضر فكانت السكينة والحالة هذه ضاربة اطنابها في كل تلك البقعة من غير إزعاج الحراس . وكان بعد هذا ان أقبل الملك يوحنا الرابع ممتطياً جواده ولابساً حلة فاخرة وعلى رأسه تاج مرصع بالجواهر ومزين بصوَر القديسين وقد أُنيط الى سرج جواده كنانة النبال وقوس من ذهب وعلق

في عنق الجواد رأس كلب . وكان سائراً الى جانب الملك ولي عهده يتبعهما رجال البلاط والزعماء وكلهم على الجياد الكريمة . ووراء الكل مشى المجرمون وهم مصفدون بالحديد يخفرهم رجال الحرس من كل جانب . ولما وصل الملك الى الساحة ولم يرَ احداً من الاهلين دهش واستاء جداً وأمر رجال الحرس ان ينبثوا حالاً في سائر انحاء المدينة ويدعوا جميع الناس لمشاهدة عقاب المجرمين ويطمئنوهم على انفسهم . ولم يكن الا القليل حتى اخذ الاهلون يتقاطرون زرافات ووحداناً الى ان غصت تلك البقعة بهم وكانوا جميعاً صامتين خائفين

الفصل التسعون

الاعدام

ويلٌ لمن ظلموا اذا انكشف الغطا ... وبدت فواحشهم بدون خفاء

ويلٌ لهم من حكم ربٍّ عادل ... يقتصُّ من اعمالهم بقضاء

وفي اثناء ذلك أُضرمت النيران تحت الحلة وتحفز الجلادون للعمل . فصمت الناس وسكن ضوضاؤهم . وكان الملك جالساً في عرش نُصب له على دكة مرتفعة ومن حوله رجال الحرس بالعدة الكامله : ولما أُعدَّ كل شيء ولم يبقَ الا الشروع في العمل أمر الملك بإفراز بعض المحكوم عليهم ممن كانت جرائمهم خفيفة ثم خاطبهم بملء الوداعة بصوت جهور سمعهُ كل من كان حاضراً في تلك الساحة فقال — أنتم تعلمون ان أقدس فروض الرعية نحو ملكها تمام الخضوع والطاعة له لانهُ وليُّ امرها غير انكم بمصادقتكم لبعض الخونة الاشرار وانقيادكم اليهم قد ضللتم سبيلاً فاستوجبتم على هذه الصورة عقاباً كعقابهم . غير اني شفقة عليكم وحباً الى خلاص نفوسكم أعفو عنكم وأهبكم الحياة بشرط ان تتوبوا عن مآثمكم وتقدّروا هذه النعمة حق قدرها فاذهبوا بسلام ولا تنسوا ان القضاء يتعقبكم اينما كنتم

ثم التفت الى جماهير الناس فقال — انكم ستشاهدون الان سائر ضروب

العذاب والعقاب لاني انما جمعتكم لترووا عاقبة الخيانة والعصيان . فـان هؤلاء المجرمين الذين ستعاينون معاقبتهم في هذا النهار قد قاموا يناصبون ملكهم وامتهم حرباً عواناً وفي نياتهم الشريرة ان يسلموا المملكة للاعداء . فاي شرٍّ اعظم من شرّهم واية جريمة اعظم من جريمتهم ؟ ولما كنتُ قد أُقمتُ من قِبَل الرب لأُدبر هذه المملكة وأَرعاها واصونها من كل رزية فقد حكمتُ عليهم بالاعدام لاني لم أرَ واسطة تقي المملكة من دسائسهم الآ هذه . ولما كنتُ لا أُحابي بالوجوه بل أَحكم بتمام العدالة والانصاف فقد حكمتُ ايضاً عَلَى البعض من رجالي الاخصاء . الذين أُخذوا بهذه الجريرة كما حكمتُ عَلَى غيرهم بل أَشدّ وأَعظم . فدمهم اذاً عَلَى رؤُوسهم وانا بريءٌ من كل ذلك

ولما فرغ الملك من الكلام أَمر فقدِّم الشريف موروزوف وكان الملك قد أَعدّ له عقاباً أَليماً جداً غير انه بالنظر الى محبة اهالي موسكو للشريف أَمر بتخفيف العقاب فوقف احد كتبة الديوان الملوكي عَلَى محل مرتفع وقرأ بصوت جهوري صورة الحكم عَلَي ما يأتي : ايها الشريف ! انك توعدت بحضرة الملك ان تزرع الفتنة في البلاد وتسلمها لخان القريم او لملك ليتفا بل بلغت منك الجراَة ان شتمتَ الملك نفسهُ وعيرته بما لا صحة له البتة فضلاً عن تحاملك عَلَى رجاله الامناء وخواص مملكتهِ . وانك بذلك لتستحق عقاباً اشدّ من الموت بيدَ ان الملك نظراً لمآثرك السابقة قد غير نوع إعدامك وحكم عليك بالموت السريع بقطع رأسك فقط واما املاكك وثروتك فلا تستولي عليها الخزينة بل انت حرٌّ الان ان تهبها لمن تشاء .

فرقي موروزوف النطع وقال بثبات جاش — يعلم الله اني بريءٌ من كل تهمة ولم يخطر في بالي قط ان أُسيء الى الملك او البلاد وعليه فهاءنذا أَقبل الموت شهيداً في سبيل الحق والفضيلة . اما املاكي واموالي التي تفضل الملك بابقائهـا تحت مطلق حريتي فلتُقسم ثلاثة اقسام احدها للكنائس والاديرة للصلاة عن نفسي والترحم عليّ والثاني للفقراء والمحتاجين والثالث لحاشيتي وذويّ واما عبيدي وإمائي فاني اعتقهم وامنحهم الحرية التامة فلينصرفوا الى حيث شاءوا . واني ايضاً اسامح زوجتي فلتقترن بمن تشاء

ولما فرغ الشريف من كلامه ادار نظره في جميع الحضور ثم حنى رأسهُ فتقدَّم اليه الجلاَّد وضرب عنقهُ فتدفق دمهُ الزكي وراح كغيره على مذابح التوحش والاستبداد . فويل ثم للفجار الظالمين !

وبعد استشهاد الشريف موروزوف اقتاد رجالُ الحرَس الامير اثناسي ڤياز يمسكي وثيودور باسمانوف واباه اليكسي . فقال الملك للجمهور — ايها الناس انكم تشاهدون الان ثلاثة من رجالي الاخصاء واعدائكم الاشداء فانهم قد نسوا الاقسام التي أقسموها عَلَى الامانة والاخلاص وقاموا يضطهدون رعيتي و يكيدون لي ولها . ولذا فقد استوجبوا عقاباً جسيماً جزاء ما جنتهُ ايديهم . ثم وقف الكاتب وقرأ صورة الحكم ناسباً للثلاثة الخيانة والضغط الشديد عَلَى الشعب ونية تسليم المملكة للاعداء . ولما استلم الجلاَّدون ثيودور باسمانوف واوقفوه عَلَى النطع التفت الى الجمهور وقال بصوت مرتفع — أصيخوا اليَّ يا سكان موسكو واسمعوا اقراري الاخير لاني أُريد ان اعترف لكم في هذا الموقف بجميع المآثم والموبقات التي صدرت مني برضى الملك واوامره ... وما كاد ينطق بهذا حتى وثب اليه ماليوتا و بيدهِ سيف مسلول فبادرهُ بطعنةٍ دخل السيف فيها في عنقه فسقط الى الارض والدم يتدفق من وريده . وبهذه الواسطة نجا ثيودور من اهوال العذاب التي كانت تنتظره . اما ابوه اليكسي والامير اثناسي فسيقا الى النطع وشرع الجلادون في تعذيبهما . وكان اليكسي اشدَّ احتمالاً للعذاب من الامير فان هذا لم يعد في امكانه الوقوف عَلَى رجليه وكاد يموت ألماً غير ان الجلاَّدين القساة لم يكن من همهم الا تنفيذ الاوامر بكل دقة وضبط . وفي اثناء ذلك رأى الاميرُ اثناسي الطحانَ موثقاً الى احد الجسور والى جانبهِ حلة كبيرة طافحة بالماء الغالي فتذكر اجتماعاته به واغترارهُ بقوته وشعوذته فصرَّ بأسنانه وقال — لعنك الله ايها الساحر المحتال ... ولم يكن بعد ذلك الاَّ القليل حتى قضي اولاً على الامير اثناسي ثم على اليكسي باسمانوف وهما في اشدَّ حالات العذاب . و بعد ذلك جيء باللص كورشون والطحان و بعد ان ذاقا اصناف العذاب طُرح الطحان في الحلة واستلم الجلاَّدون كورشون فأماتوه شرَّ ميتة . واخيراً أُوقف

بقية المجرمين وكانوا جمهوراً كبيراً فوقف الكاتب وقرأ الحكم عليهم بدعوى انهم نقضوا عهد الملك ونبذوا رسومه وعافت انفسهم احكامهُ وتآمروا عليه وقد نووا ان يسلموا مدينتي نوفغورود وبسكوف لملك ليتفا وان لهم علائق أُخرى مع سلطان تركيا وغير ذلك من الخيانات . ولما فرغ الكاتب من تلاوة الحكم اقتيد بعض هؤلاء المجرمين الى المشانق والبعض الآخر الى النار ومات الباقون بحد سيف الجلاد

الفصل الحادي والتسعون

الناسك والملك

بينا كان ذلك يجري والناس شاخصون بابصارهم وقد ارتعدت فرائصهم خوفاً وجزعاً شوهد رجل بسن الاربعين وهو اصفر الوجه حافي القدمين مرتدٍ اطماراً بالية جاء يشقُّ الجماهير وقد بدت على وجهه ابتسامة اليأس . فلما أبصره القوم تحوَّلوا بابصارهم اليهِ وهم يقولون — افتحوا الطريق فان الناسك باسيل قد أقبل فماذا يريد ان يفعل ؟ .. وكان الجميع يحبون هذا الرجل ويعتبرونهُ ويرهبون غضبهُ لانهُ كان وديعاً بارًّا يمقت الشرَّ وفاعليه ويدافع عن الابرياء جهده . وما زال يشقُّ الجماهير حتى دنا من الملك فوقف امامهُ وقال له — لقد نسيتني يا يوحنا فانا ايضاً استحقُّ العقاب

اما الملك فحالما وقع بصرهُ على الناسك ذُعر فأشاح عنهُ وقام فامتطى جواده يريد ان يتحوَّل عن ذلك المكان . فتعلق الناسك بزمام الجواد وقال — ما بالك تعرض عني ولماذا لا تريد معاقبتي كما عاقبتَ هؤلاء ؟

فأخرج الملك قبضةً من الدنانير وقدمها له قائلاً — خذها وصلِّ لاجلي

ففتح الناسك كفيه وهو يظهر انهُ يريد ان يأْخذ الدنانير ولكنهُ رمى بها للحال الى الارض وقال — ان دنانيرك ايها الملك لنارٌ محرقة فلماذا أحميها في جهنم ؟

فعبس الملك وقال — دعنا فليس هنا محلك

قال — لا بل هنا محلي مع جمهور الشهداء وانا أُلحُّ عليك ان تعطيني اكليل الشهادة كما أعطيتهُ لهؤلاء وتجعل نصيبي كنصيبهم فلستُ بمعزل عنهم

فصاح به الملك مغضباً — اذهب من هنا

قال — لستُ بتاركك ما لم تنلني بغيتي . ثم ضحك ضحكاً عالياً والتفت الى الجمهور وهو يشير الى الملك قائلاً — انظروا يا قوم الى الملك فان هيئته قد انقلبت وها قد نبت في جبهته قرنا جدي وصار رأسهُ كرأس كلب

فاستشاط الملك غضباً واتقدت عيناه انتقاماً وصاح بهِ — اغرب من هنا ايها المجنون . ثم تناول من احد رجال الحرَس حربةً وهجم عَلَى الناسك يريد ان يطعنهُ بها

فصاح الجمهور لا تمسهُ بمكروه فانك حرٌّ في رؤوسنا واما هذا الرجل القديس فلا تمسهُ

اما الناسك فابتسم وقال للملك — اقتلني ايها الملك الغاشم . اطعنّي هنا في صدري يا شاول الظالم . اقتلني ايها السفَّاح وألحقني بهؤلاء الابرياء . لانك اشدُّ فتكاً وأعظم شرًّا من شاول وهيرودس وسائر الظلمة الفجار . ولكنَّ الله سينتقم منك ايها الشيطان المتجسد جزآء ما جنيتهُ على الابرياء

وكان الملك يريد ان يبطش بالناسك الاَّ انهُ خشي هذه المرة هياج الشعب فصمت وقدحت عيناه شرازاً ولم يلبث ان لوى عنان جواده وسار من ذلك المكان مخفوراً برجالهِ وأعوانهِ وسحنتهُ مقلوبة تخيف أسد الغاب

وفي اليوم التالي كانت تلك البقعة التي شبعت من دماء الابرياء هادئة مطمئنة ولم يظهر فيها احد من الخلق . وقد أقام الروسيون فيها بعد ذلك العهد عدَّة كنائس «عَلَى عظام ودماء» اولئك الشهداء ولم يبرح من افكارهم خلفاً عن سلف ذكر تلك الحوادث الدموية الهائلة

———

الفصل الثاني والتسعون

الامير نيكيتا في قرية الملك

وكان بعد تلك الاهوال ان الملك اراد ان يعامل رعيتهُ بالمحبة واللطف فأمر ان تفتح السجون و يطلق المسجونون وتوزَّع الهدايا والهبات وتفرَّق الصدقات والحسنات · وفي اليوم التالي خرج من موسكو وزار دير الثالوث الاقدس حيث اقام بضعة ايام قضاها في الصلاة والعبادة · وكان قد ارسل الى قرية الكسندروفا بوريس غودونوف ليعدَّ له فيها استقبالاً حافلاً · فقام بوريس بهذه المهمة أحسن قيام ولبث في القرية ينتظر قدوم الملك

ولما كان في احد الايام جالساً في مخدعهِ يتأمل في ما صارت اليهِ حالة الملك دخل اليهِ احد حجَّابه وقال — ان الامير نيكيتا قد جاءهُ زائراً ويريد مواجهتهُ · فذُعر بوريس لدى سماعهِ ذلك ووقف كالمأخوذ وهو لا يدري بماذا يجيب لعلمه ان الامير نيكيتا بفرارهِ من السجن قد استوجب غضب الملك وان كل مخابرة معهُ قد تفضي الى التهلكة · غير ان بوريس كان يحب الامير ويعتبره ولعلمه ان الملك الان في حالة الرضى صمَّم على قبول الامير وهو يهيء في نفسهِ الاعذار والتاويل التي ينبغي له ان يذكرها للملك تخلصاً من لومهِ وسوء ظنه · ولكنهُ عزم عَلَى ان يتحفظ ما أمكن كيلا يثير عليهِ الظنون · ولذلك امر الحاجب بادخال الامير ثم قام فاستقبلهُ في ردهة منزله دون ان يخرج للقائه كما كانت عادته فيما مضى · ولما خلا بهما المكان قام اليه فعانقهُ وسأله عن صحته واحوالهِ ثم قال — اخبرني اولاً ايها الامير هل رآك احد حين دخولك منزلي ؟

فاجابه الامير بكل بساطة — لا اعلم وربما شوهدتُ من كثيرين لاني لم آتِ الى قرية الكسندروفا متنكراً ولم أحضر اليك خائفاً بل الذي دفعني الى مقابلتك حال وصولي هو لانك صديقي وتكره رجال الحرس مثلي وقد جاء معي ايضاً شرذمة من اللصوص وعدتهم اكثر من مئتين

فدهش بوريس وقال — ما شأنهم ولماذا أتيت بهم الى هنا ؟

قال — هم رفاقي في المعركة التي نشبت فيما بيننا و بين التتر في ولاية ريازان وقد جاهدوا جميعهم فيها الجهاد الحسن . وانهم جاؤوا معي الان للمثول امام الملك اظهاراً لخضوعهم واخلاصهم لسدته الملوكية فله الخيار في عقابنا او العفو عنا

قال — نعم قد سمعنا عن بسالتك وحسن بلائك في تلك المعركة وانك برجالك هؤلاء قد كسرت التتر ومزقتهم كل ممزق . فواهاً لك ايها الامير . ولكن هل علمت بما جرى عندنا في مدة غيابك ؟

فاندفع من صدر الامير تنهد عميق وقال — نعم علمت كل شيء وليس لنا الا ان نسأل الله ان يلين قلب الملك ويرشده الى سبل الصلاح والعدل. اما انت يا بوريس فغير معذور لانك ترى الشر بعينيك ولا تكلف نفسك مقاومته والمدافعة عن الحق

قال — يظهر ايها الامير انك لم تغير شيئاً من طباعك . وهل انت موقن ان الملك يسمع من احد او يصغي لاحد ؟

قال — وهب انهُ لا يصغي لاحد غير ان الواجب يدعوك الى نصرة الحق مهما كان الامر لانه اذا لم يسمع الملك منك الحقيقة فممن يليق به ان يسمعها؟

قال — وهل تعتقد انت انهُ لا يعرف الحقيقة ؟ وانه عاقب جميع اولئك الناس لمجرد الظنون والتآويل الباطلة التي قُذفوا بها ؟ كلاّ . بل انهُ يعاقب كل من وقع عليه سخطه . فليس لاحد ان يعترضه بشيء او يتصدى لارجاعه عن عزمه . فهذا الشريف موروزوف قام يبين له كل سبيل بفصاحة نادرة وكلام مؤثر فماذا كانت النتيجة ؟ انهُ سمع كل حديثِهِ ثم أحصاه في جملة المجرمين . ولا شك انك عرفتَ شيئاً من تفاصيل المعاقبة الشهيرة التي حدثت في موسكو منذ بضعة ايام

قال — نعم اطّلعتُ علَى ملخصها وأسفتُ علَى الاخص لمقتل الشريف موروزوف لانهُ كان من اشراف الامة واعاظم نبلائها والغيورين على مصلحتها

قال — فكيف عزمتَ على الرجوع الى قرية الكسندروفا بعد وقوفك علَى كل ذلك ؟

قال — جئتُ لان الواجب يدفعني الى المثول امام الملك براً بقسمي ولأنَّ الحياة في روسيا أمست عذاباً دائماً

قال — انت ايها الامير تسير على غير هدى فلا تتحرَّز ولا تتحفظ ولكن الله يحفظك ويحرسك كيفما سرت . فكم من مرةٍ تعرَّضت للمخاطر والله انتشلك منها؟ وهذه المرة ايضاً لو عدتَ الى هنا منذ اسبوع لكنت وقعتَ في الفخ وكان نصيبك كنصيب غيرك ممن قضي عليهم . اما الان فقد صار لك أملٌ بعفو الملك ولكن اياك ان تقابله قبل ان أراه انا وأفاتحه في شأنك

قال — أشكرك ايها الصديق وأسألك على الخصوص ان تعتني بامر العفو عن رفاقي لانهم يستحقون ذلك بالنظر لما أبدوه من البسالة والاقدام بحيث كفروا عن ما ثمهم السابقة أحسن تكفير . أما أنا فلا تهتم كثيراً لاجلي لان الموت والحياة سيان عندي الان

فدهش بوريس من هذا الكلام وقال — وهل صرتَ تكره الحياة لهذه الدرجة مما داهمك من الاحزان ام لسبب آخر ؟

قال — لا شيء يكرهني بالحياة الاَّ تفاقم الشر في البلاد وطالما خطر في بالي ان أحذو حذو الشريف كوربسكي فاهجر الوطن والآل وارحل الى بلاد بعيدة بحيث لا أعود فأسمع او أرى ما يحدث هنا من البلايا والإحن

قال — أجل ان الحالة عندنا أمست في معظم الشدة والاضطراب ولم يبقَ للمعيشة فيها الا وسيلتان احداهما الرحيل الى غير بلاد كما فعل كوربسكي والاخرى البقاء في رضى الملك وموالاته . اما انت فلا تتدرَّع لا بهذه الوسيلة ولا بتلك . فلا تهجر الملك ولا تتفق معه وهذا عين الخطأ وآفة الفناء . فاذا اردت البقاء في روسيا لانها وطنك المحبوب فعليك بمداراة الملك وتتميم جميع اوامره ورغائبه فيحبك ويجعلك من أخص مستشاريه وأعوانه . واذا تمَّ ذلك وصرنا كلانا أخص رجال البلاط فنشرع في العمل يداً واحدةً ونسعى جهدنا في ارشاد الملك وتقويم سبله وتسديده الى الصلاح والخير . وبغير ذلك لا تتمُّ لنا امنية

قال — نعماً قلت غير اني لا اطيق ان اعيش يوماً واحداً مع رجال اخرس

ولذلك أراني بعيداً جداً عن مرمى افكارك واني أُفضل الموت والعذاب على الاختلاط بهؤلاء القوم ومعاشرتهم

قال — دع عنك امر رجال الحرس فانهم ينهشون بعضهم بعضاً وسوف ينقرضون من انفسهم وها ان ثلاثة من زعمائهم الكبار وهم اليكسي باسمانوف وابنه ثيودور والامير اثناسي فيازيمسكي قد هلكوا وسيلحقهم غيرهم من هذه العصابة الشريرة . فلا بدَّ من الصبر والانتظار ومصادقة الملك

قال — صدقتَ بيدَ اني لا أقوى عَلَى الصبر والانتظار فلستُ بباقٍ في هذه الارجاء ما زال فيها واحد من رجال الحرس وقد لا يعفو الملك عني فأتخلص تماماً من عناء هذه الدنيا

قال — رويدك فامامك آمال اخرى تقدر ان تحيا بها وتكون في الوقت نفسهِ صديقاً للملك . فها ان التتر يعيثون في البلاد من جميع الجهات وانت من مهرة القواد فيمكنك ان تحاربهم وتقمع شوكتهم وبذلك تخدم الوطن والملك اشرف خدمة

قال — حبذا ما تقول لان ذلك أشهى اليَّ من كل خدمة

ثم بُسطت مائدة الطعام فقام بوريس وضيفهُ فأكلا ما أرادا ثم عادا الى مجالسهما وهما يتحادثان في شؤون مختلفة الى ان صار المساء فنهض الامير مودعاً وقال — اشكر لك ايها الشريف ولاءك واستودعك الله الان الى الملتقى القريب

فنهض بوريس مستغرباً وهو يقول — الى اين تقصد الان ايها الامير ? فابقَ عندي هذه الليلة وغداً يأتي الملك فتقابله

قال — لا اقدر لان رفاقي ينتظرونني في الحرش بظاهر القرية فلا بدَّ من الذهاب اليهم ولو كان الملك اليوم في القرية لكننا ذهبنا لمقابلتهِ حال وصولنا

قال — لا بأس فانطلق الى ذويك وليكن الله حارسك . اما انا فسأُواجه الملك غداً وارسل فأستدعيك

ثم تعانق الصديقان فخرج الامير لشأنهِ وابث بوريس في الردهة وهو يحمد الله لان الامير رفض دعوته ولم يبقَ عنده تلك الليلة

الفصل الثالث والتسعون

بوريس والملك

وفي الصباح التالي عاد الملك من زيارته بموكب حافل ودخل قرية الكسندروفا بالابهة والجلال كأنهُ رجع منتصراً من معمعة شديدة · ولما دخل القصر استقبلته مرضعتهُ اونوفريفنا بالشتم والسباب قائلة — تبًّا لك ايها السفاك والوحش المفترس لانك لا تزال تظمأ الى ارتشاف الدماء ولا تكاد تروي نفسك الخبيثة · فكيف تجرَّأت عَلَى زيارة الدير المقدس بعد عملك الجهنمي في موسكو ؟ أَفلا تخاف ان يصعقك غضب الله وتنزل بك وبجيشك هذا الشيطاني الويلات والضربات ؟

فألقى عليها الملك نظراً حادًّا وولج مخدعه دون ان يجيبها بكلمة · اما هي فأردفت قائلةً — ان الله سيناقشك الحساب على جميع هذه الجرائم والموبقات · فسيسحقك غضبه وينزل على قصرك رعداً فيدكه وعلى هذه القرية الدنسة ناراً فيحرقها · ولما قالت هذا نظرت الى رجال الحرس شذراً ثم حوَّلت ظهرها وانصرفت الى مخدعها

وما كاد الملك يدخل الى مخدعه ويتفرَّق رجال الحرس كلٌّ الى مكانه حتى جاء بوريس غودونوف فدخل عليه وهو يظهر انه يريد الاختلاء به لامر ذي بال · وكان لبوريس الحق في الدخول على الملك في اي وقت اراد نظراً لميل الملك اليهِ وثقتهِ به ولا سيما اذا كان مجيئه لمهام ضرورية

وكان في مخدع الملك سريران احدهما مؤلف من اخشاب عارية كان الملك ينام عليه في اوقات انفعالاته وندامته وهو يقصد بذلك تعذيب جسده ومعاقبة نفسه · والسرير الاخر كان حسن الوطاء مفروشاً بالصوف الناعم والوبر النادر والحرير والديباج وكان الملك يعمد اليه حينما يكون منشرح الصدر لا شيء يقلق افكاره او يزعج نفسه

وكان بوريس قد درس منذ زمان اخلاق الملك يوحنا الرابع فعرف كل

امارات وجههِ ودلائل ظواهره حتى لم يعد يخفى عليهِ شيءٌ من احواله واميالهِ وسرائره . ولذلك فلما دخل المخدع لم يشأ ان يبدأ حالاً بحديثه في الموضوع الذي جاء لاجله بل انتظر ريثما خلع الملك بعض اثوابهِ واستلقى على سريره الملوكي (وليس على الاخشاب) فسرَّ بوريس في داخله واستبشر بنجاح مسعاه وقال — هل علمتَ يا مولاي ان السجين الذي فرَّ من السجن قد وُجد الان ؟

فأجاب الملك وهو يتثاءب — واي سجين تعني ؟

قال — اعني الامير نيكيتا الذي هجم على الامير اثناسي الخائن وزُجَّ بسبب ذلك في السجن

قال — ومن ألقى عليه القبض ؟

قال — لا أحد يا سيدي وانما هو قد جاء بنفسه واحضر معه ايضاً جمهور اللصوص الذين حاربوا تحت امرتهِ في ولاية ريازان وطهروها من عيث التتر . وجميعهم الان ينتظرون اوامرك العلية

قال — وهل رأيت انت الامير نيكيتا ؟

قال — نعم رأيته يا سيدي فقد جاء اليَّ بالامس وسألني ان التمس له اذناً منك في المقابلة . اما انا فحالما رأيته أردتُ ان أقبض عليه ثم رجعت عن عزمي لانه جاء مختاراً لا مضطرًّا فلن يحاول الفرار

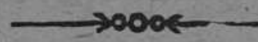
وكان بوريس يتكلم بدون ان يظهر عليه اقلُّ ارتباك كأنه لا يميل قط الى الامير نيكيتا . وهو لما شيعه بالامس ولم يخرج معه من ردهة الاستقبال لم يقصد بذلك ان يخفي هذا الامر عن الملك بل لأنهُ خشي ان يراه أحد من اخصاء البلاط فيشي به

ولما فرغ بوريس من كلامه تفرَّس في وجه الملك ليرى اي تأثير حاكه فيه فلم يرَ ولا امارة غيظ بل تحقق من بعض ملامح وجهه انه معجب بعزم الامير نيكيتا وبشدَّة اخلاصه . ولما طال به الانتظار والملك غائص في تأملاته قال له — فماذا تأمر اذًا يامولاي ؟ هل أَدعو اليك ماليوتا ؟

فانتبه الملك ورفع رأسه وقال — لا اخالك يا بوريس تزعم كباقي الناس

اني لا اقدر ان اعيش بدون اراقة دماء العباد . نعم اني قاس في احكامي ولكني مع هذا عادل ورحيم . فأرحم من يستحق الرحمة وأُعاقب من يستوجب العقاب . فنيكيتا مجرم امامي من عدة وجوه لانهُ لم يراعِ اوامري وقد استخف برجال حرسي وجافاهم وقتل منهم الى غير ذلك مما لا استطيع احتماله . ثم انهُ فرَّ من السجن . ولكني مع كل هذا ارى في نفسي عاطفة ميل نحو هذا الرجل لانه صادق في قوله ومخلص في دفاعه عن الوطن ولستُ أعلم الان كيف تكون نتيجة امره . فابعث من يستحضره برجاله اللصوص الى فناء القصر وانا بعد ان استيقظ من نومي أخرج اليهم وارى رأْيي فيهم

ولما فرغ الملك من كلامه نهض بوريس فحياه وانصرف



الفصل الرابع والتسعون

رضى الملك

ولم يبطئْ بوريس غودونوف ان أوفد رسولاً الى الامير نيكيتا يخبره بامر الملك . فقام نيكيتا للحال وسار برجاله حتى اذا وصلوا الى القصر وقفوا في فنائه ينتظرون . وليست هذه بالمرة الاولى التي عرف فيها اللصوص قرية الكسندروفا . فانهم قد جاءوا اليها قبل ذلك مرات عديدة بهيئات واحوال مختلفة فمنهم كمشعوذين ومنهم كفقراء ومتسولين ومنهم كمغنين وضاربين على آلات الطرب وغير ذلك . وقد كان منهم جمهور فيها حينما جاء بيرستن وكورشون لانقاذ الامير من السجن وهم الذين احرقوها ليهتم الاهلون والجنود بالحريق ويخلو الجو لبيرستن فينجو بالامير من غير ان يُشعر به كما سبق ذلك في حينه . ولم يكن الان بين هؤُلاء اللصوص جمهور غفير من مجموعهم فقد سقط بعضهم بحدّ الحسام في سهول ولاية ريازان في اثناء المعركة مع التتر . والبعض الآخر ابوا ان يتوبوا ويرجعوا الى الملك بل آثروا البقاء في البرية بزعامة خلوبكو . وكورشون قضي عليه في ذلك اليوم الرهيب . واما بيرستن فقد ترك قرية الكسندروفا حالاً بعد المبارزة

وانطلق الى جهات نهر ڤولغا يتبعهُ متى الشجاع

ولبث اللصوص ينتظرون في فناء القصر اكثر من ساعتين وهم لا يدرون ان الملك يراقب حركاتهم بعينهِ النقادة من كوّة صغيرة في مخدعهِ تطل عليهم . وكان الامير نيكيتا منفرداً عنهم في جهة اخرى وقد أمعن في الخيال فلم يعبأ بالخلق الكثير الذين وقفوا في الابواب يتفرّجون على رجاله . ومن جملة المتفرّجين كانت اونوفريڤنا حاضنة الملك فانها خرجت من مخدعها ووقفت الى جانب تتأمل هؤلاء الرجال وربما خطر لها ان تدافع عنهم اذا رأت من الملك قساوةً جديدة لانها كانت تميل الى الامير نيكيتا ولا تفضل عليه احداً من رجال القصر بالصفات الشريفة والاخلاق الكريمة

وكان الملك يراقب اللصوص من الكوة المذكورة وهو مسرور جداً لوقوفهم على تلك الحالة بين الموت والحياة فلما فرغ من ذلك خرج اليهم ومن حوله بعض رجال بطانتهِ . وحالما ابصره اللصوص جثوا كلهم الى الارض وحنوا رؤوسهم فوقف الملك يتأملهم وهو صامت بضع دقائق ثم حياهم والتفت الى الامير نيكيتا فقال — ما الذي ألجأك ان تعود الى هنا ? فهل أَلِفتَ السجن ?

فقال الامير — اعلم يا حضرة الملك اني لم اخرج من السجن الآ بالرغم عن ارادتي وقد جئتُ الان مع هؤلاء الرجال لاني رافقتهم الى ميدان الحرب حيث أبلوا البلاء الحسن فقهروا التتر وانقذوا ولاية ريازان من الخراب . وها نحن نحمل اليك رؤوسنا وانت مخير بين ان تعاقبنا او تعفو عنا

فقال الملك للصوص — فانتم اذاً الذين انقذتم الامير من السجن فمن اين تعرفونه ?

قالوا — انهُ انقذ زعيمنا من الموت في قرية ميدڤيدفكا وزعيمنا انقذه بدوره من السجن

فقال الملك للامير وهو يتبسم — في قرية ميدڤيدفكا ? نعم اني اذكر ذلك . فانتَ قد هجمتَ وقتئذٍ على متى خومياك ورجاله وجلدتموهم . ولقد صفحتُ لك ذلك الاثم غير انك ما لبثتَ ان هجمتَ على رجالي مرةً اخرى في منزل الشريف

موروزوف وأُلقيتَ بسبب ذلك في السجن

فاراد الامير نيكيتا ان يجاوب غير ان اونوفريقنا قاطعتهُ وقالت للملك — انت لا تذكر الأ السيئات والمآثم واما الحسنات والاعمال المجيدة فتغضي عنها . فالامير نيكيتا لم يجرِ في حياتهِ ما يستوجب العقاب بل كان ولم يزل أشرف جميع رجالك واكثرهم شهامةً واوفرهم اخلاصاً . والان لانهُ دافع عن البلاد والدين وقهر التتر وكسرهم شرَّ كسرة تريد ان تنتقم منهُ بدلاً من مكافأته ورفع رتبته

فنظر الملك شذراً الى حاضنته وقال — اخرسي فليس من شأنك ان ترشديني وتشيري عليَّ . ثم التفت الى اللصوص وقال — اين زعيمكم ? فليبرز من بينكم لأراه

فاجاب الامير نيكيتا -- ان زعيمهم ياسيدي قد تركهم حالاً بعد واقعة ريازان وانصرف الى حيث لا يعلمون

فقال الملك — يخيل لي ان زعيمهم هو رفيق اللص الشيخ وقد حضرا الى هنا كأنهما أعميان . فالشيخ أُمسك وأُعدم واما الزعيم ففاز بالنجاة . ولكني آمركم ايها الناس ان تبحثوا عنهُ وترفعوه عَلَى الخازوق

فقالت الحاضنة — انت تستوجب اكثر منهُ فسيرفعك الابالسة عَلَى خازوق عالٍ في العالم الاخر لتكون عبرةً لسواك

فاظهر الملك انهُ لم يسمع كلامها وقال للصوص — اما انتم فبما انكم اتيتم اليَّ باختياركم فانا ارحمكم واعفو عنكم . ثم امر الخدام ان يقدموا لهم خمسة براميل كبيرة من الشراب وسأل حاضنته — كيف رأيتِ عدلي ايتها العجوز الشمطآء ?

فنظرت اليه ولم تتكلم . اما اللصوص فصاحوا بصوت واحد : ليحيَ الملك ابد الدهر

فقال الملك للخدام — وقدموا ايضاً لكل واحد منهم بِذلةً عسكرية فاخرة فاني اريد ان اجعلهم من جملة رجال الحرس . ثم التفت الى اللصوص وقال — فهل تريدون ان تكونوا من جملة حرسي ?

فارتبك اللصوص في امرهم وقال اكثرهم — أطال الله عمر مولانا الملك انا

نريد ان نخدمك كيفما أَردت

فقال الملك للامير نيكيتا — ماذا تظن هل يصلح هؤلاء الرجال للجندية ؟

قال — نعم يا سيدي انهم يصلحون لذلك ولكن لا تجعلهم في سلك الحراس

فظن الملك عند سماعه ذلك ان الامير يحسب اللصوص غير اهل لهذه النعمة فقال — اذا صفحتُ عن أحد وأردتُ مكافأته فلستُ اكافئهُ نصف مكافأة بل مكافأة تامة

فقال الامير — واي مكافأة هنا ايها الملك ؟

فبهت الملك ونظر الى الامير بمنتهى الدهشة وقال — وما معنى هذا الكلام ؟

قال — انهم يا حضرة الملك قد قاموا بعمل مجيد للغاية ولولا قوة سواعدهم لاستولى التتر على ولاية ريازان بأسرها

قال — فلماذا اذاً تمنع عنهم شرف الانخراط في سلك رجال الحرس ؟

فاجاب الامير برباطة جأش — لانهم يامولاي ولئن كانوا لصوصاً واشراراً ولكنهم مع هذا يفوقون رجال الحرس بكثير من الصفات الطيبة والمزايا المحمودة

ولم يكن الملك ينتظر مثل هذا الجواب من الامير ولم يدرِ كيف يعاملهُ على ذلك وقد تذكر ان الامير لا يقدر ان يخفي شيئاً مما يجول في افكاره وانهُ يؤثر الصدق على المراوغة والتحيل فانهُ في اول مقابلته له بعد عودته من بلاد ليتفا قد حكم عليه بالاعدام لمجرد اقراره الصادق . ثم أُلقي بعد ذلك في السجن . ومع انهُ أُخرج منهُ فقد عاد الان وهو يعلم انهُ من المحكوم عليهم بالموت



الفصل الخامس والستون

خادم الامير

وبينما كان الملك يتأمل كل ذلك استوقف نظره مشهد آخر . وذلك انهُ رأى رجلاً غريباً عمره نحو الستين قد اخترق جماعة اللصوص ساعياً نحو الامير

نيكيتا حتى اذا اقترب منهُ مدَّ يده خفيةً ليمسك طرف ثوبه وهو يحاذر ان يراه الملك ورجاله . فلما ابصره الملك قال — تُرى من هذا الرجل الغريب الذي اندسَّ في وسط اللصوص ؟ اما الرجل المذكور فما سمع كلام الملك حتى أسرع واختفى بين الجمهور . فقال الملك للصوص — تنحوا عنهُ الى الجانبين لاني اريد ان اعرفه . وما كاد اللصوص يتنحون حتى بادر بعض رجال الحرس الى الجهة التي اشار اليها الملك وسحبوا الرجل . فحدَّق فيه الملك وقال — من انت يا هذا ؟ وكان الامير نيكيتا عندما رأى الرجل قد عرف انهُ خادمهُ ميخيتش فقال للملك — هو خادمي يا مولاي وقد مضت عليه مدة ولم يَرَني . وللحال انحلت عقدة لسان ميخيتش فقال — نعم يا سيدي الملك فهو سيدي الحبيب واني منذ قبض عليه في بيت الشريف موروزوف لم اعد اراه فكنت اتنسم اخباره مع كل ريح الى ان بلغني اليوم انهُ في القرية فبادرتُ لاراه وانا احمد الله عَلَى نجاته وسلامته . فقال الملك وهو مرتاب في صحة ما سمعه — فماذا أردتَ ان تقول له الان ؟ ولماذا اختبأتَ وراء اللصوص . قال -- لاني خفتُ رجالك ايها الملك لانهم قوم ... ولم يتمَّ كلامه . فقال الملك — تمم حديثك ايها الشيخ . انهم اي قوم ؟ فنظر ميخيتش الى وجه الملك فرأى امائر الدعة والحلم فتشجع وقال — انهم قوم اشرار لم نرَ مثلهم قط ولم يسمع اجدادنا بمثل هذه الشرور والموبقات التي يجرونها في طول البلاد وعرضها . فدهش الملك لما رأى ان الخادم مثال سيده في المبادىء وحرية الضمير ووقف يتأمله . فقالت له حاضنته — ما بالك ترمقه بهذا النظر المخيف ؟ اولم يتكلم بالصدق ؟ فهل رأى الاهلون منذ اقدم الازمنة حتى الان عصابةً شريرةً كحراسك ؟ واذ سمع ميخيتش كلامها ازداد جرأةً وقال — لا فضَّ فوك يا سيدتي فان الشرَّ لم يظهر في روسيا الاَّ بظهور هؤلاء الناس فهذا سيدي لم يرَ بسببهم هناءً ولا ساعة واحدة من حين رجوعه من ميدان الحرب في بلاد ليتفا حتى الان . فكم وشاية قدَّموا عليه لجلالة الملك وهو مع ذلك انقى من الثلج واصفى من البلور . فلما سمع الملك كلام حاضنته وخادم الامير نظر الى كلٍّ منهما وهو يكاد يتميز غيظاً غير انهُ ما عتم ان عاد الى سروره وقد أضمر ان ينتقم فقط من حاضنته

فقال لميخيتش — فاذاً انت لا تحب رجال الحرس ؟ قال — نعم يا سيدي لا احبهم ولا اظن ان احداً غيري يحبهم ولولاهم لكان سيدي الان أقرب المقربين اليك واشهر رجال بلاطك · فدهش الملك وقال للامير — ان خادمك نادر المثال وليس لديَّ احدٌ من رجالي يخلص لي المحبة كما يخلصها لك · فهل له في خدمتك زمن طويل ؟ فقال ميخيتش عن مولاه وهو يزدهي تيهاً وإعجاباً بنفسه — اني خدمته يامولاي منذ اول حداثته وهكذا خدمتُ اباه من قبله وأبي خدم جده ولو انَّ لي اولاداً لكانوا يقومون بخدمة اولاده · فقال الملك — أفلم يكن عندك اولاد ؟ فاجاب وهو يتنهد — بلى فقد كان لي ابنان ولكن الله قد شاء فنقلهما اليه فانهما قتلا في الحرب تحت امرة سيدي الامير احدهما سقط بحد الحسام والآخر اخترق صدره سهم من سهام العدو · وكان الملك يسمع ويهزُّ رأسه كأنهُ مشارك لميخيتش في حزنه عَلَى ولديه ثم قال له — اذا فقدتَ ولديكَ فيمكنك ان تُرزق غيرهما لان الله رحيم · قال — لا يمكن ذلك فقد فقدتُ ايضاً امرأتي فهل أُرزق اولاداً من كمي ؟ فضحك الملك وقال — الله يرزقك امرأة اخرى فلا تيأس · قال — وهذا مستحيل ايضاً لاني مسنٌ ضعيف فلن ترضى بمثلي واحدة من النساء · فدنا الملك من حاضنته وأمسكها بيدها ثم نظر الى ميخيتش وقال له — اني اهبك هذه الحسناء لتكون زوجةً لك فخذها وعش وإياها عَلَى تمام الوفاق والمحبة وهي تلد لك اولاداً صالحين · فلما سمع رجال الحرس هذا الكلام فهموا مراد الملك فضحكوا ضحكاً عالياً · اما اونوفريقنا فانتفخت اوداجها وصاحت بالملك — اصمت يا رفيق الابالسة ونديم الاشرار · وهل بلغت منك القحة حتى تهزأ بي بمثل هذا الكلام البذيء ؟ فقال لها الملك — حسبكِ غنجاً ودلالاً فان هذا الشيخ سيكون لكِ نعم القرين وسيحبكِ ويرشدكِ الى الصراط القويم اما العرس فسنحتفل بهِ اليوم مساءً · ثم التفت الى ميخيتش وقال كيف ترى هذه العروس ؟ فاجاب ميخيتش وهو في اشد حالات الاضطراب والاندهاش — رحماك يا سيدي ! قال — ما بالك ؟ ألعلها لم ترضك ؟ فستكون بائنتها (دوطتها) كبيرة تسترعيوبها · فجثا ميخيتش عَلَى الارض وقال — مولاي

ارسلني حالاً الى المشنقة ولا تعطني هذه العجوز لاني لن اقبل بهذا العار ٠

فقهقه الملك حتى كاد يستلقي على قفاه ثم قال لميخيتش — لقد اردتُ بزفاف هذه الحسناء اليك سعادتك وهناءك اما انت فأبيتَ فابقَ اذاً لدى سيدك اخدمه واعتنِ بهِ واما انتِ (قال الملك لحاضنته) فلا تقنطي فسنجد لكِ عريساً آخر ٠ ثم تركها فانصرفت الى مخدعها وهي تشتم وتلعن



الفصل السادس والتسعون

﴿ الامير بازاء الملك ﴾

كان الامير نيكيتا يسمع حديث الملك ومزاحه وهو في اشدّ حالات الذهول والكمد يندب في نفسه حالة روسيا وسوء مصيرها على عهد هذا الملك الغاشم الجاهل الذي لا يهمهُ من شؤُون البلاد واحوال الرعية شيء سوى الملاهي والمجون وضروب الخلاعة والبذاءة والظلم فتنهد طويلاً وكادت دموعه تنفجر من مقلتيه لولا ان الملك ناداه اليه وقال له — والان فانا أعفو عنك ايها الامير لانك كفرت عن جريمتك بحسن دفاعك عن البلاد اما هؤلاء الرجال (يعني اللصوص) فلا أُعينهم في جملة الحراس لئلا اضرم نار الغيرة في صدور رجالي فلينضموا الى جيش الحدود ٠ ثم ألقى يده على كتف الامير وقال له بصوت كله لطف ودعة — واما انتَ فابقَ هنا لاني اريد ان اصالحك مع الحراس وأجعلك واحداً من الزعماء الكبار ٠ نعم انك قهرتَ التتر واشتهرتَ في ميادين الوغى مع غيرهم غير ان لي من نفس رعيتي اعداءً آخرين يتآمرون عليّ فأُريد ان اعتمد عليك وافوّض اليك البحث عن هذه الافاعي لقطع رؤُوسها

فلما سمع الامير هذا الكلام تقبض واراد ان يتكلم فقاطعهُ الملك بقولهِ — انا اعلم انك صادق الطوية شريف النية لا تعرف المراوغة والمداهنة واني في امسّ الحاجة الى امثالك فاكتتب في سلك رجال الحرس وتقلد منصب الامير اثناسي ڤياز يمسكي واعلم اني واثق بك متأكد انك لن تخونني

وكان رجال الحرس الواقفون بالقرب من الملك قد امتلأوا حسداً من الامير و بغضاً له لعلمهم بما كان متصفاً به من حرية المبادىء و بديع الصفات نخافوا ان هو اصبح زعيمهم لا يلبث ان يضرب عَلَى ايديهم الاثيمة و يكبح جماح شرورهم ومفاسدهم . اما الامير فلم ترق له دعوة الملك لانهُ لا يقدر ان يتظاهر بما ليس في قلبه ولذلك قال له بثبات جأش — اشكر نعمتك يا حضرة الملك واتمنى من لباب قلبي ان اخدمك كيفما اردتَ فما عليك سوى الامر وما عليَّ سوى الطاعة ولو بسفك دمي غير اني لم اعتد معيشة البلاط بين رجال الحرس فأبتهل اليك ان تعفيني منها وتأذن لي بالانضمام الى جيش الحدود لعلي اتمكن هناك من القيام بخدمة انفع لجلالتك وللبلاد . ولم يكن الملك يتوقع ان يسمع مثل هذا الكلام فرفع يده عن كتف الامير وقال له بازدراء — الظاهر انك تؤثر البقاء مع اللصوص عَلَى المعيشة في البلاط فانت حرٌّ مطلق وانا لا اريد ان أُرغمك عَلَى ذلك لانك قد اعتدتَ معيشة اللصوصية فلم تعد تروق لك المعيشة في قصور الملوك وعليه فمن صميم القلب اتمنى لك سفراً سعيداً يا قائد اللصوص . ولما قال ذلك ارسل الى الامير نظراً حاداً جداً ثم حوَّل ظهره ودخل القصر

وكان بوريس غودونوف واقفاً يسمع كلام الملك واجوبة الامير و يتعجب . فلما انتهت الحادثة وانصرف تقدم الى الامير ودعاه ليبيت عنده تلك الليلة وقد فعل ذلك هذه المرة عن حب اكيد له لانهُ اعتبره فوق كل انسان نظراً لصفاء سريرته و بعدهِ عن كل تدليس ومداهنة فوعده نيكيتا بالمجيء اليه عند المساء ثم انصرف برجاله الى حيث دبر شؤونهم وتركهم وتوجه الى بيت ماليوتا حيث واجه والدة اخيه مكسيم قيماً بوعده له قبيل موته . ولم يكن ماليوتا اذ ذاك في البيت فلبث عند زوجته بعض الوقت يعيد معها ذكرى حبيبه واخيه مكسيم . وكانت الوالدة المسكينة قد علمت بموت ابنها قبل مجيء الامير اليها ولكنها لما علمت الان بمؤاخاته لمكسيم قامت فقبلتهُ وباركتهُ وهي تبكي . و بعد قليل اعطاها الامير صليب مكسيم ثم قام فودَّعها وانصرف وهي تدعو له وتباركهُ

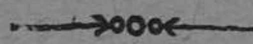
الفصل السابع والتسعون

في منزل بوريس

وفي المساء ذهب الامير ومعهُ خادمه ميخيتش الى منزل بوريس غودونوف حيث استُقبل بغاية الترحاب والبشاشة . وبعد مناولة طعام العشاء قام الامير فدخل الغرفة المعدة لمبيته وانصرف بوريس لبعض شؤُونه . وبعد قليل دخل ميخيتش عَلَى سيده وأخبره بالتفصيل عما جرى له بعد خراب قصر الشريف موروزوف وذكر له محادثته مع الطحان ومع الزعيم بيرستن الى ان قال — فلما وعدني بيرستن بالمساعدة عدت الى الطحان فوجدتُ عنده السيدة هيلانة زوجة الشريف موروزوف وحالما رأتني عرفتني فاستأنست بي كثيراً وسألتني ان اصحبها الى الضيعة التي حُمل اليها زوجها بعد دمار منزله فوعدتها خيراً ثم قمتُ فركبت جوادي وركبت هي جواداً آخر وسرنا في الطريق المؤدية الى ضيعة الشريف . وفي اثناء ذلك سألتني عن زوجها ثم عنك فسردتُ لها تفاصيل دفاعك المجيد عنها وعن زوجها وانك انما بسببها قد أُوثقتَ وأُودعت السجن فلما وعت كلامي امتقعت واستخرطت في البكاء فطيبت خاطرها وقلت لها — ان الله سينقذه لا محالة واخبرتها عن التدابير التي اتخذتها لاجل ذلك .

وبعد ان سرنا مسافةً طويلة وقد اشرفنا عَلَى ضيعة الشريف توقفت فجأَةً وقالت — اني يا عماه لا أستطيع ان أدخل الضيعة واجتمع بزوجي . فسألتها وقد تحققتُ انها لا تحبه بل تحبك وتحيا بك — فماذا اذاً تريدين ؟ اجابت — هل ترى تلك الصلبان الذهبية الظاهرة من وراء الحرش ؟ قلت — نعم فان هناك ديراً للبنات . قالت — خذني الى هناك فذلك خيرٌ لي وافضل . قلت — وكيف ذلك ؟ فهل انتِ تريدين الترهب ؟ قالت — كلا وانما أُريد ان أبقى في الدير اسبوعاً اقضيه في الصلاة والعبادة ثم أعود الى زوجي او هل يرسل فيطلبني فأجبتها الى سؤالها وسرنا في طريق الدير حتى اذا انتهينا اليه سلمتها الى الرئيسة عودتُ ادراجي

وكان الامير يسمع بمنتهى الاصغاء . فلما فرغ خادمه تنهد وبدت عليه امائر الانقباض والخوف فقال — وكم يوماً الى دير البنات ؟ فاجاب ميخيتش — نحو ثلاثة ايام من هنا ومع هذا فهو طريقنا اذا كنت عازماً على السفر الى حيث اشار الملك . قال — بما اني مضطر الى البقاء هنا صباح الغد ايضاً لانهُ ينبغي لرجالي ان يحلفوا يمين الطاعة للملك فاطلب منك ان تقوم هذه الليلة من هنا فتسافر بما يمكنك من السرعة الى الدير ومتى بلغتهُ واجه هيلانة وقل لها ان لا تجري شيئاً قبل مشاهدتي لاني موافيها الى هناك . قال — السمع والطاعة يا مولاي فسأفعل ذلك بكل سرعة ولكن كن على ثقة بان هيلانة تنتظرك فهي لا تترهب قبل ان تشاهدك . نعم انها ستقضي في الدير بعض الوقت ايضاً قياماً بواجب الحداد على زوجها ولكنها بعد ذلك ستخرج وليس لها من الدنيا سواك . قال هذا وخرج من المنزل وهو يتأهب للمسير . ولم يكن الاّ القليل حتى امتطى صهوة جواده واعمل في خاصرتيه المهماز وراح ينهب الارض ووجهتهُ دير البنات . ولبث الامير بعد سفر خادمه جالساً في الغرفة وافكاره سابحة في عالم الغيب وهو تارة يمشي ذهاباً واياباً وطوراً يجلس او يضطجع متأملاً في حالته وغموض مستقبله . وقضى غابر الملك الليلة الى صباحها وهو لم ينم لشدة ما اخذه من الهواجس والخواطر . ولما اصبح خرج من الغرفة يريد مواجهة صديقه بوريس . فأخبره بعض الخدم ان سيدهم قد انطلق حسب العادة الى القصر ليسمع صلاة السحر مع الملك وحاشيته . فدخل الامير ردهة الاستقبال وجلس ينتظر رجوعه



الفصل الثامن والتسعون

﴿ تبادل افكار ﴾

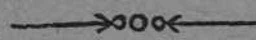
وبعد قليل عاد بوريس فحيا الامير وهو يظهر تعجبه لنهوضه في مثل هذا الوقت من الصباح مع ان عادة الاشراف والامراء ان يستيقظوا بعد شروق الشمس بكثير . ولكنه تبسم كأنه يقول للامير « اني أعرف سبب أرقك » .

ثم جلس الاثنان يتحادثان في شؤون مختلفة حتى استطردا الى ذكر الشريف موروزوف وزوجته . فتيقن الامير من خلال حديث صديقه انه مطلع عَلَى اسرار قلبه فكشف له في الحال المخاوف التي طرأت عليه تلك الليلة . فطمأنه بوريس وقال — ان حبك لهيلانة لم يخفَ عليَّ من مدة طويلة بل اني عرفت ذلك حين قدومك من بلاد ليتڤا يوم دعاك الملك الى مائدته فقد كنت في اثناء الوليمة تنظر الى الامير اثناسي ڤياز يمسكي نظرًا حادًّا كأنك تريد ان تأكله ، فأنت ايها الامير لا تعرف ان تكتم شيئًا في قلبك ، بل كل ما يخالج فكرك يرتسم عَلَى وجهك حالاً ، ولما سمعتُ بالامس محادثتك للملك امتلأْت رعبًا عليك لانك تخاطب الملك كأنهُ واحد من امثالك او ممن هم دونك رتبةً ومقامًا فلا تخاف احداً ولا تحاذر شيئًا . فقال الامير — وكيف تريد ان اجاوبه ؟ قال — كان الاجدر بك ان تشكره على انعامه وترضى باختياره اياك زعيمًا لرجال الحرس . قال — اخالك تمزح يا بوريس ! فكيف لي ان اشكر الملك على ذلك وانا اكره هذه العصابة كرهًا شديداً . ولماذا انت لحد الان لم تدخل في هذا السلك مع ان الملك يحبك ويعتبرك ؟ قال — انا اعرف كيف اعمل ، فأنا لا أعترض الملك في شيء وعَلَى الدوام أُظهر له اخلاصي وشكري ولم أتعدَّ قط شيئًا من رسومه واشاراته ، فهو راضٍ بي عَلَى هذه الصورة ولم يرد ان يختارني لاكون في جملة زعماء الحراس ، اما انت فلو رضيت بهذه الرتبة وصرت من اقرب المقرَّبين الى الملك لأجرينا كلانا من الاعمال المجيدة ما يعود عَلَى الوطن والامة باعظم اسباب النجاح والعمران ، واما فرقة رجال الحرس التي انت تكرهها فيمكننا ايضًا مع الايام ملاشاتها تمامًا عن وجه الارض . قال — هو كما تقول يا صديقي غير اني مع هذا لا أستطيع ان أُسخر حاسياتي وأتظاهر بما لا اشعر به . قال — نعم لانك لا تريد ان تعوّد نفسك هذه العادة المفيدة في احوال كثيرة ، لا سيما في هذه الاحوال الحاضرة ، فأنا هنا وحدي اشتغل واجتهد بدون فائدة تذكر ، فلو انضممتَ انت اليَّ لتضاعفت القوة وأنتجت فوائد خطيرة ، فأنت رجل خلقتَ للاصلاح ولكنك تجهل السبل المؤدية الى ذلك ، انت ترى الاعوجاج فتريد

ان تقاومه وجهاً لوجه وتضربه الضربة القاضية ، غير ان ذلك لا يفيد بل يزيد الشرّ تفاقماً وخطباً . قال — انا لا أصلح للحالة التي تنتدبني اليها ولست اقدر ان اتظاهر بغير مظهري الحقيقي ، ولا اكتمك اني كنتُ الومك في نفسي لتظاهرك بعض الاحيان بغير ما تضمر ، اما الان فصرتُ اعتبر ذلك منك اسلوباً مفيداً فعساك ان تبلغ يوماً ما الغاية التي ترمي اليها من الاصلاح الحقيقي ، واما من جهتي فقد قضي الامر لاني استأذنت الملك ان يرسلني الى جيش الحدود فاجاب طلبي . قال — هذا لا يضرُّ اذا كنتَ تريد ان تنهج خطتي وتسير واياي يداً واحدةً ، فبعد ان تقيم في تلك الجهات بعض الوقت وتشتهر ولو بمعركة واحدة كاشتهارك في سائر المعارك الاخر فيمكنك ان ترجع الى هنا فيعرض عليك الملك مرةً ثانيةً الدخول في سلك فرقة الحرّاس ويقلدك رتبة الزعامة فيها فاذ ذاك ينبغي لك ان لا ترفض طلبه ، اما هيلانة فتكون الى ذلك الوقت قد أتمت المدة القانونية للترمل فتخرج من الدير وتصير اليك ، فلا تخشَ ان تترهب لاني اعرف قلب النساء اكثر منك ، فهي لم تقترن بالشريف موروزوف لمجرّد حبها له بل لانها كانت تخشى الوقوع في الاشراك الكثيرة التي نُصبت لها في مدة غيابك عن الوطن ، فهي اذاً تحيا بك وقد وقفت لك قلبها وليس فيه الاّ صورتك ، فدعها الان تبقى في الدير الى ان يبرد الدم وتجفّ الدمعة . فقال الامير وقد ابرق في عينيه نور الامل بحصوله عَلَى هيلانة — أشكر مودتك ايها الصديق واسأل الله ان يقدرني عَلَى مكافأتك بشيءٍ من الخدم المهمة ، اما الى فرقة رجال الحرس فلا تدعني وفي بلاط الملك لا تتأمل ان اكون لاني لا أُريد ان أتفرّغ من ذمتي وضميري ولستُ اقدر ان اتعلم اساليبك اذ لكل في هذه الدنيا دعوته ومواهبه فللصقر نوع من الطيران وللاوز نوع آخر

قال — فأنت اذا لا تنكر عليّ بعد هذا اعمالي واساليبي حبًّا الى المنفعة العامة . قال — حاشا ان انكر عليك شيئًا او الومك في شيء لانك قد اصطنعت من المعروف لي ولرجالي ما يفوق الحصر فهم سيذكرونك بهذه اليد البيضاء اينما كانوا ، وثق ايها الصديق بان اسمك قد صار مُطرءًا من جميع الافواه وان

الامة باسرها تحبك وتثق بك وترجو على يدك خيراً فكن انت عند رجائها والله يعضدك و يوفقك الى كل ما فيه المصلحة العامة . . فأبرقت اسرة بوريس وتورد وجهه لان اقتناع رجل كالامير نيكيتا بحسن أعماله وأصالة رأيه كان عنده كثير الاهمية (١) فقال — وانا اشكرك ايضاً ايها الامير لحسن ظنك بي ، والذي ارجوه منك هو انك اذا سمعت احداً من الناس ينسب الي ما انا براء منه ان تتصدى لتسفيه رأيه واقناعه ببطلان زعمه وتوضح له ما تعرفه عني وما اختبرته بنفسك . قال — اني لن اغفل عن ذلك ما دمتُ في قيد الحياة فلن أدع احداً يفتكر بك سوءًا او يقول عنك كلمة مجحفة وليس انا وحدي بل جميع رجالي سيتحدثون بجميل اعمالك وشريف مآتيك وسيعطرون كل نادٍ باسمك الكريم قال — ليكن الله معك ويحفظك من كل شر واسألك ان تدعوني لحضور حفلة عرسك ولا تنسني . . ثم نهض الصديقان فتعانقا وخرج الامير من منزل بوريس وهو يرجو ان يكون صديقه مصيباً في رأيه بعدم ترهب هيلانة



الفصل التاسع والتسعون

﴿ الخروج من قرية الملك ﴾

و بادر الامير نيكيتا فجمع رجاله وذهب بهم الى قصر الملك حيث حلفوا له يمين الطاعة والاخلاص . فأعطاهم الملك من بيت الذخيرة الاسلحة اللازمة وامر فرقة من الخيالة ان ترافق الامير وتكون تحت امرته ثم صرفهم . فسار الامير يتبعه الفرسان ووراءهم اللصوص باثوابهم الجديدة واسلحتهم الكاملة . وقبل ان يخرجوا من القرية رأوا مشهداً كان يعدُّ في ذلك الزمان شؤماً . وذلك انهم لما صاروا بالقرب من احدى الكنائس اعترضهم في الطريق جمهور من الفقراء كانوا يتزاحمون عند فسحة الكنيسة بانتظار خروج احد كبار الاغنياء ليوزع

(١) وهذا بوريس غودونوف قد صار بعد وفاة الملك يوحنا الرابع وابنه ثيودور ملكا في روسيا

عليهم الصدقات · فاضطر الامير وجيشه ان يسيروا بكل بطء ليتمكنوا من المرور فسمعوا اصوات نشيد محزن في الكنيسة فسأل الامير عن ذلك فقيل له ان ماليوتا يقيم حفلة جناز عن نفس ابنه مكسيم الذي قتله التتر في جهات ريازان · فوقف الامير وقد تقبض صدره فسمع فجأة صياحاً شديداً ولم يلبث ان رأى بعض الناس يحملون من الكنيسة عجوزاً فاقدة الرشد فتأملها واذا هي ام اخيه مكسيم فتأثر لمرآها على تلك الحالة · وفيما هو كذلك وقف في باب الكنيسة ماليوتا نفسهُ وقد التقت عيناهُ بعيني الامير غير انه كان هذه المرة وديعاً حزيناً ولم تظهر على وجهه شراسته الطبيعية وهو بعد ان امر بوضع العجوز في فسحة الكنيسة عاد فدخل ليسمع تتمة الجناز · اما الامير ورجاله فرفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم وساروا في طريقهم بازاء الكنيسة بتمام الخشوع · وظل الامير متأثراً مما سمع ورأى مسافة طويلة الى ان عادت الى مخيلته ذكرى هيلانة · ولما وصل الى آخر مكان يشرف على قرية الكسندروفا وقف وارسل نظراً اخيراً اليها ثم حول ظهره ودخل في الحرش وقد شعر براحة تامة كانه كان يحمل على ظهره في تلك الجهات جبالاً من حديد والان وقد غادرها شعر ان تلك الجبال قد سقطت عن ظهره ·· ولما اقبل الصباح كان الامير نيكيتا سائراً في طريق موسكو راكباً جواداً مطهماً بعدته الكاملة ووراءه فرسانه ورجاله بتمام النظام والترتيب وامامهُ بويان كلب اخيه مكسيم يطفر فرحاً ويقف في بعض الاحيان فيرهف اذنيه ثم يعود الى مسيره · وبعد يومين وصل الامير برجاله الى مكان تسير منهُ طريقان الواحدة ينبغي له ان يسلكها والثانية تؤدي الى دير البنات · وكانت الشمس قد غابت واقبل الظلام فأمر رجاله ان يبيتوا هناك وسار هو بسرعة البرق في ذلك الليل الدامس ليقابل خادمه ميخيتش ولسان حاله يقول:

أسرب القطا هل من يعير جناحهُ لعلي الى من قد هويتُ اطيرُ

وقد سار الامير على تلك الحالة ونظرهُ موجه الى كل جهة يخترق الظلام وافكاره تائهة في مهامه الخوف وهو يحسب حسابات شتى · حتى اذا اقبل الفجر ابصر خادمه جالساً على قارعة الطريق وجواده بازائه يلهث تعباً · فلما رأى ميخيتش سيده

مقبلاً وثب عَلَى رجليهِ ووقف في طريقهِ وهو يقول — قف يا مولاي وعُد من حيث اتيت فلا لزوم لك ان تصل الى الدير اذ ليس لك فيه حاجة · فصاح الامير وقد جمد الدم في عروقه — ماذا تقول ؟ وماذا جرى ؟ قال — قد تمَّ كل شيء يامولاي وليس لنا حظ بالسعادة · فلما سمع الامير ذلك شعر كأنَّ روحه قد اختطفت من بين تراقيه وسقط عَلَى الارض خائر القوى · ولما عاد اليه روعه قال لميخيتش — اخبرني ماذا جرى لهيلانة ؟ فهزَّ ميخيتش رأسهُ وسكت وكانت دموعه تهطل عَلَى خديه · فازداد الامير ارتعاداً وقال — بالله لا تعذّبني ياميخيتش بل قل لي ماذا حدث لهيلانة ؟ قال — ان هيلانة يا سيدي قد تركت الدنيا وصارت الان « الاخت افدوكيا » · وكان الامير كمن يسمع الحكم عليه بالاعدام غير انهُ تجلَّد وقال — أخبرني بالتفصيل متى ترهبت هيلانة ؟ قال — حينما بلغها خبر مقتل زوجها لان الملك نفسهُ ارسل الى الدير رقعةً باسماء المقتولين لاجل اقامة الصلوات عن انفسهم · قال — وهل رأيتها انت ؟ قال — نعم رأيتها · واراد الامير الكلام فلم يقدر · فقال ميخيتش — رايتها لحظةً فقط لانها لا تريد ان تقابل احداً وقد كادت ترفض مقابلتي ايضاً · قال — ماذا امرتك ان تقول لي ؟ قال — قالت ان اخبرك لكي تصلي لاجلها وان لا تحاول مشاهدتها بعد · قال ثم ماذا ؟ قال — لا شيء ياسيدي · قال قدني الى الدير يا ميخيتش فاني أُريد ان اراها واودّعها · قال — لا حاجة الى ذلك يا سيدي فلا تزعجها في خلوتها لانها قديسة الان والافضل ان نعود الى الجيش ونواصل مسيرنا · قال — لا اقدر بل اريد مقابلتها · فلما رأى ميخيتش ان الممانعة لا تجدي نفعاً قال — ليكن ما تريد يا مولاي · ثم ركب كلٌّ منهما جواده وسارا في طريق الدير صامتين هاجسين

الفصل المئة

زيارة الدير

مرَّت عليهما ساعات وهما لا يزالان صامتين . فلما كان الصباح مرَّا بجانب نهر وابصرا بقربه حجر طاحون وانقاض بناء فقال ميخيتش — أتعرف ياسيدي هذا المكان ؟ فرفع الامير رأسه وقال — اظن ان هناموضع المطحنة . قال — نعم وقد هدمها رجال الحرس بعد ان اغتالوا الطحان الساحر زاعمين ان هنا كنزاً كبيراً ولكنهم لم يجدوا شيئاً . فلم يجبه الامير بشيء لان افكاره كانت مشتغلة بما هو اهمُّ من ذلك . ولما تناصف النهار قال ميخيتش لسيده — قد كدنا نصل فها هي قباب الدير قد ظهرت من وراء الحرش ولم يبقَ لنا الاَّ مسافة قصيرة . وما قرعت هذه الكلمات اذنيِ الامير حتى شعر بقوة كهربائية اصابه مجراها فاهتزَّ لها جسمه وشعر ان عينيهِ تودَّان الخروج من وجههِ لتطيرا الى الجهة التي اشار اليها خادمه ولم يُعد يستطيع تحويل نظره عنها . وهو وخادمه يحثان الجوادين بكل قوتهما حتى تصبَّب العرق منهما وكادا يسقطان تحتهما عياءً . ولم يكن الاَّ ساعة من الزمن حتى وصلا الى الباب الخارجي للدير . فترجلا عن جواديهما وقرعا الباب قرعاً عنيفاً ووقفا ينتظران وهما عَلَى مثل الجمر . فسمعا من وراء الباب خطواً ثم فتح الباب وظهرت فيه راهبة فحيتهما وقالت — من تريدان ياسيديَّ ؟ فقال ميخيتش — نريد الاخت افدوكيا وانتِ تعرفيني ايتها الاخت الصالحة فقد كنتُ هنا اول امس . قالت — كلاَّ لا اعرفك لاني لم اصر بوَّابة الاَّ في هذا النهار وقد كانت قبلي الاخت اغنس . فقال ميخيتش — نرجو منكِ اذاً ان تخبري حضرة الرئيسة بان الامير نيكيتا سيريبرياني قد جاء الان وهو يريد مواجهتها . فأقفلت الراهبة الباب ودخلت وبقي الفارسان خارجاً ينتظران وقد سمعاها تقول « يا الله ارحمنا » . فتعجب ميخيتش ونظر الى سيده فرأى وجهه مخيفاً هائلاً وقد ارتسمت عليه دلائل الاضطراب الشديد فادرك سبب خوف الراهبة . وان هو لكذلك عادت الراهبة وقالت من وراء الباب بصوت الخائف

المذعور — عفواً يا سيدي فان حضرة الرئيسة لا تستطيع قبولكما وهي تسألكما باسم الرب ان تبتعدا من هنا وان شئتما فتعالا غداً . فصاح الامير — لا اقدر ان انتظر الى الغد . ثم دفع الباب فكسره ودخل وقد ازدادت هيئتهُ رعباً . وما كاد يدخل حتى ابصر امامه الرئيسة ووجهها اصفر كأنها احد الاموات . فقالت له وهي ترتجف من الخوف — استحلفك بالله ان تقف فانا اعلم سبب مجيئك الى هنا غير ان الله عادل وهو ينتقم للابرار . فعد من حيث اتيت ولا تسخط الله . . فلم يدرك الامير سبب خوفها وقال لها — ايتها الام الشريفة اسمحي لي فقط ان اقابل الاخت افدوكيا وقتاً قصيراً جداً لاني اريد ان اودعها وانصرف لشأني قالت — وهل تريد فقط ان تودعها وليس لك عزم آخر ؟ قال — نعم اني اريد ان اراها وأُودعها ولكِ مني في مقابلة ذلك كل ثروتي وما املك . فقالت له وهي غير مصدقة كلامه — انك كسرتَ باب الدير ودخلت الى هنا بالرغم عن توسلاتنا وانا اعلم ان رجال الحرس امثالك يطوفون الان عَلَى الاديار المقدسة بقصد اغتيال نساء وبنات الابرار الذين حكم عليهم بالاعدام في موسكو . والاخت افدوكيا هي زوجة احد هؤلاء المنكودي الحظ . قال — انا لستُ حارساً كما تزعمين بل انا عدوٌّ هذه الفرقة الشيطانية ولو استطعتُ لجدتُ بروحي فداءً عن الشريف موروزوف زوج هـذه المخلوقة . فاسمحي لي اذاً بمقابلتها . فنظرت الرئيسة الى الامير فرأت علامات الشرف والمروءة بادية عَلَى وجهه وقرأت في عينيه دلائل الصدق والاخلاص فقالت — اني وثقت بكلامك ولم اعد اخشى شراً فاتبعني وانا اقودك الى موضع الاخت افدوكيا



الفصل المئة والواحد

آخر نظرة

ثم سارت الرئيسة بين صفين من اشجار الحديقة والامير يتبعها صامتاً حزيناً . وكانت هيلانة (الاخت افدوكيا) ساعتئذٍ جالسة عَلَى مقعد خشبي في اقصى

مكان من الحديقة وقد ارتدت ثوباً اسود وسترت وجهها بلثام ولم تكن تعلم شيئاً مما جرى . وان هي لكذلك اذ سمعت وقع اقدام تقترب اليها فرفعت رأسها واذ ابصرت الرئيسة قامت لمقابلتها ولكنها مـا كادت تفعل ذلك حتى رأت الامير نيكيتا والتقت عيناها بعينيه فصرخت وسقطت الى الارض . فبادرت اليها الرئيسة وانهضتها واجلستها على مقعدها وهي تقول — لا تضطربي يا ولدي فهذا الامير احد معارف زوجكِ وقد جاء ليودعكِ فتشجعي وقابليه . فلم تجب هيلانة بكلمة بل كانت ترتجف والدموع تهطل من عينيها . اما الامير فلما ابصرها بثوبها الاسود الرهباني ارتعش ارتعاشاً شديداً وانقلبت صورة الدنيا في عينيه . غير انه تجلد ودنا منها وقال وقلبهُ يتصدع الماً — اهكذا قضي عليَّ ان اراكِ يا هيلانة ؟

فاجابته وهي تتنهد وتشرق بدموعها — نعم وليس لنا ان نتقابل الا عَلَى هذه الصورة

فشعر الامير ان ناراً تحرق احشاءه فقال — ولماذا لم تنتظري عودتي ايتها القاسية ؟

قالت — لانني لو انتظرتُ لما امكنني المجيء الى هنا وحسبي ما سقطتُ فيه من المآثم السابقة

قال — فاذاً قد تمَّ كل شيء ولم يبقَ لي الا ان اودعكِ الوداع الابدي . فاسمحي لي ان اشاهدك لآخر مرة . اميطي هذا اللثام عن وجهك لأرى عينيك الوديعتين واتزود منك النظرة الاخيرة

فأزاحت هيلانة اللثام عن وجهها ورأى الامير عينيها المحمرَّتين من شدة البكاء وقد ذبل ورد وجنتيها . وكانت الرئيسة قد ادركت بعض الشيء من امرهما فانصرفت عنهما . ولما خلا المكان قال الامير وفؤاده يتفتت ومهجتهُ تتقطع — الوداع ياهيلانة ! الوداع يا من كانت قبلة امانيَّ ووجهة آمالي ! الوداع يا من وقفت لها كل دقيقة من وجودي ! فالظاهر ان الله قد كتب لنا بعدم السعادة

فاجابت هيلانة والدموع تكاد تخنقها — ليس لنا ان نكون عَلَى حال افضل مما نحن فيه لان دم الشريف موروزوف قد حال بيننا و بين السعادة فهو بسببي

قد نال ما ناله من العذاب والموت وانا علة عذابهِ وموته فكيف يمكننا بعد هذا ان نكون سعيدين ؟ ومن السعيد الان في كل بلادنا ؟

وكان الامير يفضل الموت على سماع هذا الكلام فقال — صدقتِ فليس احد سعيداً في هذه الاحوال الحرجة ولكني لم اكن اتوقع ان افارقكِ في مثل هذه السرعة فراقاً دائماً ابدياً ، فياالضياع الامل ويالخيبة المسعى !

قالت — ليس فراقنا ابدياً كما تزعم بل هو وقتيٌّ في هذه الحياة المملوءة مكاره ونوائب ولا سيما في بلادنا التعسة

قال — يا ليتني متُّ قبل الان فقد تعرَّضتُ لكثير من المخاطر والاهوال ان كان في الحرب مع التتر او من قبل الملك فكنتُ قد خففتُ عن نفسي وطأة حزن لا يقاس به اشدُّ الاحزان واقوى البلايا . فماذا ارجو الان من دنياي وقد تلاشت آمالي وكتب لي ان اموت غمًّا

قالت — اصبر على حكم القضاء ولا تحد عما تعودتهُ منذ زمان من الاعمال المجيدة في خدمة الوطن العزيز ففي ذلك خير وسيلة للسلو واعظم مساعد على احتمال هذا الجرح الاليم . اما انا فلن انقطع عن الصلاة لاجلك وهذا ايضاً يسليني بعض التسلية ويخفف عني بعض الغصص

قال — وهو يضطرب وينتفض كالعصفور — واي وطن تعنين ؟ واين هو هذا الوطن الذي يجب ان ندافع عنه ؟ ومن هم اعداء الوطن الذين ينبغي ان نقاومهم لنردَّ عن الوطن سهامهم ؟ فاعلمي يا هيلانة ان اعداء الوطن هم الملك نفسه وليس التتر او غيرهم كما تزعمين . فالملك وحده هو عدوّ الوطن الاشدّ وهو علة بلاياه ونقائه .. ان افكاري يا هيلانة قد اظلمت واضطربت وكل شيء قد اظلم في عينيَّ فلم اعد ادري اين الكذب واين الحق ، وكل شيء صالح يسقط الان ويختنق وما الشرّ فيشتدّ ويسود . وقد كان يخطر في بالي ان اهجر هذه البلاد وارحل الى بلاد اخرى كما فعل كوربسكي وغيره ممن لم تطق نفوسهم مثل هذه الاحوال ولكني نبذتُ هذه الافكار من رأسي لاني كنتُ احيا لاجل غاية وكانت فيَّ قوّة بل كنتُ ارى الدنيا كلها فيكِ ولا ارى من الدنيا سواك . اما

الان وقد كسر قلبي وتمزَّق كبدي فلم يبقَ لي مطمع في العيش وقد زالت هذه النهاية التي كنت احيا بها وفنيت مني القوة ولم يبق في نفسي شيء من اماني الدنيا وصار عقلي يضطرب ...

فخافت عليه هيلانة وجعلت تخفف من هيجان افكاره وتجتهد في تسكين خواطره ثم قالت — عفواً يانيكيتا ! اصفح لي وسامحني عَلَى ما مضى فقد نغَّصتُ حياتك ، فانا علة شقائك وبلاياك . والذي أرجوه منك ان تسناني وتمحو ذكري عن صفحات قلبك وتحسب اني قطعتُ من ارض الاحياء . واعلم ان في قلبي من نار الوجد ما يحرق جسدي وفي عيوني من دموع الحزن ما يقرّح اجفاني . فسامحني وارحمني وعلمني بتعقلك وثباتك مقارعة الخطوب وكن عوني عَلَى البلاء بابتعادك عني ونسيانك اياي . واياك ان يتخالج في صدرك فكر بمعاداة الملك . نعم انه سبب كل هذه المصائب والويلات غير ان الله سيكافئنا في العالم الاتي فنشاهد بعضنا بعضاً . على هذا الامل عش الان يانيكيتا ودعني ابكي حظي واكفر عن كل ما جرى بدموعي مترحمةً عَلَى الميت مترجيةً له ولنا العفو والغفران . فقم الان واذهب الى حيث يرسلك الملك ولا تنس الواجب الوطني . انتَ رفضتَ الانخراط في سلك فرقة رجال الحرس وحسناً فعلت ، وانما عليك ان تنطلق الان لاجل محاربة اعداء الوطن والدين ، وانا أسأل الله ان يقوّيك ويشدّدك ويجبر كسرك

فزفر الامير زفرة حارّة وقال — سانصرف الان عنكِ يا هيلانة ولكني لا استطيع نزع حبكِ من قلبي فستبقى عندي ذاكرتي التي تمثلكِ امامي في كل دقيقة من دقائق حياتي ، فاراك بقربي رغماً عما بيننا من المسافة . ولو كان حبك لي كحبي لك لقاومتِ الخلائق كافةً والمصائب والحياة وبقيتِ لي ، ولكني لا اطالبك بما ليس في امكانك

ولما قال هذا اخذ يديها المبللتين بالدموع وقبلهما وهو يكاد يحرقهما بانفاسه . اما هيلانة فلما لم تعد تقوي عَلَى ضبط عواطفها انحنت عليه فقبلته وقبلها ثم تمتمت كلمة الوداع وابتعدت عنه وهي تشرق بدموعها

اما الامير فحالما فصلت عنه هيلانة اعترته رعشة عصبية وقد اظلمت الدنيا في عينيه وشعر ان دمهُ جمد في عروقه وان قلبه تحول الى حجر . فلبث بضع دقائق شاخص النظر جاحظ العينين اصفر اللون كمن انتشرت على محياه ضبابة الموت . وان هو لكذلك جاءت اليه الرئيسة فامسكت بيده وقادتهُ الى باب الدير فطأطأ رأسه وتبعها بدون ان يفوه بكلمة . ولما ودَّعتهُ الرئيسة افاق من ذهوله فتجلد وشكرها ثم جمع قواه المتضعضعة وامتطى جواده وسار راجعاً في طريق الحرش وهو يكاد يسقط عن الجواد لفرط حزنه وشدَّة بلواه . وكان ميخيتش يتبعهُ صامتاً مندهشاً من الحزن والقلق على سيده لعلمه بان هذه الضربة هي اعظم مما يقوى على احتماله وانها قد اذهبت رشده وكسرت قلبهُ كسراً يصعب جبره فكيف له ان يسليه الان ليدرأ عن قلبهِ الكسير ما لقيه من آلام الخيبة ومرارة الحرمان

وكانت مظاهر الطبيعة على جانبي الطريق مما يسرُّ النواظر ويشرح الخواطر ولكن نيكيتا لم ينتبه الى شيء من ذلك بل امعن في الخيال وفي صدره ما يمزّقهُ وفي قلبه ما يسيل دماءه وقد تمثلت له مرارة حياته بانفصاله عمن كانت موضوع حياته فتأوَّه وتقطع قلبهُ . وما زال يسير حزيناً آئساً تتجاذبهُ افكار شتى وميخيتش يتبعهُ مشرَّد الافكار تائه البال حتى وصلا الى جماعة اللصوص والفرسان فانضما اليهم وساروا جميعاً في طريقهم والامير في طليعتهم يقودهم الى الوجهة التي قُسمت له ولهم

ولم ينسَ الامير وعده لرئيسة الدير . فلما كان بعد ايام من ذلك التاريخ ارسل باسم الرئيسة ما بقي لديه من الاموال وهي مبالغ وافرة جدًّا فقبلتها الرئيسة وضمتها الى مال الدير وكلها السنة ناطقة بشكر هذا المحسن والثناء عليهِ

الفصل المئة والثاني

احوال مختلفة

مضى من تاريخ هذه الحوادث اعوام كثيرة والملك يوحنا الرابع الهائل على حالهِ من الظلم والاستبداد والتنكيل باشراف رعيته ومشاهير رجاله . وقد تمادى في ضلاله وطغيانه حتى زهقت الارواح وعمت الشكوى ولم يبقَ من اخصائهِ الاَّ ماليوتا و بوريس غودونوف . فاما ماليوتا فلم يحلَّ به عقاب غير انهُ قتل في احدى الحروب التي ثارت بين الروس والنمساويين والاسوجيين ولما بلغ هذا الخبر الملك يوحنا اشتدَّ غضبهُ وامر باحراق جميع الاسرى من الاعداء . وفي هذا الزمن صار المئات والالوف من الروسيين ينزحون بعيالهم الى بلاد ليتفا و بولونيا هرباً من تيار ذلك البلاء

وكان بوريس غودونوف في خلال ذلك لا يفتر لحظة واحدة عن السعي والاقدام حتى يفوز بأعلى مقام في البلاط لانهُ كان مولعاً بالعظمة والسؤدد . ولم تمرَّ عليه هذه المدة حتى بلغ قمة المعالي وصار مستشار الملك ومعتمده الخصوصي وقد تزوَّج ثيودور ابنُ الملك اختهُ فصارهو واخته وثيودور (وهذصار ولياً للعهد بعد موت اخيهِ) اخصَّ رجال البلاط . ولما رأى بوريس ما آلت اليه احوال البلاد من الخراب والدمار هزته الاريحية وكرم العنصر فنهض في سبيل الاصلاح وهو يجتهد بكل ذريعة استطاعها فى تلافي الاخطار والوقوف في طريق الشرّ واخيراً اقنع الملك بملاشاة فرقة رجال الحرس التي كانت الضربة العظمى عَلَى البلاد وعلة كل هذا الدمار . فانصاع الملك لمشورته ولم يلبث ايضاً ان ترك قرية الكسندروفا وعاد الى موسكو

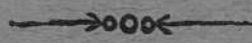
غيران النكبات ظلت تتوالى عَلَى البلاد الروسية ردحاً طويلاً من الزمن بالرغم عن مساعي بوريس واجتهاده . وقد اشتدَّت المجاعات وانتشرت الاوبئة فأهلكت الخلق الكثير وأمست البلاد محفوفة من كل جانب بالخطر والاعداء تهدَّدونها كل يوم بالخراب . فمن جهةٍ التتر اكتسحوا المقاطعات الجنوبية ونكلوا

بالاهلين تنكيلاً وطردوهم من منازلهم واوطانهم بعد ان نهبوا اموالهم وساقوا نساءهم سبايا . ومن جهة اخرى الاسوجيون دوَّخوا الجهات الشمالية . والليتفاويون كانوا يشنون الغارات على الجهات الغربية . فكانت روسيا على هذه الصورة محاطة من كل الجهات بالاعداء فضلاً عن الفتن الداخلية التي زهقت بها الارواح مما كاد يجعل البلاد قاعاً صفصفاً

وكان يوحنا وليُّ عهد الملك يوحنا الرابع يشارك اباه في شروره ومظالمهِ غير انهُ لما رأى انحطاط المملكة الى هذا الحد طلب من ابيه ان يرسله بجيش ليحارب الاعداء بنفسه . فأوجس الملك شرًّا في افكاره وقد رابهُ طلب ابنه وغلب عليهِ سوءُ الظن بهِ فرأى انهُ يدبرّ مكيدة جديدةً ينوي ان يكيدها له ليخلعه عن كرسي الملك ويتولى هو عوضاً عنه . ولما كان في احد الايام تجسم هذا الريب في نفسهِ الى حدّ ان ثار غضبه على ابنه وولي عهده فتناول عكازه المشهور وطعنه به في صدره فقتله في لحظة واحدة وراح المسكين شهيد جنون ابيه . ويقال ان بوريس غودونوف كان حاضراً في اثناء مقتل ولي العهد وقد وثب ليخلصه من الموت فأُصيب بجرح خطير كاد يفقده حياته ولم يتسنَّ له انقاذ ولي العهد كما تسنى ذلك للامير نيكيتا في غياض الجاهلية

بيدَ ان الملك قد ندم بعد ذلك ندماً مفرطاً ولبث مدةً يؤنبهُ ضميرهُ وتعذّبهُ افكارهُ وتزعجهُ الاحلام المخيفة والرؤى الهائلة حتى بات عرضةً للوساوس والافكار ولم يعد يقرُّ له قرار وقد شعر انهُ اصبح ملعوناً من السماء والارض فأحبَّ ان يتخلى عن شؤُون المملكة ولذلك أَلَّف مجلساً عالياً سماه « دوما » وأَعلن رعيتهُ انه يريد ان يتنازل عن كرسي الملك وينقطع الى احد الاديار وطلب من اعضاء الدوما ان يختاروا ملكاً جديداً . غير ان الاشراف ورجال الاكليروس التمسوا منه ان لا يفعل ذلك وما زالوا يلحون عليه حتى رضي ببقائه في كرسي الملك وهو يظهر الندامة الشديدة . على ان ذلك لم يطل لان الملك عاد الى سابق عسفه واستبداده فمن ذلك انه حكم بالاعدام على الفين وثلاثمئة رجل لانهم سلموا العدوّ بعض القلاع مع ان العدوّ نفسه شهد لهم بحسن الدفاع والبسالة النادرة

وخلاصة القول ان البلاد الروسية لم ترَ دماراً اشدّ من الدمار الذي انتابها في عهد هذا الملك الظالم وقد انسلخ منها عدة اجزاء استولى عليها الاعداء والملك في اثناء ذلك لاهٍ باختراع اصناف آلات العقاب والتنكيل برعاياه غير عالم كيف يدفع عن البلاد شرّ الاعداء . وقد اثرت هذه الحوادث فيه تأثيراً بليغاً فحنت ظهره وكادت تفقده رشده . وفي هذا الزمن التعس جداً وردت من جهات نهر ڤولغا بشرى أفعمت قلوب الاهلين مسرةً وهناءً وأنستهم بعض مصائبهم



الفصل المئة والثالث

يرماق وكولتسو

(ذيل تاريخي)

ان بيرستن زعيم اللصوص بعد ان شهد المبارزة الشهيرة بين الشريف موروزوف والامير اثناسي ڤيازيمسكي اقام في قرية الكسندروڤا يوماً آخر ثم تركها وسار الى جهات نهر ڤولغا ولم يكن معه من الرفاق في هذه المرة الاَّ توما الشجاع . ولم ينس بيرستن حديث كورشون له بخصوص الكنز المخبوء بالقرب من قرية « البشارة » فانه بحال وصوله الى جهات فولغا قصد القرية المذكورة وبحث عنه في حقل « الدائرة » كما اشار كورشون فوجده واذا به اموال لا تعد فحملها مع توما وسارا بها الى حيث كان يرماق احد كبار زعماء القوزاق في تلك الجهات . فاستقبل يرماق صديقه كولتسو (هكذا كان اسم بيرستن في جهات نهر فولغا) بغاية الترحيب ودعاه ليقيم معه ويشاركهُ في اعماله . فأظهر بيرستن سروراً عظيماً وصار من ذلك الحين يرافق يرماق في جميع غزواته وتوما لا يفارقه لحظة من الزمن . حتى اذا كان في بعض الايام علم يرماق ان جمهوراً من تتر بلاد سيبيريا قد شنوا الغارة على بعض الاملاك الروسية من جهات جبال اورال وعاثوا فيها وأفسدوا فجمع في الحال رجاله وكانوا نحو ثمانمئة وخمسين قوزاقياً ثمَّ جهزهم بالاسلحة الكاملة وسار بهم نحو جبال اورال وهو موطن النفس على محاربة التتر وقهرهم وسلب اموالهم . ولما وصل الى

الحدود السيبيرية التقى بجيش من التتر عدته الحراب والسهام لان اولئك الاقوام لم يكونوا قد عرفوا الى ذلك العهد الاسلحة النارية · اما الروسيون فكان لديهم كثير من البنادق والمدافع الصغيرة فلما التحم القتال واخذ الروسيون يطلقون على الاعداء من بنادقهم ومدافعهم ذهل هؤلاء وظنوا ان القوزاق جاءوا يحاربونهم برعود السماء فانخلعت قلوبهم واركنوا الى الفرار · فاستولى رجال يرماق على كل غنائمهم وجدّوا في اثرهم · وكان ملك سيبيريا في ذلك العهد رجلاً تتريًا اسمه كوتشوم · فلما بلغه خبر ظهور الروسيين في بلاده وانهم كسروا عسكر الحدود خاف خوفًا عظيمًا ولم يبطىء ان استدعى احد قواده المدعو ماميتكول وأمره ان يجمع جيشًا جرارًا ويسير به لمحاربة الروسيين وطردهم من بلاده وقام هو فتحصن مع جيش آخر في احد الجبال القريبة من مدينة سيبير عاصمة مملكة سيبيريا · اما ماميتكول فسار بجيشه لمقاتلة الروس ولما التقى بهم دارت بين الجيشين معركة هائلة كان النصر فيها لرجال يرماق فانهم قهروا جيش ماميتكول وكسروهم اوشم كسرة وقد قتلوا منهم خلقًا كثيرًا واركن الباقون الى الفرار ومعهم قائدهم · ولم يبقَ من الروسيين بعد تلك المعركة الا خمسمئة فسار بهم يرماق نحو الجبل الذي كان متحصنًا فيه الملك كوتشوم وجيوشه الكثيرة · وفي ٢٣ تشرين الاول سنة ١٥٨٢ اشتبك بين الفريقين قتال هائل أجلى عن انتصار الروس وفشل التتر · غير ان الروس فقدوا هذه المرة من رجالهم عددًا مهمًا · ولما رأى كوتشوم ذلك أمر ماميتكول بان يخرج من القلعة ويطبق عليهم من جميع الجهات ففعل واقتتل الفريقان في قاع من الارض بظاهر العاصمة وكانت العاقبة للروسيين ايضًا فأثخنوا في الاعداء ومزقوا شملهم وأسروا قائدهم · فلما رأى الملك استحالة المدافعة اخلى حصونه بأعظم سرعة وأشدّ خوف وهرب بمن بقي لديه من الرجال فلحقهم رجال يرماق الى مسافة بعيدة ثم عادوا فافتتحوا العاصمة واقتسموا ما وجدوه فيها من الخيرات والاموال والحجارة الكريمة وجلود السمور والثعالب · ولم تمضِ بعد ذلك الاّ مدة وجيزة حتى طار صيت يرماق وصار جميع سكان بلاد سيبيريا يرتعدون لدى ذكر اسمه وقد اقبل عليه من اكثر الجهات الامراء والاعيان

فهنأوه بانتصاره عَلَى كوتشوم وحلفوا له يمين الطاعة وقدموا له هدايا وافرة تودُّداً اليهِ وتزلفاً من رضاه وسألوه ان يحمي ذمارهم · فوعدهم يرماق خيراً وصرفهم بسلام ولم يكن قد بقي لدى يرماق في ذلك الوقت من رجاله الاَّ نحو ثلاثمئة رجل فعزم ان يرسل من قبله وفداً الى موسكو لينبيء الملك يوحنا باخبار انتصاره ويهنئه بهذه المملكة الجديدة الواسعة الاطراف فاختار صديقه كولتسو (بيرستن) ليكون في مقدمة هذا الوفد · فلم يبطيء كولتسو ان اختار من بين القوزاق بعض الاشداء وفيهم توما وسار بهم يخترق السهول والجبال حتى اذا صار بالقرب من موسكو اوفد واحداً من رجاله ليخبر الملك بقدومه ورسالته فابتهج الملك وقابله بالاحتفال والابهة وتلطف معه في الكلام · وفيما كان كولتسو يسرد عَلَى الملك اخبار المعارك التي وقعت لهم مع تتر سيبيريا انتبه الملك كمن غفلة فحدق ببصره الى كولتسو وقال — يخيل لي اني رايتك يا هذا قبل هذه المرة فمن انت ؟ · فجثـا كولتسو امام الملك وقال — نعم يا سيدي فأنا بيرستن زعيم اللصوص وقد دخلتُ مخدعك مع العم كورشون لاسرق مفاتيح السجن وأُخلص الامير نيكيتا · وها قد حضرتُ اليك الان فاما ان تصفح لي زلتي او تأمر بضرب عنقي · فقال الملك — حاشا لي ان اعاقبك لانك قد محوتَ الان عن نفسك وسم ما اشتهرتَ به من السيئات فانا اعفو عنك وأعتبرك احد ابطال رجالي · فنهض بيرستن وقبل يد الملك ووقف في مكانه وبعد ان فرغ من اخباره اثنى الملك عَلَى بسالته وبسالة صديقه يرماق وجميع القوزاق الذين وطئوا ارض سيبيريا وخاضوا غمار الحرب فيها · ثم أَمر ان يُكتب الى يرماق بان الملك قد عينه اميراً لبلاد سيبيريا وفوَّض اليه امرها وافتتاح باقي اقسامها وانهُ سينجده في اقرب مدة بجيش يكون تحت لوائه · وبعد ذلك اوعز الى بوريس غودونوف ان يقدم لكل واحد من رجال الوفد حلة جميلة وعدة كاملة ويرسل الذخائر اللازمة الى يرماق · ثم امر لكلٍّ من يرماق وبيرستن بجبة سنية وخوذة ملوكية وبذلة فاخرة وسيف مرصع فاستلمها بيرستن وودَّع الملك وخرج شاكراً وهو يكاد يطير فرحاً

وفي ذلك النهار دُعي بيرستن ورجاله الى مأدبة في منزل بوريس غودونوف

وفي اثنائها قام بوريس و بيرستن فشربا نخب الملك وولي العهد والامير يرماق ثم شربا انخاب بعضهما وجلسا يأكلان ويتحادثان · فسأل بيرستن عن صديقه الامير نيكيتا فاخبره بوريس بانهُ قد قُتل منذ سبعة عشر عاماً مع جميع رجاله في احدى حروب التتر عَلى الحدود · فقام بيرستن وشرب نخب ذكر صديقه الامير نيكيتا وقال — ان خسارة الامير نيكيتا لهي فادحة جسيمة على الوطن الروسي اجمع لان بمثله تسعد الاوطان وبمثله ترتقي الامم الى أعلى مراتب الشهرة وعزة الشان فقد كان عظيماً بنفسه عظيماً بافعاله فذكره لا يفنى ومجده لا يبلي الى منتهى الازمان

(تمَّت الرواية والحمد لله اولاً واخراً)

